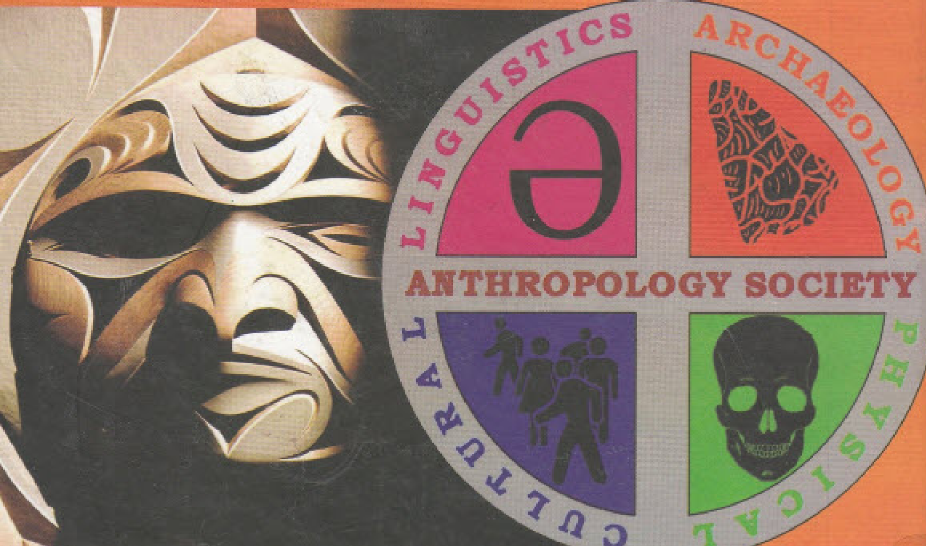
الأنثروبولوجيا اللغوية



دكتورة

مها محمد فوزى معاذ

مدرس الأنثروبولوجيا

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية

طبع نشر توزيع

٤٨٧٠١٦٣

الأنثروبولوجيا اللغوية

تأليف

دكتوره

مها محمد فوزي معاذ

مدرس الأنثروبولوجيا

بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية

٢٠١١

دار المعرفة الجامعية

طبع نشر توزيع

ت: ٤٨٧٠١٦٣

عدد الصفحات :- ٢٧٢

المؤلف :- مها محمد فوزى معاذ

عنوان الكتاب :- الانثروبولوجيا اللغوية

رقم الايداع :-

حقوق النشر والتوزيع

دار المعرفة الجامعية
طبع نشر توزيع

الاداره :- ٣٦ ش سوتير - الازاريطة - أمام كلية الحقوق - جامعة الاسكندرية - جمهورية مصر العربيه
تليفاكس :- ٠٠٢٠٣٤٨٧٠١٦٣
محمول :- ٠٠٢٠١٢١٦٦٦٩١٣
الفرع الثاني :- ٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي - الاسكندريه
Email: - darelmaarefa@gmail.com ,
d_maarefa@yahoo.com
Web site: - www.darelmaarefa.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بالكلمة بدأ الله الخلق، وبكلمة " كن فيكون" ويقول العلماء أن الإنسان حيوان ناطق، فقد ميزه الله تعالى عن باقى الحيوانات بالقدرة على الكلام، ويقول الفلاسفة إن الإنسان حيوان اجتماعى، فالكلام هو وسيلة الاتصال الأساسية للإنسان، وقد أنزل الله عز وجل القرآن على الرسول ﷺ مسموعًا ولم ينزله مكتوبًا، فالكلمة المسموعة هى المدخل الرئيسى للمعلومات إلى عقل الإنسان، ومن خلالها تتفتح مداركه وتنمو قدراته العقلية والاجتماعية، والكلام له جانبان: " فردى واجتماعى" ولا نستطيع تصور أحدهما من غير الأخر.. ويقول فرديناند دى سوسير " أن اللغة نتاج المجتمع للملكة الكلامية وتجميع للتقاليد الضرورية التى أقرها المجتمع لتسمح للأفراد بتدريب ملكاتهم". واللغة تمثل الجانب الاجتماعى للكلام وتتواجد بفضل نوع من العقد الموقع من أعضاء الجماعة، وفوق ذلك على الفرد أن يتخذها مهنة متى يتعلم أداء اللغة ...

أن اللغة هى مجموعة رموز نضفى عليها معانى ومدلولات خاصة ونستخدمها كوسيلة اتصال رئيسية داخل المجتمع من أجل تيسير أنشطة الحياة، وقد تستخدم فيما بعد فى حفظ التراث الإنسانى وإنماء الثقافة ونقلها إلى الأجيال، وهى لذلك تتفاوت بين الرموز الحسية أى التى تشير إلى المحسوسات وبين الرموز التى تشير إلى المجردات وثراء اللغة وفقرها هو فيما يبلغ لديها من تلك الرموز الأخيرة ... وكل بنى الإنسان لديهم لغة ومن ثم فالكلام ظاهرة إنسانية بحتة بمعنى أن له طبيعة مختلفة أشد الاختلاف عن طبيعة الأصوات التى تصدر عن بقية الحيوانات، وعلى الرغم من أن هناك كثيرًا من الحيوانات تصدر أصواتًا تعبر بها عن بعض الانفعالات

الأساسية القليلة مثل الآلام والغضب والخوف ... الخ، ولكن كلام الإنسان يختلف اختلافًا جذريًا عن هذه الأصوات، كما أنه أكثر اتساعًا من حيث المفردات بحيث يمكن للإنسان الاتصال مع غيره من الناس بطريقة أفضل وأكثر فاعلية...

واللغة وجدت بين الناس وللناس، والمجتمع البشرى وجوده محال بدونها كما أنها رمز، بل مجموعة رموز معينة، وتقوم هذه الرموز بدور ثقافي هام، حيث أن الترميز شرط أساسى للثقافة، واللغة هى واحدة من أكثر وسائل الترميز أهمية، فاللغات ترتبط بنظم المعنى بفضل ما تضطلع به من وظائف بالمجتمعات الإنسانية، لذلك فإنه من الصعب تحديد الصيغ اللغوية بدقة، فهى لا يمكن أن تكون محددة ومنتظمة، وتتغير المعانى وطريقة النطق بمرور الوقت، ويمكن أن نرجع كثير من التغير فى دلالات الألفاظ وتطورها إلى وقوع تغيرات فى الثقافة غير اللغوية، وأعنى بذلك فى النواحى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى تحيط تلك اللغة، فاللغة جسم حى، وبما أنها تتعامل مع البشر، فهى عرضة إذن للتغيير بتغيرهم والتطور بتطورهم، فمن سمات جميع اللغات فى هذا العالم أنها تتغير باستمرار وتصنع جملاً لا حصر لها من كلمات محدودة.

ويعد الكتاب الراهن " **الأنثروبولوجيا اللغوية**" مدخل نظرى ومحاولة موضوعية تهدف فى الأساس إلى تعريف القارئ والدارس بفرع من فروع علم الأنثروبولوجيا وهو الأنثروبولوجيا اللغوية..

حيث جاء **الفصل الأول** بعنوان: " **أهمية اللغة فى حياتنا**" ليناقش أهمية اللغة فى حياة البشر وطبيعتها ومفهومها لدى العلماء وكيف تناولها الدارسين بالوصف والتحليل، كما يناقش أهمية الإشارات والإيماءات فى حياة الإنسان وما هو العلم الذى يختص بدراسة هذا الجانب.

أما **الفصل الثانى** فجاء بعنوان: " **اللغة كعلم وظاهرة**" والذى يناقش اللغة كعلم وكيف يدرس الباحث اللغوى الأنثروبولوجى اللغة، كما يعرض الفصل لمحة عن تاريخ الدراسات اللغوية والاتجاهات اللغوية المعاصرة الآن ...

وجاء **الفصل الثالث** بعنوان: " **تغير اللغة فى المجتمع**" والذى يناقش عوامل تغيير اللغات، وعلم اللغة الاجتماعى ودراسته للغة كظاهرة اجتماعية، ثم تعرض للغة كعنصر اتصالى ووظيفتها فى المجتمع.

أما **الفصل الرابع** فهو بعنوان: " **اللهجة فى المجتمعات**" والذى يناقش فيه مفهوم اللهجة وأسباب نشأة اللهجات في المجتمع، كما يركز على كيفية دراسة الباحث اللغوى الأنثروبولوجى للهجة فى المجتمع، وأخيراً عرض للمحاولة العالمية التى قام بها " د.اسبرانتو" وهى محاولة إنشاء لغة عالمية...

والفصل الخامس والأخير جاء بعنوان: "**عوامل التغير فى اللغات العامية**" ويتضمن عرض لأوجه التغير الذى حدث فىعاميتنا المصرية ابتداءً بأزمة الثنائية بينهما (العامية والفصحى) إلى أن نصل إلى الأزمة الحالية التى تظهر فى عاميتنا، وهى تتكون من شقين:

- **المستحدثات.**
- **الاقتباس.**

ثم تعرض الفصل لأهم العوامل المؤثرة فى هذا التغير اللغوى وتحليل اللغة العامية السائدة وما يوجد بها من تغير واضح على ألسنة من يتكلم بها من طبقات الشعب المصرى المختلفة.

والله ولى التوفيق،،

دكتورة

مها محمد فوزى معاذ

الفصل الأول

اللغة في حياتنا

- مقدمة.
- أهمية اللغة في حياة البشرية.
- طبيعة اللغة ومفهومها لدى العلماء.
- هل يمكننا التعامل بدون الحديث؟

  السيموطيقا .. الاتصال ووسائله.
- لغة الحيوان كأساس للسلوك الاجتماعى داخل بيئتهم.
- الخلاصة.

مقدمة:

إن الانسان أرقى الكائنات الحية وأوسعها إدراكا، ولسعة إدراكه كثرت حاجاته كثرة لا يستطيع الواحد منه الاستقلال بها وحده، فاحتاج إلى التعاون مع بنى نوعه، ولكن هذا التعاون يحتاج إلى تفاهم وإلى أن يعرف كل من المتعاونين ما عند الأخر، وإلا تعذر العمل، لذلك فهو محتاج إلى واسطة، واللغة هى هذه الواسطة، هى تلك الأصوات التى تخرج من فم الانسان بصورة مرتبة لتعبر عن أفكاره وتصوراته الداخلية وأيضا ليستطيع من خلالها توصيل ما يريد إلى الآخرين.

ومما لا شك فيه أن كل الكائنات البشرية تتعلم كيف تتحدث وما أن تتعلم حتى تمضى فترات طويلة من حياتها اليومية في الحديث مع المحيطين بهم من الكائنات البشرية الأخرى، ولكن فيم يتكلمون؟(١).

إن البشر في مختلف أنحاء العالم جميعاً يتكلمون، ولكن تتعدد اللغات وتختلف باختلاف الأجناس والثقافات، ومع ذلك فإن اللغة مع تعدد صيغها هى تلك العملية المرتبة التى تحتوى على نوع من الأصوات تمثل أداة يمكن استخدامها لنعبر عن كل ما نريد، ويعتبرها بعض الدارسين شفرة مرتبطة منظمة تساعد على ترجمة ما يدور بداخلنا من أفكار ومعتقدات حيث أنها تحول إدراكنا بصفة عامة إلى صور لفظية يمكن أن تفسر عن طريق الآخرين(٢).

واللغة من جانب آخر هى من أعظم منجزات الجنس البشرى، لأنها تمس فروعا مختلفة من المعرفة، وتؤدى طوائف عديدة من الأغراض،

---

(1) Haviland, Willam A. "Anthropology", Copyright 1974, Holt, Rinchart & Winston, Inc., New York, PP. 283 – 284.

(2) Ibid., p. 284.

فهي عمل فسيولوجي لأنها تدفع عدداً من أعضاء الجسم إلى العمل، وهي فعل إنساني لأنها تتطلب نشاطاً إرادياً من العقل، وهي ظاهرة اجتماعية لأنها وسيلة اتصال بين البشر، وهي أخيراً حقيقة تاريخية ثابتة من عصور متباعدة في القدم، وستظل موجودة في المجتمع حيث يرث الله الأرض ومن عليها[١]. ويعتبر الكلام هو أكبر قدرة وضعها الله في الإنسان، فتلك القدرة هي التي تميزه عن الحيوان، كل بني الإنسان بلا شك لديهم لغة، وقد اجمع الباحثون على أن الإنسان وحده هو الذي منح هذه القدرة المميزة على الرغم من أن بعض أنواع الحيوان والقردة العليا تصدر عنهم أصوات لها معنى عند أقرانهم، وأعتقد أن هذه الصفة التي يتمتع بها الحيوان لا ينطبق عليها مصطلح "اللغة" فهي تورث ولا تكتسب، وهي بذلك فقدت أهم خاصية من خصائص اللغة، حتى وإذا كانت مكتسبة فهي في أضيق نطاق وغير قابلة للنمو.

فالذي جعل من اللغة الإنسانية ميكانيزماً متطوراً معقداً هو الفكر، أي أن العقل الإنساني يشكل الاطار الأوسع لحركة اللغة ونموها، ومن ثم هو الخلفية الضرورية لأي إسهام تقوم به اللغة في بناء الثقافة الإنسانية، فالإنسان ككائن ثقافي قادر على تحديد معاني للعالم الذي يعيش فيه من خلال اللغة، فهو يطلق على الأشياء معاني من خلال احساسه بالشيء، فباللغة يمكنه أن يفكر منطقياً، أن يتحكم في تجاربه، أن يتخيل ويرتب الماضي والمستقبل، فهو يصبح كائناً متكاملاً من خلال اللغة، فالكاتب الالماني لودفج فيورباخ Ludwing Feuerbach يقول في بيان أهمية اللغة للإنسان:

(١) على محمود مزيد، علم اللغة العام في الفكر الغربي، المطبعة العالمية، ١٩٧٨، ص ٣، ٤.

"إن الكائنات تجعل البشر أحرارا، فالشخص الذى لا يستطيع التعبير عن نفسه يصبح كالعبد، الحديث هو تعبير عن الحرية، والكلمة هى الحرية نفسها"(١).

فالإنسان حقيقة لا يصبح حراً إلا إذا استطاع التعبير عن نفسه، ولن يتسنى له ذلك إلا باللغة، من خلالها يستطيع أن يوصل بها أفكاره وتصوراته ومعتقداته ككائن حر.

وبما أن اللغة هى كيان الإنسان، نفس الشئ بالنسبة للغة ليس لها كيان بدون الإنسان، فإن عاش عاشت وإن مات ماتت، وهذه حقيقة لا تحتاج إلى دليل.

إن اللغة هى أعظم قدرة في حياتنا، وهبها الله لنا لنتمكن من العيش معها، فهى بحق سراً لله في خلقه من بنى البشر ولهذا يستدعى منا ذلك أن نبين أهميتها في حياتنا، وهل يمكننا العيش والتعامل بدونها، وكيف ينظر إليها العلماء والدارسين، وهل يوجد غيرنا من الكائنات لديهم هذه الخصيصة (اللغة)، وإذا كانت لديهم هل تختلف عنا كثيراً أم أنها تحمل نفس المفهوم، كل هذه تساؤلات سأحاول الاجابة عليها من خلال هذا الفصل، لعلى أستطيع أن أوضح ما هى اللغة في حياتنا.

أهمية اللغة في حياة البشرية:

إن واحدة من أهم وأول القصص التى تقابلك عندما تفتح الانجيل هى قصة "برج بابل"، في هذه القصة يقول الانجيل إن الناس في ذلك الوقت حاولوا أن يثبتوا أن لهم قدرة خارقة تعادل قدرة الله سبحانه وتعالى،

---

(1) Pei, Mario. "The Story of Language", J. B. Lippincott C., New York, 1949, P. 71.

فقرروا حينذاك أن يشيدوا برجاً شامخاً قد يصل إلى السماء، وذلك لاثبات قدرتهم، ولكن سرعان ما ثبت فشل كل ذلك، فيقول الانجيل:

"سرعان ما أثبت الله أنه أكبر قدرة منهم، فقد كان حتى هذا الوقت الناس جميعاً يعيشون في قطعة واحدة من الأرض، ينتمون إلى نفس العائلة، ويتكلمون لغة واحدة، ولكن الآن حينما بدأوا يشيدون البرج، غير الله في ألسنتهم، وأصبحوا لا يتكلمون بنفس الطريقة ولم يعدوا يستطيعون التفاهم"[1].

وحاولوا بعد ذلك الاستمرار في بنائهم، ولكنهم لم يستطيعوا العمل، فقد يصيح فرد منهم في الأخر محذراً أو آمراً ولكن يعجز الأخر عن فهم ما يعنيه، وانقلبت الأمور حينئذ رأساً على عقب، وهنا توقف العمل في هذا البناء، واجتمع الأفراد مع بعضهم البعض، وحاولوا فهم اختلافهم، ولكنهم لم يستطيعوا، وانتمى كل منهم إلى عائلة ولغة مختلفة، والبرج الذى كاد أن ينتهى توقف تماماً، وكان ذلك بمثابة تحذير من الله سبحانه وتعالى أنه لا أحد يفوق قدرته[2].

إن كل ما يعنينا في تلك القصة التى سردها الانجيل هو إيضاح أهمية اللغة، وأنه بدون اللغة لا يمكن التفاهم بين الناس، وبدون التفاهم بينهم لا يمكن إيجاد فرصة للعمل والتعاون معاً في الحياة.

إن هذه الحقيقة يمكننا إدراكها جيداً بدون قصة "برج بابل" فإنه لا غنى عن اللغة في حياتنا، فحين يقترب طفل ما من الآخر يريد اللعب معه، فإن أول شئ يفعله هو أن يقول له "أتحب اللعب معى؟"، قد يرد الطفل

---

(1) Pei, Mario, "All About Language". J. B. Lippincott C., New York, 1954, p. 3.

(2) Ibid., p. 4.

الآخر بلغة أخرى لا يفهمها الطفل الأول مع أنه يقصد الإجابة عليه، فعلى سبيل المثال قد يقول:

Don't you want to play with me? - بالانجليزية ويرد الطفل فيقول: Je ne comperends pas بالفرنسية. وفى هذه الحالة يمكن للطفل أن يريه الكرة، وتصبح بمثابة علامة لما يقصد أن يقول، فيفهم الطفل الآخر على الفور وينضم إليه في اللعب. ولكن هذا الاتصال قد تم ببساطة لأن اللعبة في أصلها بسيطة ولا تحتاج إلى شرح، ولكن إذا تم ذلك في لعبة أخرى لها قوانينها وطرقها، قد يعجز الفرد هنا عن شرح اللعبة للآخر طالما لا يعرف لغته(١).

هذا المثل البسيط يمكن أن يوضح لنا أهمية حاجتنا إلى اللغة، وهذا يوحى بما لا يدع مجالا للشك أنه بدون اللغة قد يستطيع الفرد أن يقوم بالأفعال البسيطة عن طريق الرموز والاشارات والعلامات، ولكن لإيضاح فكرته وما يقصد بالضبط حتما لابد أن يلجأ للغة.

إن اللغة بلا شك هامة في حياة كل فرد، هى العامل الأساسى في قيام الصداقات والعلاقات، هى التى من خلالها يتكلم معك طبيبك عن مرضك، والتى عن طريقها يشرح لك مدرسك ما تريد فهمه ويوصله إلى عقلك، هى التى يستخدمها كل من أهلك، أصدقائك، وزيرك، حينما يحاولون مساعدتك في حل مشاكلك، حتى في وسائل الإعلام فإنهم يرفهون عنك من خلالها، ورجال الشرطة يرشدونك عن طريقها .... الخ، هى وبلا شك محور حياة الإنسان(٢).

---

(1) Ibid., p. 5.
(2) Ibid., P. 8.

فهى حياتك أيها الفرد، استغلها بقدر ما يمكنك، أضف إليها ما تستطيع وعلى قدر ما تستطيع، ولا تخشى الاضافة أو التجديد فيها فهى لغتك وتعمل لصالحك، وتجعلك تشعر وتعطى المعانى لكل موقف في حياتك، تحمل أفكارك للآخرين تماماً كما تحمل أفكارهم إليك(1).

وفى النهاية نستطيع أن نصل إلى أن اللغة هامة في حياة أى كائن بشرى، فهو يحتاجها تماماً مثلما يحتاج الطعام والشراب، بدونها لا يستطيع العيش مع الآخرين من بنى جنسه، لذلك يجب عليه أن يحافظ عليها، يعمل دائما على تطويرها والنهوض بها حتى يمكن أن تساير ما يحدث من تقدم، فهى ركن هام من أركان حياته ترتكز عليه جوانب أخرى عديدة من حياة الفرد.

فاللغة وجدت بين الناس وللناس، والمجتمع البشرى وجوده محال بدونها، فنحن نراها في كل مجتمع، وتستعمل في كل مجال، ولا غنى عنها كوسيلة اتصال أساسية.

ولأهمية الدور الذى تلعبه اللغة في حياتنا لا ينبغى لنا الوقوف عند ايضاح أهميتها فقد، بل يجب أن نتطرق إلى أمور أبعد وأدق من ذلك بكثير، فقد نتساءل على سبيل المثال هى كل وسيلة اتصال يمكن أن نطلق عليها مصطلح "اللغة"، فنحن نعرف أن هناك لغة النحل ولغة الطيور ولغة الاشارة ولغة الكمبيوتر، وحتى لغة العيون التى يتغنى بها الشعراء هل تختلف كل هذه اللغات عن لغة الانسان؟ وهل هذا الاختلاف سطحى أم جذرى؟ وهل اللغة ظاهرية فطرية أم مكتسبة؟ وأخيراً كيف ينظر العلماء والدارسين إلى اللغة هذه الأسئلة وعشرات أخرى مثلها شغلت بال المفكرين

---

(1) Ibid., p. 10.

من فلاسفة وعلماء نفس وعلماء لغة منذ مئات السنين، لذلك تضاربت وتعددت الأقوال في تعريف اللغة، ولكنها بلا شك تتفق كلها في النهاية حول مفهوم واحد .. سنحاول أن نصل إليه في النهاية بعد عرض تفصيلى لتلك التعريفات وبيان أوجه اختلافها وتعددها.

طبيعة اللغة ومفهومها لدى العلماء:

اللغة رمز، بل هى مجموعة رموز تستخدم للاتصال بين أفراد المجتمع الواحد من أجل تيسير أنشطة الحياة المختلفة، وقد تستخدم فيما بعد في حفظ التراث الإنسانى وإنماء الثقافة ونقلها إلى الأجيال، وهى لذلك تتفاوت بين الرموز الحسية أى التى تشير إلى المحسوسات، وبين الرموز التى تشير إلى المجردات وثراء اللغة وفقرها فيما يبلغ لديها من تلك الرموز الأخيرة.

واللغة ليست ظاهرة بسيطة، بل يتطلب فهمها جهداً كبيراً، فهى ظاهرة اجتماعية مكتسبة، فكل فرد منا ينشأ فيجد لديه نظاماً لغوياً يسير عليه مجتمعه، فيتلقاه عنه تلقياً بطريق التعلم والتقليد، كما يتلقى تماماً سائر النظم الاجتماعية الأخرى[1]. فهى من الأمور التى يرى كل فرد نفسه مضطراً إلى الخضوع لما ترسمه، وكل خروج على نظامها ولو كان على خطأ أو جهل يلقى من المجتمع مقاومة تكفل رد الأمور إلى نصابها الصحيح وتأخذ المخالف ببعض أنواع الجزاء، فإذا أخطأ فرد في نطق كلمة ما أو استخدمها في غير مدلولها، أو خرج في تركيب عبارته عن القواعد التى ترسمها لغته، كان حديثه موضع سخرية وازدراء من مستمعيه، الذين

---

(١) على عبد الواحد وافى "اللغة والمجتمع"، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥١، ص ٢.

يرمونه بالغفلة والجهل[1]. وقد يحول ذلك دون فهمهم لما يريد التعبير عنه، وليس هذا مقصوراً على الخطأ الذى يتاح للناطق إصلاحه، بل أن الخطأ الذى لا يمكنه إصلاحه لخلل طبيعى في أعضاء النطق قد يثير هو نفسه لدى السامعين بعض ما يثيره غيره من الأخطاء ويجر على صاحبه بعض الآلام والمتاعب في تعبيره وتفاهمه، وإذا حاول فرد أن يخرج كل الخروج عن النظام اللغوى بأن يخترع لنفسه لغة يتفاهم بها، أصبح عمله هذا ضرباً من العبث العقيم[2].

وقد حاول العالم اللغوى "ادوار سابير E. Sapir" أن يكشف عن طبيعة اللغة ويقربها إلى الأذهان، فأوضح في كتاب له بعنوان The Study of Speech أن الكلام وظيفة إنسانية غير غريزية، أى أنه وظيفة مكتسبة ووظيفة ثقافية، فقام بمقارنة اللغة بنظام السير، وقال أن السير وظيفة إنسانية موروثة بيولوجيا، وأنه وظيفة عضوية عكس اللغة تماما، وقال سابير:

"إن الكائن البشرى العادى مقدر له السير لا لأن من يكبره يعلمه ذلك، بل لأن تكوينه العضوى معد منذ الحمل للقيام بهذا العمل، وعلى هذا فليس للثقافة دخل هام في هذا الشأن، والفرد أيضا مقدر له الكلام لأن الإنسان يولد في مجتمع من المؤكد أنه سيوجه نحو تقاليده، فإذا عزل إنسان وليد عن أى مجتمع إنسانى فإنه سيتعلم كيف يسير لو قدر له أن يبقى على قيد الحياة، ولكنه لن يتعلم كيف يتكلم، أى كيف يمارس النشاط اللغوى طبقا للنظام التقليدى السائد"[3].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣ ـ ٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٤.
(٣) محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربى، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢، ص ٧.

وأكد سابير في دراسته هذه على:

- أن السير نشاط إنسانى عام لا يختلف إلا في نطاق ضيق.
- أما الكلام فهو نشاط إنسانى يختلف من مجتمع لآخر لأنه ميراث تاريخي محض للجماعة، ولأنه نتاج الاستعمال الاجتماعى الذى استمر زمنا طويلا(١).

وفرق العالم اللغوى جاردنر في كتاب له بعنوان "اللغة والحديث" "Speech and Language" بين اللغة والكلام، فذكر أن عقل الإنسان في ساعات يقظته لا يستريح بل يفكر دائما، لكن الإنسان لا يتكلم دائما بل يفكر، وربما فكر بدون كلام، وفى الكلام العادى لابد من وجود شخص آخر على الأقل، فهو من هذه الناحية عمل اجتماعى وينبغى التفريق بين العمل الاجتماعى والعمل الجمعى، فكل نشاط كلامى فردى لأنه يصدر من شخص واحد، ولكن النشاط الكلامى يعتبر عملا اجتماعيا لأنه يتطلب سامعا له نشاطه السمعى الخاص، أما اللغة فنشاط جمعى يستطيع المتكلم أن يستعين بها في كلامه، ومحصولنا في الكلام ناتج من اللغة من أيام الطفولة، ويتزايد يوما بعد يوم(٢).

وقد كانت أول نظرية علمية دقيقة للتفرقة بين اللغة والكلام تلك التى أقامها اللغوى الشهير دى سوسور De Saussure وذلك في كتابه Course de Linguistique Général(٣). حيث أنه أوضح أن اللغة جهاز مكون من حروف "أصوات" وكلمات وعبارات وعلاقات نحوية في مجتمع

(١) المرجع السابق، ص ٨.
(٢) على محمود مزيد "علم اللغة العام في الفكر الغربى"، مرجع مذكور ص ٣.
(3) F. De Saussure, "Course de Linguistique Génerale", Fourth Ed., Paris 1949, P. 37.

ما، وإذا تعلمها الفرد يدخل بذلك في زمالة اجتماعية، أما الكلام فهو تنفيذ الفرد لهذا الجهاز واستخدامه، وقال أن اللغة توجد في المجتمع الذى ينطق بها، أما الكلام فهو وظيفة الفرد المتكلم، واللغة حقيقة اجتماعية، أما الكلام فهو عمل فردى يظهر فيما ينطقه الشخص أو يكتبه.

ولكن هناك بعض العلماء لا يميزون بين اللغة والكلام، ومنهم من هم من اتباع المدرسة السلوكية مثل جون واتسون John Watson، فقد كانوا يعتبرون أن اللغة هى الكلام (المنطوق فعلا)، وقد اعتبروا التفكير نوعا من الكلام الداخلى المنطوق على مستوى الحنجرة فقط، ولكن هذه أحدى وجهات النظر التى لم تدم طويلا، فقد تبين بالتجربة العلمية أن شل حركة جميع أعضاء النطق بوساطة مخدر مثلا قد أثر على النطق فأوقفه كلية لكنه لم يترك أى أثر على قدرة التفكير، هذا من الناحية الجسمانية، أما من الناحية اللغوية فقد أثبت كل من "دى سوسير" و"تشومسكى" أن اللغة نظام تجريدى يشارك فيه أبناء المجتمع الواحد، أما الكلام هو أحد مظاهر القدرة اللغوية الكلامية[١].

إذن الكلام هو تلك اللغة التى يستعملها الناس في المجتمع الواحد، وهذا يختلف من شخص لآخر، ولكن يربط بينهما جميعا قواعد لغوية وسلوكية عامة تجعل منها لغة واحدة مفهومة في المجتمع الواحد، أما اللغة فهى الظاهرة الاجتماعية الموحدة لمجتمع معين والتى يمكن عن طريقها دراسة النماذج الكلامية الصادرة عن أفراد ذلك المجتمع والاهتداء إلى القواعد أو العوامل المشتركة التى تجعل منها لغة مشتركة بين جميع أفراد

(١) نايف خرما "أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة" (الكويت) مجلة دورية، عالم المعرفة، ١٩٧٨، ص ٢١٩.

المجتمع المذكور، ويحاول الأفراد أن يحددوا كلامهم بتلك الضوابط اللغوية حتى يكونوا مفهومين لغيرهم[1].

ولم تقتصر تعريفات اللغة على العلماء الغربيين فقط، بل تناول بعض الدارسين العرب موضوع اللغة بكثير من الاهتمام، فعلى سبيل المثال عرف اللغوى العربى "ابن جنى – دت ٣٩٢ هـ) اللغة بأنها: "اللغة أصوات يعبر كل قوم عن أغراضهم"، وهذا التعريف يتضمن العناصر الأساسية لتعريف اللغة، فهو يوضح الطبيعة الصوتية للغة ويؤكد على أن اللغة وظيفة اجتماعية هى التعبير، وأن لها إطارا اجتماعيا ومن ثم فهى تختلف بأختلاف الجماعات الإنسانية[2]. وهذا التعريف قد يعنى أيضا أن كل لغة تختص بأصوات متميزة تعبر عن المعانى والأفكار القائمة في ذهن المتكلمين بها، فالألفاظ ليست إلا رموزا موضوعة للدلالة على المعانى والأفكار المطابقة للقصور، فالعالم اللغوى "دارمستربر Darmesterer" يقول "أن اللفظ صوت أو مجموعة أصوات منطوقة يمنحها المتكلمون قيمة فكرية" والأصوات تختلف من لغة إلى لغة ولكن فرضها الأساسى والعام هو توصيل الأغراض والقيم الفكرية[3].

كما تناول الأصوليون[4] أيضا موضوع اللغة، وتعددت تعريفاتهم لها، فنجد مثلا "ابن الحاجب" يعرفها في مختصر الأصول بأنها "كل لفظ

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠٨.

(٢) محمود فهمى حجازى "مدخل إلى علم اللغة"، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٨، ص ١١٠.

(٣) المرجع السابق، ص ١١١.

(٤) "الأصوليين" مصطلح أطلق نسبه إلى "علم الأصول" ففى مجال العلوم الانسانية يطلق مصطلح "علم الأصول" على علم أصول الفقه، وهو المنهج المنظم للتفكير الفقهى في التشريع الإسلامى، وكلمة "أصل" في اللغة تعنى أسفل الشئ أو جذوره أو قاعدته، ويعد الجانب اللغوى من أهم الجوانب التى يقوم عليها علم الأصول، فقد أسس هذا العلم على منطق اللغة العربية وهديها، فكانت هى الطريق الموصلة إلى استنباط الحكم من الكتاب والسنة.

وضع لمعنى"، كما يعرفها "الأسنوى" في منهاج شرح الأصول بأنها "عبارة عن الألفاظ الموضوعة للمعانى" وقال عنها "عبد العلى محمد بن نظام الدين الأنصارى" بأنها "اللفظ الدال وصفا". واللغة عند الأصوليين تبدأ من نقطة الدلالة الأولى، إذ نجدهم يربطون اللفظ بالمعنى لأن المعانى قائمة في النفس كما هو معروف - تعبر عنها ألفاظ اللغة، فهى ترجمة للفكر وما يجرى فيه، ولا يستطيع الحكم على صحة هذا الفكر وسلامته إلا من خلال تلك الألفاظ.

ولم يغفل الأصوليون الحديث عن وظيفة اللغة أيضا، فقد تنبهوا في بادئ الأمر إلى أن اللغة وظيفة اجتماعية، وهى بحكم تلك الوظيفة تعتبر سلوكا متميزا لأنواع خاصة من الكائنات الحية، إذ نجد في شرح الأسنوى "لمنهاج الأصول في علم الأصول" أن: "سبب وضع اللغة أن الإنسان مدنى بالطبع، أى لابد من بقائه من التمدن أى اجتماعه مع بنى النوع، إذ هو لا يستقل بما يحتاج إليه في المعاش والغذاء واللباس، كل هذا لا يتحقق إلا بالتعارف والتعاون، ولم يكن بد في ذلك من تعريف بعضهم ببعض بما في ضمائرهم، وكان المفيد لذلك أما باللفظ أو بالاشارة"(١).

وكتب اللغة الحديثة لا تخلو من تلك الاتجاهات التى سبق أن طرحها المفكرون العرب ومنهم الأصوليون في زمن متقدم من حياة اللغة، فقد توصل إلى هذا الرأى علماء الغرب بعد طول واستقصاء بحث، إذ يقول أحدهم: "في أحضان المجتمع تكونت اللغة، وجدت اللغة يوم أحس الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم، وتنشأ اللغة من احتكاك بعض الأشخاص الذين يملكون أعضاء الحواس، ويستعملون في علاقاتهم الوسائل التى

(١) السيد أحمد عبد الغفار، التصور اللغوى عند الأصوليين، دار عكاظ للطباعة والنشر، جدة، ١٩٨١، ص ٤٠ - ٤١.

وضعتها الطبيعة تحت تصرفهم، الإشارة إذا أعوزتهم الكلمة، والنظرة إذا لم تكف الإشارة".

كما توضح التعريفات الحديثة للغة - "أن اللغة نظام من الرموز" ومعنى هذا أن اللغة تتكون من مجموعة من الرموز تكون نظاما متكاملا، واللغة أكثر نظم الرموز التى يتعامل بها الإنسان تركيبا وتعقيدا، فإشارات المرور رموز ضوئية ولكنها محدودة وبسيطة، والإشارات الضوئية الصادرة من السفن والاشارات التى تعبر عنها أعلام الجيوش والكشافة والفرق الرياضية رموز بسيطة أيضا[١]، وأما الصيحات التى تطلقها الحيوانات بأنواعها تقوم على عدد معين من الرموز، ولكنها تكون نظاما مركبا معقدا، فالأصوات التى تصدر من أعضاء النطق عند الإنسان محدودة نسبيا، ولذا فكثير من اللغات تشترك في كثير من الأصوات وأكثر اللغات الإنسانية تتكون من عدد من الأصوات يقل عن أربعين صوتا، ولكن هذه الأصوات المحدودة تتخذ أنساقا كثيرة فتكون آلاف الكلمات في اللغة الواحدة، وتتخذ هذه الكلمات عدة ترتيبات متعارف عليها في البيئة اللغوية فتكون ملايين الجمل، وتعبر بذلك عن الحضارة الإنسانية والفكر الإنسانى، ولذا فاللغة تختلف عن نظم الاتصال الأخرى الموجودة عند الإنسان والموجودة عند الحيوان في أن اللغة نظام مركب معقد من الرموز[٢]. وقيمة هذه الرموز اللغوية كما تقول الكتابات الحديثة تكمن في أنها تقوم على العرف أى تقوم على ذلك الاتفاق الكائن بين الأطراف التى تستخدمها في التعامل، ولذا فالرموز اللغوية وسائل اتصال في إطار الجماعة اللغوية الواحدة، وتقوم عملية الكلام على وجود متحدث ومتلق وبينهما وسيلة

(١) محمود فهمى حجازى، مدخل إلى علم اللغة، مرجع مذكور، ص ١٢.
(٢) المرجع السابق، ص ١٢.

اتصال، وهذا معناه أن المؤثر والمتلقى متفقان على استخدام هذه الرموز اللغوية المركبة بقيمها العرفية[١].

ومن التعريفات الحديثة أيضا للغة ذلك التعريف الذى وضعه العالم اللغوى "ماريوبييه Mario Pei" الذى يقول فيه "أن اللغة تتكون من كلمات، وتلك الكلمات تؤلف جملا متكاملة تحمل كل منها معنى معين للمستمع، والكلمات هى رمز الفكر، ونحن يجب أن نتحكم في كلماتنا ونطوعها لاستخدامنا.

فاللغة هى محتوى الرموز التى تحمل أفكارنا وتصوراتنا، ويجب علينا الاهتمام بها ودراستها والعمل على تطورها تبعا ووفقا لاحتياجاتنا، والحفاظ عليها خوفا من انهيارها، فالآلة تحتاج إلى الزيت لتعمل دائما، كذلك نفس الشئ بالنسبة للغة، يجب العناية المستمرة بها[٢].

وتناول موضوع اللغة أيضا العديد من المدارس العلمية، وعلى رأسها "مدرسة علم الاجتماع الفرنسى" والتى كان العالم "رولان بارت" من أشهر العلماء المنتمين إليها، وقد كانت هذه المدرسة تنظر إلى اللغة على أنها نظام أو نسق اجتماعى وثقافى لا يرتبط وجوده بوجود الفرد، بل أن الفرد هو الذى يدخل إلى هذا النسق منذ الولادة فيتربى فيه، وبذلك تعتبر اللغة أهم عنصر في عملية التنشئة الاجتماعية، كما أنها توصف في العادة بأنها (لا شخصية) لأنها تعلو وترتفع وتسمو علينا وتتجاوزنا كأفراد، وقد كان رولان بارت حريصا على تأكيد عدم تملكنا الحق في أن نزعم أن لغتنا

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣.

(2) Mario Pei "All About Language" L. B. Lippincott C., New York. 1954, p. 36.

هى ملك لنا، لأن اللغة نسق ينبغى أن نتنازل له عن جانب كبير من فرديتنا إذا أردنا أن ندخل فيه(١).

وفى الاتحاد السوفيتى تكلمت "مدرسة بافلوف السلوكية" أيضا عن اللغة، فأوضحت أنها تتألف من ردود فعل أو استجابات لمؤثرات خارجية يصبح الشكل المقبول اجتماعيا منها عادة لدى الفرد عن طريق الثواب الذى يقدمه له المجتمع سواء اقتصر هذا المجتمع على الوالدين في بادئ الأمر أو امتد إلى أبعد من ذلك فيما بعد، فعندما يتعلم الطفل اللغة بهذه الطريقة يتوصل في النهاية إلى حفظ واختزان عدد محدود من نماذج الجمل التى يمكن مدها وتوسيعها(٢).

وأخيرا أثبتت مدرسة "تشومسكى Noam Chomsky" (٣). أن اللغة عملية معقدة، وأن الإنسان يولد ولديه قدرة لغوية محددة تساعده على اكتساب أية لغة يعيش في مجتمعها، كما أبرزت تلك المدرسة صفة هامة من صفات اللغة وهى قدرة المتكلم بها على تأليف وابتكار جمل وتعابير جديدة لم يقلها أحد من قبل، أو على الأقل لم يسمعها هو نفسه من قبل. وقد كان عالم النفس الأمريكى "سكينر Skinner" يتفق معه في هذا الرأى، حيث كان ينظر إلى اللغة على أنها عادة مكتسبة مثلها في ذلك مثل العادات الأخرى التى يكتسبها الإنسان أثناء نموه من الطفولة إلى الرجولة في مجتمع معين، وقال أن الطفل يولد وذهنه صفحة بيضاء خالية من اللغة

---

(١) أحمد أبو زيد، عالم الفكر، مقالة بعنوان "النصوص والاشارات" قراءة في فكر رولان بارت، مجلة دورية، المجلد الحادى عشر، ١٩٨٠، ص ٢٥٣.

(٢) نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، مرجع مذكور ص ١٣٨.

(٣) Noam Chomsky هو واحد من أعلام الفكر في العصر الحديث، اعتبر واحدا من ألف عالم صنعوا حضارة القرن العشرين، وقد أتى تشومسكى بنظريات عن طبيعة اللغة وطرق اكتسابها ومنهج دراستها.

تماما، وعزا نجاح الطفل في اكتساب عادة اللغة المعقدة إلى التدريب المتواصل المتحكم فيه(١).

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أفضل المحاولات التي بذلك من أجل الوصول إلى طبيعة اللغة وخصائصها المميزة وهي تلك التي قام بها العالم الأمريكي "تشارلز هوكت C. Hocket" خلال عشر سنوات من البحث والدراسة، فقد عكف هذا العالم على محاولة التوصل إلى الخصائص أو الصفات التي تميز اللغة الانسانية، فأوضح على سبيل المثال أن مفردات لغة الإنسان تستطيع أن تشير إلى أشياء محسوسة في عالم الواقع كما يمكنها أن تشير إلى الأفعال التي يؤديها الإنسان أو غيره من الكائنات، وبإمكانها أيضا أن تعبر عن الأفكار الذهنية المجردة، بالإضافة إلى ذلك فإن باستطاعة الإنسان أن يعمم الاسم مثلا على جميع الأشياء المتشابهة في الجوهر المختلفة في التفاصيل، فكلمة صندوق مثلا تشمل جميع أنواع الصناديق سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، مكعبة أو مخروطية ... وهكذا. كما أوضح أن اللغة البشرية المستخدمة في مجتمع معين يتوارثها الخلف عن السلف وأنه حتى لو كان الاستعداد لاكتساب اللغة أمرا بيولوجيا نظريا، إلا أنه لابد للطفل من مجتمع يعيش فيه ليكتسب اللغة فعلا، فإذا عاش منفردا فلا لغة على الإطلاق(٢). وهذا الرأى يؤكد ويتفق تماما مع نظرية سابير في مقارنته لنظام السير بالنظام اللغوى، وذلك في محاولته الكشف عن طبيعة اللغة وكيف أنها عملية مكتسبة تماما.

---

(١) نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، مرجع مذكور، ص ١٣٩.

(2) Hocket. Ch. "The Problem of Universals in Language" J. H. Greenberg (ed). (Cambridge Mass: MIt Press). 1968. pp. 5 – 9.

وتكلم "تشارلز هوكت" عن صفة الازدواجية وهى من الخصائص المميزة أيضا للغة، ومعناها أن الأصوات المنفردة في لغة الإنسان لا معنى لها تجد ذاتها، كحروف الصاد ـ والياء ـ والفاء مثلا، إلا أنها عندما تركب بشكل معين فتتولد عنها كلمة ضيف مثلا يصبح لها معنى(١). وهناك صفة أخرى تبدو من أهم صفات اللغة وهى قدرة لغة البشر على أن تشير إلى أشياء واحداث بعيدة عن التكلم زمانا ومكانا، فيمكن الاشارة إلى أن تشير إلى أشياء غير موجودة أو متطورة أو ملموسة، كما أن اللغة يمكنها الاشارة عن طريق الأفعال إلى الزمن الماضى والحاضر والمستقبل غير المتطور ... وهكذا(٢).

وبعد هذا العرض لتعريفات اللغة العديدة والمتباينة، يمكننا أن نصل من خلال ذلك في النهاية إلى أن كل التعريفات تتفق حول مفهوم واحد، وهو أن اللغة هى أداة التعبير عن ما في داخل الإنسان، وهى وسيلة الاتصال والتعاون بين المجتمع البشرى، وهى عملية مكتسبة عن طريق نشأة الفرد في مجتمع معين يتلقى من خلاله اللغة، والفرد قادر على تعلم أكثر من لغة لأن تكوينه البيولوجى وقدرته على النطق تؤهله لذلك، فالإنسان يمكنه إصدار العديد من الأصوات المختلفة. واللغة لا غنى عنها في حياة الفرد، فمن خلال رموزها يعبر الإنسان عن نفسه وعن فكره، ومعتقداته كما يستطيع أن يتفاهم مع الأخرين والعيش معهم، وهى أكثر من مجرد أصوات، فهى شئ أكثر من ذلك بكثير، فهى مجموعة قواعد ومبادئ، فقد تكون في ظاهرها أصوات، ولكن تلك الأصوات تعبر عن معان، ومن خلال تلك المعانى تلعب اللغة دورا كبيرا في حياة الأفراد، فهى

(1) Ibid., PP. 9 - 11.

(2) Ibid., P. 12.

محور حياتهم لأن كل عمل واتصال وفن وعلم في حياتهم لن يروه إلا تعبيرا وتعليما وتفاعلا وتعاونا، ووسيلة كل ذلك هى الإفهام والتفاهم بأقرب الطرف وهى الكلام أى اللغة .... لذلك يمكننا أن نحدد تعريفا عاما للغة بقولنا "اللغة هى أداة التعبير عن الأفكار، وهى وسيلة الاتصال بين بنى البشر، وتتكون من رموز وكلمات وعبارات تكتسب كلها عن طريق نشأة الفرد في مجتمع ما، يتلقى اللغة من خلاله وتصبح وسيلته الأساسية في التفاهم والاتصال مع أعضاء مجتمعه".

ونتساءل بعد هذا العرض لأهمية اللغة في حياة الإنسان، هل يمكننا التعامل بدون الحديث؟ وهل وسائل الاتصال الأخرى من الصور والعلامات والايماءات والكتابة كافية لتحقق الاتصال الكافى بين أعضاء المجتمع؟؟ وهل يمكن أن نعتبر هذه الوسائل بمثابة لغة؟؟

إن اللغة بلا شك تعنى عند معظم الناس "الحديث"، ولكن هناك معنى آخر للغة، وهو ما تحمله من فكر إنسان إلى آخر، وهذا التعريف يعطى للغة أبعادا أكثر، فإنه يتضمن كل من الكتابة، الصور، الرموز، والايماءات التى تصدر من الوجه والعينين، أو الصوت الذى يخترق الأذن ببعض الآلات كانباء الحريف أو جرس الباب ... الخ، كل هذه الوسائل تتجمع في النهاية لتعطى لنا معنى معين ... ولكن هل هذه الوسائل كافية لتحقيق الاتصال؟ لقد كانت هذه الوسائل من رموز وإشارات وايماءات هى من أهم طرق الاتصال التى عرفت قديما قبل الحديث، لذلك ينبغى علينا أن نتطرق إلى الحديث عنها بشئ من التفصيل، حتى يمكن معرفة الدور الذى تلعبه في حياة الفرد قديما، وهل يمكنا التعامل بها دائما، أم أنه لا غنى عن الحديث مهما توسعت طرق الاتصال الأخرى في حياتنا.

السوميوطيقا .. الاتصال ووسائله:

إن اللغة من حيث هى مجموعة من العلامات أو الرموز هى الأصوات التى يحدثها جهاز النطق الإنسانى، كل حاسة من الحواس الإنسانية يقابلها نظام من العلامات الاصطلاحية ذات الدلالة، فهى تكون سمعية أن خاطبت الإذن، بصرية إن خاطبت العين، لمسية إن خاطبت اليد، شمية إن خاطبت الأنف، وأخيرا مذاقية إن خاطبت اللسان، ومن أشهر هذه الأنظمة في العلامات والإشارات تلك التى تقوم على الاشارة وتخاطب العين، وتلك التى تخاطب السمع غير اللغة[1].

هذه الأنظمة المختلفة من العلامات شريكة للغة وتعتبر من وسائل الاتصال الهامة، لذلك فهى جديرة بأن تدرس معها، وأن يتناولها العلماء بالدراسة العلمية الدقيقة لبيان أهميتها ودورها في الحياة .. ومن هذا المنطلق بدأ العلماء في الاهتمام الجدى بتلك الظواهر، وكان نتيجة ذلك نشأة ما يعرف باسم "علم السيميوطيقا".

ماذا نعنى بذلك العلم ؟

هو علم الاشارات والرموز، علم يبين لنا أوجه الاختلاف بين اللغة ووسائل الاتصال الأخرى، وكذلك الاختلاف بين لغة الإنسان ولغة الحيوان.

وعلم السيميوطيقا علم حديث، ومعناه نظرية الاشارات والرموز (والكلمة مشتقة من كلمة يونانية قديمة وهى سيميون Semion ومعناها إشارة)، يدرس هذا العلم لغة الانسان والحيوان وغيرها من اللغات غير

(١) محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربى، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢، ص ١٩.

اللسانية باعتبارها نسقا من الاشارات والرموز، وهى نظم عديدة ومتباينة[١]. فقد كان الإنسان البدائى قديما يعتقد أن الطبيعة تكمله، تحذره أو تشجعه، فالشمس قد تومئ إيماءة ودية حين ينسل منها شعاع ضوء من وراء السحاب، وقد يتحدث الرعد بنفحة تثير الهلع إلى من خرج عن طاعة الأرباب، ولكن اليوم اختفت تلك المعتقدات البدائية، وتلاشت الصورة الساذجة عن الطبيعة المتكلمة، وحلت محلها معرفة جديدة تفيد أن الكائنات الحية هى وحدها القادرة علىّ التحدث، وإذا كانت الطبيعة تتكلم أو تنقل إلينا معلومات فإنها تكون في نطاق محدود، فعلى سبيل المثال أغصان الشجر المائلة دليل على ثمة رياح هوجاء ... والسحاب الداكن دليل على العاصفة[٢].

وقد أدرك العلماء أن العلاقة هى الحامل المادى للدلالة الاعلامية، فالعلامة تعلم شيئا ما، فالأشرعة الحمراء والسوداء والبيضاء كانت لا تعنى شيئا حتى أبحر البطل الاغريقى "تسيسوس" واتفق مع أبيه الملك "ايجوس" على أن تكون الأشرعة السوداء المشرعة فوق سفينة دالة على أنه في ورطة، والبيضاء دالة على الظفر ... وهكذا، واصبح ذلك نسقا من العلامات ومن الاشارات حيث أصبح اللون يعنى شيئا آخر إضافيا غير اللون ذاته، بمعنى أنه أصبح إشارة دالة[٣].

ويميز علماء السيميوطيقا بين ضروب ثلاثة من العلامات، الضرب الأول هو العلامات الدالة وتسمى أيضا "الاشارات الطبيعية" وهى طبيعية لأن ليس ثمة اتفاق مسبق عن معنى الاشارة، والضرب الثانى من

---

(١) شوقى جلال، الأصوات والاشارات، Sounds and Sings مترجم عن كتاب A. Kondratov، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢، ص ٩.
(٢) المرجع السابق، ص ١٠.
(٣) المرجع السابق، ص ١٠ ـ ١١.

العلامات يسمى "علامات التطابق أو التعبير الظاهرى"، أما الثالث فيشمل "علامات الاتصال" أو الاشارات الاصطلاحية، وتسمى إشارات بالمعنى الدقيق للكلمة وأغلب العلامات المستخدمة بين الناس من هذا النوع(١). وقد كان العالم اللغوى الشهير "فرديناند دى سوسير" من العلماء الذين أكدوا على ضرورة قيام علم يدرس حياة العلامات أو الاشارات في المجتمع، على أن يكون – في رأيه – جزءا من علم النفس الاجتماعى، وبالتالى جزءا من علم النفس العام، واعتبر أن اللغويات ذاتها لن تكون إلا جزءا من هذا العلم، كما أن القوانين التى يكتشفها علم السيميوطيقا سوف تطبق على اللغويات.

كما تبنت المدرسة البنائية وبخاصة في فرنسا هذا العلم الجديد، وارتبطت به أسماء عدد كبير من المفكرين والكتاب والبنائيين الفرنسيين، وعلى رأسهم "رولان بارت"(٢) R. Barthes (١٩١٥ – ١٩٨٠) الذى تناول مناقشة هذا العلم في سلسلة من المقالات العديدة، حتى كتب كتابا هاما في ذلك الموضوع عام ١٩٦٥ تحت عنوان: "مبادئ علم الاشارات "Elements De Semiologie، كما أعتمد على ذلك العلم في كتاب له بعنوان "أساطير" حيث قام بتحليل بعض الأساطير الكامنة وراء عدد من الظواهر الحديثة في المجتمع الفرنسى مثل الموضة والرياضة والاعلانات وغيرها من أساليب التعبير غير اللفظى التى تستخدم للتعبير والاشارة عن بعض المواقف والأوضاع الاجتماعية(٣).

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢.
(٢) "رولان بارت" من أكثر المثقفين الفرنسيين المعاصرين تأثيرا في الفكر الفرنسى بعد سارتر.
(٣) أحمد أبو زيد، مقالة بعنوان، "النصوص والاشارات"، قراءة في فكر رولان بارت، عالم الفكر، مجلة دورية، المجلد الحادى عشر، العدد الثانى، سبتمبر ١٩٨٠، الكويت، ص ٢٣٥ – ٢٣٦.

فقد كان بارت يرى العالم وكل ما فيه مجرد إشارات أو علامات، فالإنسان يحيا بالإشارة والعلامة والرمز، وكل ذلك يتجمع لينتظم في شكل أنساق وأنماط أحيانا بالدين وأحيانا بالسياسة أو الأدب أو الاقتصاد السياسى أو ما إلى ذلك ولكنها تعتمد في آخر الأمر على اللغة التى هى نسق الإشارات الأساسى.

ومن هنا ندرك أن معظم علماء اللغة أكدوا على أهمية نسق الاشارات والعلامات في حياتنا، والدور الذى تلعبه الايماءات كنوع من التعبيرات المختلفة ومن ثم فهى وسيلة اتصال هامة في كثير من الموقف، لذلك ينبغى علينا أن نتناول كل نسق من تلك الانساق على حده ليمكننا تعريفها تعريفا دقيقا ولايضاح الدور الذى تلعبه كوسيلة اتصال.-

أولا - ما يعرف باسم:

الايماءات Gestures:

إن حديث البشر لا يكون دائما بالكلمات، ولهذا السبب نجد أن لغته معقدة أشد التعقيد، فحتى نسق الاشارات التى يستخدمها الناس نجده نسقا واسعا تختلف فيه معنى الاشارة من جماعة لأخرى باختلاف ثقافتها.

أن واحدة من أهم طرق الاتصال التى عرفت قديما قبل الحديث هى "الايماءات "Gestures، والايماءات هى عبارة عن حركات يقوم بها الأفراد من خلال أيديهم أو تعبيرات وجوههم وأيضا من خلال كل جزء من أعضاء جسمهم، فقد تكون من خلال الابتسامة، الدمعة، الدهشة ... الخ، كل هذا يعبر عن معنى معين.

وتختلف معنى الايماءات وما ترمز إليه من شعب لآخر تبعا لثقافته، فالايماءة بالرأس في لغة الاشارة تعنى الموافقة لدى بعض

الشعوب، كما تعني الرفض لدى شعوب أخرى. فعلى سبيل المثال سكان استراليا الأصليون لهم لغة اشارية خاصة بهم، ويستخدمون هذه اللغة في حالات متعددة، فعندما يدور الحديث مثلا بين اثنين تفصل بينهما مسافة بعيدة لا يفي الصوت فيها بالغرض، أو عندما يتسم لقاء بين قبيلتين لا تجمع بينهما لغة مشتركة، نجد أن اللغة الاشارية تلعب دورا هاما هنا لتكملة وسائل الاتصال، وقد تصبح هي الوسيلة الرئيسية للاتصال حينما يصبح الكلام المنطوق محرما، فنرى مثلا أن من التقاليد الدينية المتبعة في استراليا أن الزوجة التي يموت زوجها - يحرم عليها أن تستخدم الكلمات المنطوقة لفترة من الزمن بعد الانتهاء من مراسم الدفن[١].

بل أننا نجد في بعض الأحيان شعوب متحضرة لم تتخل تماما عن مظاهر "الكلام الحرام Speech tabus" ونذكر هنا عادات الرهبان المسيحيين الذين يصومون عن الكلام، فلا يكلمون إنسانا لفترة من الزمن تمتد أعواما، وإذا تحدثوا فلا يتحدثون إلا إشارة أو رموزا، وذلك لأن الكلمة المنطوقة خطيئة[٢].

كما نجد أن الهنود الأمريكين وخاصة قبائل Plains لديهم نظام كامل من الايماءات أو اللغة الرمزية التي تجعل الأفراد من مختلف القبائل الأخرى والذين يتكلمون لغات مختلفة يمكنهم الاتصال، وأيضا مع الرجل الأبيض الذي يختلف عنهم تماما في اللغة والثقافة، فعلى سبيل المثال: إذا أراد الرجل الهند - أمريكي أن يعبر عن الخريف، فإنه يقوم بالآتي: يصنع علامة الشجرة بيديه أولا، ثم يفتح اليد اليسرى بأصابعه كلها ويجعلها بارتفاع الكتف ثم برفعهم تدريجيا ليصف نمو الشجرة، ثم ينحدر بيديه إلى

---

(١) شوقي جلال، الأصوات والاشارات، مرجع مذكور، ص ١٦.
(٢) المرجع السابق، ص ١٧.

أسفل مرة واحدة ليصف تساقط الأوراق ... وبهذا يكون قد عبر عن فصل الخريف(١).

وتستخدم الشعوب الأوربية نسقا مختلفا من الايماءات، فالرجل الانجليزى والروسى والفرنسي والالمانى قد يهز كتفيه ليقول "لا أعرف" ولكن ما زال هناك بعض الفروق بينهم في طريقة استخدامهم للايماءات، فنرى مثلا إشارة "الوداع" في روسيا تكون بتلويح اليد والأصابع مضمومة، بينما تعنى هذه الاشارة ذاتها في البرازيل "تعال هنا"(٢).

وإذا أراد الروسى أن يقول بالاشارة "تعال هنا فإنه يحرك يده جيئة وذهابا وراحة اليد إلى أعلى، كما أننا نرى أن إشارة الوداع في كثير من بلدان الغرب تكون بتلويح اليد وراحتها إلى الخارج ... وهكذا.

ونلاحظ أن إشارات اليد والايماءات والتعبير بحركات الوجه تتخذ لدى شعوب أوربا الحديثة جانبا مكملا للغة وليس بديلا لها، فالحركات التى نعبر بها عن انفعالاتنا تفيد في التأكيد على بعض الكلمات وتعطى طابعا جديدا للمعنى قد لا يحققه اللفظ، وقد يستعين المتحدث أحيانا بهذه الحركات ليعطى معنا عكسيا لظاهر الكلام، ويهتم أحيانا المرء بنفحة الصوت وطبقته وتعبيرات الوجه أكثر من اهتمامه بالألفاظ ذاتها(٣).

ولا شك أننا نستطيع أن نقول أن تلك الاختلافات في معانى الاشارات ومضمونها، وتعدد الايماءات وما تحمله من معنى يرجع إلى اختلاف الثقافات، فلكل شعب من تلك الشعوب ثقافة خاصة به، تكون هى

---

(1) Mario Pei. Au About Language. J. B. Lippiencott. Company. New York. 1954. P. 19.

(٢) شوقى جلال، الأصوات والاشارات، مرجع مذكور، ص ١٨.

(٣) المرجع السابق، ص ١٩.

الأساس الذى ترجع إليه تلك الاختلافات، فليس هناك أدنى شك من أن ثقافة الرجل الأبيض تختلف عن ثقافة الرجل الأسود وثقافة جماعات الاسكيمو مثلا تختلف عن الجماعات التى تعيش في المناطق الحارة .. ومن هنا ينشأ التعدد والاختلاف في المعانى، فكل ثقافة تعبر عن مفاهيمها بوسائل وطرق خاصة بها، وبما أن الاشارات والإيماءات من طرق الاتصال داخل المجتمع، لذلك تختص كل جماعة تحمل ثقافة مميزة بإشارات وإيماءات خاصة بها وبثقافتها.

ثانيا – ما نطلق عليه مصطلح:

العلامات Signs:

إن العلامات وما تحويه من معنى تلعب أيضا دورا كبيرا في حياة الإنسان بجانب اللغة، فاللغة الإشارية قد تقوم بدور اللغة، ولكن تظل دائما مقصورة على مواقف معينة، يدرك المرء في النهاية أنه لا غنى له عن اللغة.

ويعتبر الهنود الأمريكيون من أبرع الشعوب التى أصطنعت لنفسها نسقا كاملا من الإشارات أو (اللغة الإشارية) فحين كانوا يريدون إرسال الرسائل لمسافات بعيدة، كانوا يستخدمون لذلك عدة طرق كل منها يحمل معنى معين، وقد كانت أكثر العلامات شيوعا عندهم النار والدخان[1] ففى الدليل يستخدمون "علامات النار" إذا كانوا يضرمون عند شاطئ البحر أو فوق ربا عالية يسهل رؤيتها على البعد، وبهذا يستطيع الهنود الابلاغ عن غرباء وفدوا إلى أرضهم أو عن حيتان ألقى بها البحر .. وهكذا. أما الدخان فكانوا يستخدمونه كعلامة أثناء النهار، فكانوا يلقون بالعشب الندى أو

---

(١) شوقى جلال، مرجع مذكور، ص ١٩.

أغصان الأشجار الخضراء في نار موقدة حتى تحترق على مهل ويتصاعد منها دخان كثيف يسهل رؤيته على بعد، ويتألف شكل الرسالة من عدد مواقد النار أو مواضع النار، وكذلك عدد هبات الدخان التى يمكن التحكم فيها عن طريق القاء غطاء من الجلد فوق النار ثم جذبه ثانية، وتتكرر العملية حسب العدد المطلوب، وبذلك يتحدد محتوى العلامة(١).

وتختلف لغة العلامات باختلاف الشعوب والقبائل، فاختلاف الشعوب والقبائل إنما يستتبعه بالضرورة اختلاف الثقافات، واختلاف الثقافات هذا إنما ينجم عنه اختلاف أنواع العلامات في كل مجتمع ما تبعا لثقافته، فلكل ثقافة نسق من العلامات خاص بها، ويكون متوارثا يتلقاه جيل بعد جيل. وكما رأينا أن لغة العلامات عند هنود أمريكا الشمالية لغة بصرية، نراها مختلفة عند شعوب أمريكا الوسطى والجنوبية حيث تختلف الثقافة عما في الشمال. وكذلك شعوب أفريقيا الاستوائية وجنوب شرق آسيا. فقد ابتدعت هذه الشعوب لأنفسها لغة علامات خاصة بها هى لغة الطبول.

إن قرع الطبول يمكن سماعه عبر مسافات بعيدة إلى حد ما لذلك يستخدمه مثلا هنود "أكوادور ريبيرو" للحديث إلى الأرواح والأسلاف القدامى، إذ يعتقدون أن موت الإنسان لا يمكنه أن يلغ سمع الأرواح البعيدة التى تسكن العالم الآخر، وقد يستخدمون قرع الطبول أيضا لإعلان نبأ عدو قادم أو عيد مقبل أو زفاف أو غير ذلك من شئون الحياة المختلفة(٢). وفى شعب آخر كشعب "غينيا الجديدة" نرى مفهوما آخر لذلك النسق من العلامات، وهذا المفهوم يرجع إلى اختلاف الثقافة بين كلا الشعبين، فهم يفرقون على سبيل المثال بين المحادثات الخاصة، والعامة، فثمة علامات

---

(١) المرجع السابق، ص ٢١.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢.

خاصة بالأفراد وللعشيرة ككل، وإذ سمع أحد سكان القرية علامات الطبل فإنه يستطيع على الفور أن يحدد من خلال دقات الطبول إذا كان هذا الحديث بين شخصين أو حديثا موجها إلى القرية جمعاء .. وتعتبر علامات ودقات الطبل عند قبائل "البابواتر" في غينيا الجديدة متباينة ومتنوعة للغاية، وأهم هذه العلامات التحذير والدعوة للقاء وعلامة السوق التى تدعو الناس للبيع والشراء، ويحتفظ كل بيت بطبلة خاصة به للحديث مع الجيران بل وللتحدث مع القرى المجاورة، ويمكن سماع دقات الطبول على بعد ثلاثة وأربعة بل وعشرة كيلو مترات، ويصل الصوت عبر هذه المسافة في ثوان معدودات بينما لو أوفدوا رسولا لاضطروا إلى السير يوما كاملا وسط الأحراش الاستوائية[١].

ونلاحظ هنا بعد سرد هذين المثالين لنظم العلامات، أن كل نظام منها يتبع ثقافته التى بدورها تكون متأثرة بالبيئة التى تنشأ فيها، فهنود أمريكا الشمالية هم سكان البرارى والسهول الفسيحة الواسعة، لذلك حددت ثقافتهم تبعا لبيئتهم أن يكون نظامهم الاشارى معتمدا على البصر، وذلك بعكس الحال عند شعب غينيا الجديدة الذى سكن الاحراش والتى اقتضت ثقافتهم أن يكون نظامهم مرتكزا على سماع الطبول وما تعنيه أى معتمدا تماما على السمع.

وهناك شعب آخر يعتمد على قوة السمع في نظم علاماته، ولكنه لا يعتمد على الطبول مثل سكان الاحراش، وهذا الشعب هو سكان جزر الكنارى، فأسلوبهم في الاتصال يعتبر من أكثر أساليب الاتصال براعة وحذقا، فهم يعتمدون على "الصفير العادى" على نحو ما يفعل الصبية، وهو ليس صفيرا عاديا تماما، إذ يمكن القول أن كل وحدة صوتية كلامية

(١) المرجع السابق، ص ٢٢.

مصاغة على نحو ما تصاغ الشفرة ولها حركاتها النغمية الخاصة بها. ويعتبر الايطاليون هم مكتشفو جزر الكنارى، ولكن بابا "روما" قدمها إلى ملك أسبانيا باسم ولاية "فورتونيا" وكان البابا في نظر الجميع في ذلك الوقت هو (ممثل الرب على الأرض) ومن ثم له الحق في أن يفعل كل ما بدا له بالنسبة للأراضى المكتشفة حديثا، لذلك بدأ الاستعمار ثم من بعده الايطاليون في تدمير كل أثر لسكان الجزر الأصليين المعروفين باسم "جونش" ولم يبق لهم أثر سوى لغة "الصفير" التى يستخدمها أهل جزر الكنارى المعروفين باسم "الاجوميرا"، وجزر الكنارى هذه أرض جبلية تشقها وديان وصخور وعرة شديدة الانحدار، ومن ثم استطاع الجوش بفضل لغة الصفير أن يتبادلوا الحديث عبر مسافات تمتد إلى خمسة كيلو مترات، وما زال السكان الاسبان الذين يسكنون الجوميرا يتحدثون "لغة الصفير" إذا ما أرادوا الحديث عبر مسافات بعيدة، ولغة الصفير هذه لم توجد إلا في تلك البقعة الصغيرة فقط[١].

هذا المثال يوضح لنا أن هناك شعوباً متعددة تعتمد في نظامها الاشارى على قوة السمع، ولكن الطرق المستخدمة في ذلك تختلف تبعاً لثقافة كل منهم، وتبعاً لما تعرضه عليهم البيئة التى يعيشون فيها، فكلها عبارة عن علامات تتباين بتباين ثقافات الشعوب التى تستخدمها.

وهناك مثل أخير في نسق العلامات والاشارات يوضح لنا كيف أن اختلاف الثقافة يلعب دوراً هاماً في تحديد نوع العلامات وأسلوبها داخل المجتمع، وهذا ما يعرف باسن "الايتكيت" وهذا النوع من العلامات يرتبط بقواعد سلوكنا الاجتماعى، فاللاتيكيت نسق خلص من الاشارات وتتباين هذه الاشارات بتباين الزمان، ويتحدد ذلك أيضاً على ضوء البد الذى نعيش

(١) المرجع السابق، ص ٢٤.

فيه أو الطبقة الاجتماعية التى ننتمى إليها. فعلى سبيل المثال ـ في الشرق الأدنى لو التقى شخص يمتطى جواداً بآخر يمشى على قدميه، فإن قواعد السلوك تقتضى بأن يكون الأول هو البادئ بالتحية دون النظر لما بين الاثنين من فوارق من حيث أو المنصب أو الجنس، كما يجب على القادم أن يقوم بتحية الواقف إذا مر به، والواقف هو الذى يبدأ بتحية الجالس، وإذا دخل مسن إلى حجرة بها فتى جالس وحياه الفتى دون أن يقف اعتبر هذا خروجاً على قواعد السلوك المهذب، هذا على الرغم من أن عكس هذا الوضع يعتبر في أوربا موقفاً غير مهذباً أى أن على الشيخ أن يبدأ بتحية الفتى .. وهكذا[١]. ومثلما تختلف لغة الاشارات والعلامات باختلاف الثقافات والشعوب التى تستخدمها، نرى أن نسق الاشارة في أسلوب الاتيكيت يختلف تبعاً لمفهوم الوضع الاجتماعى عند الشعوب، ومثلما تتباين الثقافات بتباين أيضاً السلوك الاجتماعى بين الناس.

وقد تعددت الكتابات التى تناولت موضوع الايماءات والاشارات والرموز والدور الذى تلعبه الثقافة في تحديدها وتنوعها، فقد تناول المفكر الالمانى "تالكوت بارسونز" "Talcott Parrsons" هذا الموضوع وأوضح أهمية الرموز والاشارات في حياة البشر والثقافات، فميز بين الاتصال الطبيعى الذى يتمثل في الاشارات والايماءات، وبين الاتصال الثقافى الذى يتمثل في الرموز أو اللغة بوجه عام[٢].

وفى الحقيقة أن هذا التمييز ليس له ما يبرره في الواقع إلا إذا كان يقصد به التصنيف الإجرائى، ذلك لأن الأساس في الاتصال هو التفاعل

---

(١) شوقى جلال، مرجع مذكور، ص ٢٥ ـ ٢٦.

(2) Parsons. T. "Theories of Society" Volume II Copytight 1961. by Free Press of Glcucoe. In U. S. A.. P. 903.

والتغيير، مهما كانت طبيعة الاتصال إلا أن الفيصل في هذا المجال هو إيصال المعنى، فإذا وصل وأدى وظيفته فإننا بهذا نكون أمام لغة من نوع معين.

وتناول العالم "جورج ميد George Mead" موضوع الايماءات فأوضح أن الايماءة الصوتية لها أهمية كبيرة لا توجد عند أى نوع آخر من الايماءات، فنحن لا يمكن أن نرى أنفسنا حين يتخذ وجهنا تعبيرا معينا، ولكن حينما نتكلم نركز اهتمامنا أكثر، فحينما يسمع المرء نفسه وهو يتكلم يجد نفسه يحقق الاثارة في استخدام نبرة معينة Tone، والانسان قادر على أن يتحكم في الإيماءة المنطوقة أو الصوتية أكثر من تحكمه في التعبير الذى يصدر من ملامحه(١).

ولا شك أن كثيرا من الايماءات المستخدمة من شخص معين نجدها في الآخرين، لذلك فردود الفعل والاستجابة تكون واحدة أيضا، ويقول "ميد" أن ذلك هو الاساس الوحيد لما نطلق عليه اسم التقليد أو المحاكاة imitation ، فالفرد لا يكون لديه رغبة في فعل ما يفعله الآخرون، ولكن الميكانيزم الذى يوجد في الأفراد يجعلهم يحملون ويقومون بنفس الاستجابات في كثير من المواقف المتشابهة وذلك لأنهم نوع واحد من المخلوقات.

والإيماءة قد تخدم الرمز في كثير من الأحيان على حد تعبير "جورج ميد" بالميكانيزم العام الذى يجعل الاشخاص متفقين في السلوك وردود الأفعال في المواقف العامة هو الذى يجعل الايماءة تتحول إلى رمز في بعض المواقف، فنحن حينما نرى ردود فعل الأخرين تماما مثلما هي

(1) Ibid.. Symbolism & Communication (From Gesture Symbol) PP. 999 – 1001.

عند فرد واحد نكون بذلك متوقعين لما سيصدره الآخرون، كما أننا نتصرف هنا مثلما يتصرف الآخرون ونظهر بنفس السلوك وذلك حتى يكون هناك فهم وإدراك ووعى لردود الأفعال والاستجابات المختلفة التى تظهر من الأخرين، وحينما تصبح ردود الأفعال عند شخص معين كتلك التى توجد عند الآخرين، تصبح بذلك بمثابة منبهات لسلوكهم مع بعضهم البعض، وإذا كان هناك تصور واحد تجاه عدد من المواقف، يصبح هذا التصور فيما بعد بين الأفراد بمثابة رمز Symbol (1).

وتكلم أيضاً عالم الاجتماع الشهير "دوركايم" في أهمية موضوع "الرمزية" ولقد تناولها من جانب ديني، فقد بدأ دوركايم من فكرة الاختلافات في النظرة إلى الاشياء نفسها، فإن ذلك يخلق معانى مختلفة لكل منهما، فعلى سبيل المثال أن التأثير المخيف للرياح جعلها موضع تقديس شائع في بعض المجتمعات.

ويقول دوركايم أن الرموز الجماعية تشير عادة إلى الأشياء التى لا تمت بصلة إلى أى شكل أو درجة، ومن هذه الأشياء العادية يتكون أقوى كائن مقدس، ولكن هذه القوى التى تكون كأنها حقيقية تحدد سلوك الانسان بنفس شكل الأشياء الطبيعية، أن من يشعر أنه قوى يكون فعلاً أقوى. مثال لذلك:

أن الضابط الذى يموت حاملاً العلم قطعاً يدرك جيداً أنه لا يضحى من أجل قطعة من القماش، ولكنه يضحى من أجل المعنى الكامن والقوى والمقدس الذى يرمز إليه ذلك العلم المرفوع.

ويؤكد دوركايم على أن القوى الدينية هى فقط ما توحى به المجموعة وتبرز خارج شعور الوعى إلى ما هو واقع وموجود ولذا تصبح

---

(1) Ibid.. PP. 1003 - 1005.

مقدسة، أن كل شئ في التصديق الديني يمثل شيئاً واقعياً وموجوداً في الشعور، ومن هنا أصبح العلم بمثابة "رمز" مقدس وخاصة في نظر من يضحى في سبيله(١).

وقد كان دوركايم يحاول دائماً أن يبين في كتاباته إلى أن الرموز تشير إلى القداسة، وهي لغة عبر بها الإنسان عن مخاوفه أحياناً أو طموحاته أحياناً أخرى، وأن الإنسان حتى مع العلم الحديث ستظل له مخاوفه وطموحاته، ومن ثم فإن اللغة وما تنطوي عليه من رموز تشير إلى المقدس ستظل مع تقدم العلم جزءاً لا يتجزأ من التراث الإنساني.

ومن الذين تكلموا عن الاشارات أيضاً العالم E.Cassirer في مقاله بعنوان "المضمون التصوري للاشارة" Ideational Content of the sign، فقال إننا يمكن أن نتصور كيف تكون الاشارات والأصوات أداة لمعنى مفهوم، وذلك فقط لو تصورنا أن الوظيفة الأساسية لاظهار المعنى تكون موجودة قبل إصدار الاشارة الواحدة، حتى الشئ الصادر لا يصدر المعاني ولكنه فقط يضبطها، أن وجود الاشارات الرمزية كجزء من اللغة هام جداً في حياة الأفراد، حيث أن إدراك المعاني المختلفة للرموز والاشارات يساعد كثيراً في عملية الفهم وجمع كل المعان في آن واحد، لذلك يقول Cassirer أن قيمة العلامات والاشارات ليست فيما تمثل ولكن فيما تتعداه، فكل إشارة وكل علامة تحمل في مضمونها معنى معين، يكون هدفها الأول والأخير توصيلها للآخرين.

وفي أهمية الاشارات والعلامات في حياتنا، يقول العالم الانثربولوجي الأمريكي لويس مورجان(٢) Lewis Morgan أن الأصوات

---

(1) Ibid.. Emile Durkheim (on Sacred Objects as Symbels) PP. 1016 – 1020.

(٢) احمد أبو زيد "حضارة اللغة"، مجلة عالم الفكر، مجلة دورية، المجلد الثاني - العدد الثاني، ١٩٧١، الكويت، ص ٢٠.

جاءت أولا كمعاونة للإشارات والإيماءات والحركات، ثم أخذت تكتسب بالتدريج معنى متعارفا عليه بحيث أصبح لها السيطرة والسيادة والغلبة على لغة الإشارات، أو على الأقل أصبحت جزءا هاما منها، ورغم كل ما أحرزه الإنسان من تقدم في هذا الصدد فلا تزال (اللفتات) لغة الإشارة ولغة الكلام غير منفصلتين، ولو كانت اللغة بمعناها الدقيق كاملة لكان استخدام الإشارة والحركة أمرا عصيبا، وكلما نزلنا في سلم التدرج اللغوى إلى الصور الدنيا للغة وجدنا عنصر الإشارة يزداد وضوحا ليس فقط من حيث العدد أو الكم بل وأيضا من حيث تنوع الإشارات، إلى أن نصل إلى اللغات التى تعتمد على الإشارات لدرجة يصعب معها فهم ما يقال أن لم يكن مصحبا بالإشارات والحركات والإيماءات المناسبة(١).

ونستطيع بعد هذا العرض أن نصل إلى نتيجة هامة وحتمية وهى أنه على الرغم من أهمية نسق الايماءات والاشارات في حياتنا، إلا أنه لا غنى لنا عن اللغة مهما تعددت وسائل الاتصال المختلفة من رموز وعلامات، فلغتنا العادية عبارة عن نسق من الاشارات موجود في كل مجتمع ومن أجل هذا المجتمع، وهو في هذا مثل كل الانساق الاشارية الأخرى، فلغتنا قد تبدو لنا بسيطة وذلك لأننا تمثلناها منذ حداثة سننا واستوعبنا قوانينها وقواعدها دون إدراك واع بهذه العملية، فالإدراك الواعى يأتى في مرحلة تالية أى من خلال المدرسة حيث نتعلم القراءة والكتابة، ونحن نتحدث في يسر وطلاقة دون أن ندرك أن اللغة المنطوقة نسق إشارة شديد التعقيد قادر على نقل كل ما يمكن تخيله من آراء ومفاهيم(٢).

---

(1) Morgan L., Ancient Society (N. D) P. 35.

(٢) شوقى جلال، اصوات وإشارات، مرجع مذكور، ص ٢٦.

ولا شك أن لغة الايماءات جاءت دائماً قبل لغة الحديث، ويمكننا استخدامها في مجتمعات مختلفة الجنسية واللغة والثقافة، ولكننا نتساءل هنا: هل يمكننا الاستغناء تماماً عن اللغة، والتعامل من خلال لغة الايماءات فقط؟

وهل يمكننا إنشاء لغة علامات عالمية تستخدم بدلاً من مئات الألسنة المختلفة؟.

الاجابة على هذين السؤالين يكون بالطبع ... لا ..، لأننا سنفشل في تحقيق ذلك، لماذا؟؟ لأن نسق العلامات الذى سيكون بديلاً عن اللغة لن يحقق لنا الاتصال الكامل، فعلى سبيل المثال إذا كان بين المتكلم والمستمع باب مغلق .. كيف يمكنهم مثلاً أن يروا إشارتهم وإيماءاتهم لبعضهم البعض، وذلك على العكس من لغة الحديث الذى يمكننا استعمالها في الظلمة حيث أنها تتطلب قوى السمع أساساً وليس رؤى العين. ولغة الايماءات أيضاً تستخدم بالأيدى، وفى أثناء التعبير بها لا يمكن للإنسان استعمال يده في شئ آخر غير الايماءة وذلك على عكس لغة الحديث الذى يمكننا في أثناءها استعمال أيدينا في أشياء أخرى، كما أن لغة الايماءات بما أنها تعتمد على النظر أساسا، إذن لا يمكننا خلال التفاهم من النظر إلى أى مكان آخر سوى للمتكلم، وذلك على عكس لغة الحديث التى تعطينا حرية النظر إلى أى شئ آخر أثناء كلامنا وحديثنا.

إذن لغة الايماءات لا يمكن أن تغنينا عن اللغة، كما أنها لا يمكن أن تكون عالمية كلغة الحديث، فالايماءات والاشارات تختلف هى أيضاً باختلاف الثقافات، فالايماءات التى تبدو لك مألوفة قد تكون غريبة لغيرك من ثقافة ومجتمع مختلف، فعلى سبيل المثال أنك إذا رفعت أصبعك عدة مرات تجاه نفسك في نسق الايماءات والعلامات الأمريكى يعنى ذلك أنك

تريد من الرجل الذى أمامك أن يأتى إليك، أما عند كل من الرجـل الفرنسـى والايطالى فتعنى أنك تودعه .... وهكذا، إذن نفس حركـة اليد عنـد بعض الشعوب والثقافات تعنى المجئ، وعند البعض الآخر تعنـى الذهـاب. ولكننـا يمكن أن نعتـبر بعـض الأنـواع مـن الايمـاءات بمثابـة ايمـاءات، وعلامـات عالمية وتلك التى تتعلق بالاحساس مثل الضحك، البكـاء، الدهشـة، العبـوس .. الخ(١).

ونصل بعد ذلك في النهاية على عدة نتائج نوجزها فيما يلى:

- إن نسق العلامات والاشارات يختلف باختلاف الثقافات، فالثقافـة تلعب دورا هاما في تحديد أنواع العلامـات والاشـارات والرمـوز المسـتخدمة في مجتمـع ما ذى ثقافة مميزة، ومثلمـا تقسـم الثقافـة اللغـة الواحـدة إلـى لهجات متباينة متعددة، تقسم أيضـا الاشارات إلى أنواع مختلفة وكثـيرة، فكل مجتمـع وشـعب له علاماته ورموزه الخاصـة التى تعبر عن مفاهيمه من خلال إطار ثقافته السائدة.

- أننا لا يمكننا الاستغناء عن اللغة في حياتنا والاكتفاء بنسق من العلامات والاشارات، حيث أن هذا النسق لا يقدم لنا وسائل اتصال كاملـة، وذلـك لقصوره كوسيلة اتصال في العديد من المواقف.

- لا يمكننا الوصـول إلـى إنشـاء نسـق علامـات وإشـارات عـالمى يفهمـه ويتعـامل بـه جميـع الشـعوب، وذلـك لأن محاولـة القيـام بتلـك الخطـوة ستنتهى بالفشـل مثلمـا انتـهت إليـه فكـرة إنشـاء لغـة عالميـة (لغـة الاسبرانتو)، وذلك لأنه مهما حاولنا إنشاء لغة عالميـة تتكلـم بـها جميـع

(1) Mario Pei; "Ai About Language" J.B. Lippienott Company. New York, 1954. p. 20 – 21.

الألسنة فإنها بلا شك مع مرور الوقت ستتعرض للتغير وتخضع في سيرها لقوانين التطور والتغير الذى تخضع إليه بقية اللغات الحية، ونفس الشئ يصدق على العلامات والاشارات، فبمرور الوقت وتعاقب الأجيال، سيتغير ذلك النسق بتغير الشعوب المستخدمة له كلا تبعا لثقافته، فينشأ التعدد والاختلاف من جديد.

وأخيرا يمكننى أن أؤكد على أنه لا يمكننا الاستغناء عن لغتنا، ولا بديل لها في حياتنا، فالايماءات والاشارات في نظرى هى في جوهرها وسيلة اتصال بدائية، لأنها لا تثير فكرا ولا تبنى حضارة وبالتالى لا تضع ثقافة .. وهى لذلك اعتبرها أقرب إلى لغة الحيوان أى إلى أصواته وإشاراته وإيماءاته التى يستخدمها داخل بيئته .. والتى لا يمكن من خلالها أن يبنى ثقافة ...

لذلك نتساءل هنا:

ما هى لغة الحيوان؟ وهل ايماءاته وإشاراته تختلف عن ما يوجد عند الإنسان؟

وإذا كان هناك ما يطلق على تلك الوسائل المحدودة في الاتصال مصطلح "لغة" هل تلك اللغة تخضع لنفس قوانين وقواعد ومفاهيم "لغة" الإنسان، أم أن هناك أختلافا جذريا بين الاثنين، وأن ما يملك الإنسان من إشارات وإيماءات هى فقط ما يمكن أن نعتبرها مثل ما يوجد عند الحيوان تماما؟؟

كل هذا يقتضى منا أن نتعرض بشئ من التفصيل لما يمكن أن يجيبنا على كل ذلك.

لغة الحيوان كأساس للسلوك الاجتماعى داخل بينتهم:

لقد تحدث نحاة العربية القدماء عما يعرف "بلغة الحيوان" ومنهم الجاحظ الذى عرض لشئ من لغة الحيوان كما يفهمها أفراده، وكما يفهمها الانسان، فقال:

"ثم لا يخرج الحيوان بعد ذلك في لغة العرب من فصيح وأعجم، وكذلك يقال في الجملة، كما يقال الصامت، لما لا يصنع صمتا قط، ولا يجوز عليه خلافه، والناطق لما لم يتكلم قط، فيحملون ما يرغو، وثغو، وينهق، ويصهل، ويخور، ويعوى، وينبح، ويصفر، وينعب، ويزأر، ويزتو، على نطق الانسان إذا جمع بعضه على بعض .. والفصيح الانسان، والاعجم أنا نفهم عند الفرس والحمار والكلب كثيرا عن إرادته وحوانجه، كما نفهم من إرادة الصبى في مهده، ونعلم - وهو من جليل العلم أن بكاءه يدل على خلاف ما يدل عليه ضحكه، وحمحمة الفرس عند رؤية المخلاة، على خلاف ما تدل عليه حمحتمه عند رؤية الحجر، ودعاء الهرة الهر خلاف دعاءها لولدها ... وهذا كثير"[١].

نستطيع أن نقول أن للحيوانات وسائل خاصة بها للاتصال والتعامل والتفاهم، وهى تعتمد أساسا على العلامات والإشارات، فهناك أنواع عديدة من الحيوانات لا تعيش منعزلة، بل تعيش في جماعات، مثل هذه المجتمعات الحيوانية قد تكون العلاقة بين أفرادها غير وطيدة، أما إذا كانت العلاقة عكس ذلك، ففى هذه الحالة نجد توزيعا للعمل بين مجموعات الأفراد في المجتمع الواحد، وهذا يؤدى إلى نوع من السلوك الاجتماعى،

---

(١) الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، مصطفى البابى الحلبى، ١/ ٣٢.

الذى يقتضى بدوره نوع من اللغة والتفاهم، وهذه اللغة تعتمد على نسق العلامات والاشارات[1].

فنحن البشر لدينا أكثر من وسيلة للتفاهم غير اللغة في كثير من الأحيان، فعندما نعبر عن دهشتنا فقد يرسم على وجوهنا علامات تعجب يستطيع غيرنا من البشر أن يفهمها، وإذا أبدينا استخفافا بشئ من الأشياء فإننا نهز كتفينا والناس من حولنا يفهمون معنى هذه الحركة ... والحيوانات بطبيعة الحال لا تستطيع أن تتكلم، ولكن بعض الأصوات تحدث أصواتا تماثل إمارات التعجب التى ترسم على وجوهنا، فالحصان يصهل وينبش الأرض بقدميه، وعندما تسمع ذلك بقية الخيول، يعنى ذلك شيئا بالنسبة إليها[2].

وتقوم الحيوانات بتمييز عدد من الاشارات التى تقوم بيا رفاقها وهى إشارات غالبا ما تكون طفيفة جدا، فإذا كانت جماعة من طيور العقعق Jackdaw مثلا تلتقط غذاءها من الأرض ثم طار طائر منها إلى فرع الشجرة لكى يصلح ريشه بمنقاره، فإن بقية الطيور لا تتحرك من مكانها وتستمر في التقاط الغذاء، أما إذا طار واحد منها وظل يحلق ويرتفع إلى

---

(١) يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: "وورث سليمان داود، وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير، وأوتينا كل شئ، أن هذا لهو الفضل المبين، وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون، حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يمكنكم سليمان وجنوده، وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى، وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك في عبادك الصالحين" صدق الله العظيم (النحل: ١٦ ـ ١٩).

(٢) يوسف عز الدين عيسى، لغة الحيوان، مقالة من عالم الفكر، مجلة دورية، المجلد السابع ـ العدد الثانى يوليو ١٩٧٦، الكويت، ص ١٦٢.

عنان السماء، فإن جماعة الطيور تدرك الفارق بين هذا الطيران وذاك، وحينئذ تحلق بقية الطيور وتطير في الجو.

ولهذه الإشارات أهمية كبيرة في حياة الحيوانات، فهى عامل أساسى في وسائل اتصالهم، فصيحة القرد المعروفة باسم "البابون" وهى (آك - آك - آك) هى علامة تحذير تدعو القطيع إلى اليقظة، أما الصيحة الواحدة (آك) فأنها تدعو القطيع إلى الهرب والفرار فور سماعه لها(١). وتحدث القردة أصواتا عديدة، وتظهر على وجوهها تعبيرات كثيرة عندما تكون مبتهجة أو منزعجة أو غاضبة، أو عندما تكون جائعة أو راضية قانعة، ويمكن اعتبار هذه الأصوات المختلفة وتعبيرات الوجه جزءا من لغة القردة، طالما أن القردة الأخرى تفهم هذه الأصوات وتميز هذه التعبيرات(٢).

وقد أقيمت تجربة في عام ١٩٥٩ لتربية الشمابنزى تربية آدمية أو بطريقة آدمية، ونجحت في تأدية كل حركات الإنسان، ولكن العلماء فشلوا في جعلها تتكلم بطريقة بشرية ونجحت فقط في إصدار أربعة أصوات، ولم تكن تصدرها إلا بعد الدق على رقبتها أو مقدمها، ولكن هناك تجربة أخرى أقيمت على الشمبانزى تم خلالها تدريبه على لغة الاشارات، ونجح في استخدام ١٣٢ إشارة، وعلى الرغم من أن القردة لا تصدر جملا أصلية أو اى تركيب معقد من ناحية القواعد، فأنها تستطيع أن تربط بين مائتى ايماءة محددة بالأشياء الموجودة في بيئتها، كما يمكنها أن تشير إلى الأشياء والأحداث والاتصال فيما بينها وبيننا بكلمات وإشارات، كما أن القدرة يمكنها اكتساب ايماءات رمزية، فهى تستخدم في الغابة ايماءات وتعبيرات

---

(١) شوقى جلال، الأصوات والإشارات، مرجع مذكور، ص ١٢.
(٢) يوسف عز الدين عيسى، لغة الحيوان، مرجع مذكور، ص ١٦٢.

الوجه مثلا للتخاطب والتفاهم، فالشمبانزى يصافح زميله عند اللقاء بضربة خفيفة على اليد، كما أنه يبتسم أيضا وتظهر أسنانه في بعض المواقف، كل هذا يشكل لغة خاصة بها، وتعتبر أساس اتصاله بأفراد نوعه(١).

وفى نظرى أن اختلاف أنواع القردة، واختلاف البيئة التى تعيش فيها، قد ينتج عن ذلك الاختلاف في نوعية الايماءات والاشارات المستخدمة بين أفراد النوع الواحد، فلا شك أن هناك ايماءات وإشارات عامة توجد بين كل من الشمبانزى والبابون والغوريلا .. وباقى أنواع القردة المختلفة، ولكن في نفس الوقت هناك احتمال بأن تكون هناك ايماءات وإشارات خاصة بكل نوع من تلك الأنواع، ويمكن هنا أن نعتبرها بمثابة "لهجات" أى أن لغة القردة تنقسم بدورها إلى لهجات، وكل لهجة خاصة بنوع معين وبيئة خاصة، وهذه اللهجات تكون وراثية أى أن أفراد الجيل يورثونها للجيل التالى من نفس النوع، فينشأ القرد في بيئته ويتلقى من بقية أفراد نوعه الايماءات والاشارات السائدة والمعروفة في بيئته والتى يختص بها أفراد نوعه عن بقية الأنواع الأخرى في البيئات الأخرى المختلفة، فتصحب بذلك بمثابة "لهجة" خاصة بأفراد نوع معين، وذلك يعتبر ثورة على اللهجات الانسانية، حيث أننا قد نصل من ذلك إلى أن "اللهجات" مصطلح لا يقتصر على اللغات الانسانية فقط بل يمتد ليشمل لغات بقية الكائنات، وأنه حتى إن كانت اللغة مجرد ايماءات وإشارات، فأنها أيضا قد تنقسم إلى لهجات متعددة.

بل أننا قد نجد أن تلك اللهجات ليست فقط بين الفروع المتعددة للنوع الحيوانى، بل بين أفراد النوع الواحد من ذكر وأنثى، فالايماءات

---

(1) Fisher. Helen. "The Sex Contract" (The Evolution of Human Behavior. New York.

والإشارات التى يتفاهم بها الذكر مع أفراد جنسه في بيئته، تختلف عن تلك التى يتفاهم بها مع الأنثى، فهناك إشارات خاصة بين النوعين، فالانثى تنبه الذكر عن مكان وجودها أو العكس بإشارات معينة لا يقوم بها إلا النوعين في مواقف معينة، أى أنها قاصرة على الذكر والانثى فقط، وأفضل مثال لتأكيد ذلك ما قدمه "لورنز" Kourad Lorenz عن نظام الاتصال لدى نوع معين من "الغربان" Jackdaws أوضح في تلك الدراسة أن الغربان لديها نداءات خاصة تستخدمها الذكور في مغازلة الإناث وتختلف عن تلك النداءات التى تستخدمها للدعوة إلى الطيران من أعشاشها مثلا أو إلى بقية النوع من الذكور ... وهكذا.

وهذا يجعلنا نقول أن لغة الحيوان والطير قد تنقسم إلى لهجات عامة ولهجات خاصة، تماما مثل اللغات الإنسانية، فاللهجة العامة هى التى تكون عبارة عن إيماءات وإشارات مستخدمة بين أفراد النوع كله داخل البيئة، أما اللهجة الخاصة فهى تلك التى تتكون من إشارات وإيماءات خاصة بين الذكر والأنثى فقط لا غير، وذلك مثل ما يوجد في اللغات الإنسانية، من لهجة للرجال وللنساء، ولهجة ثالثة تستخدم بين الاثنين .. وهكذا.

ونصل من ذلك كله إلى أن الحيوانات ليس فقط تملك لغة معينة، بل أن هناك احتمالات كبيرة أنها تختص وتعرف أيضا نظام اللهجات، وذلك يحدث باختلاف البيئة واختلاف الجنس بين أفراد النوع الواحد، ولو نظرنا إلى اللهجات الإنسانية، لوجدنا أن انقسامها إلى لهجات - يرجع دائما إلى نفس الأسباب، اختلاف البيئة، واختلاف الجنس ... الخ مع عوامل أخرى عديدة لا توجد بالطبع عند الحيوان وذلك للاختلافات الجوهرية بين لغة كل من الحيوان والإنسان.

فعلى الرغم من أن لغة الحيوان هى عامل أساسي في حياتها وداخل مملكتها، وأن لكل حيوان وطير لغته الخاصة في الاتصال والتفاهم مع أفراد نوعه، إلا أننا نؤكد أن هناك عدة فروق بلا شك بين لغة الانسان ولغة الحيوان، تلك الفروق هى التى تجعل من لغة الانسان لغة متطورة، خلاقة، يتحكم فيها الانسان ويستطيع أن يطورها كما يشاء ووفقا لاحتياجاته وللتطورات التى في حياته، فلغة الإنسان تتكون من كلمات وجمل، ولكن لغة الحيوان ليست كذلك، فالحيوانات تستجيب للاشارات Signs التى تعبر عن المواقف المباشرة التى توجد في بيئتهم الطبيعية، وبالتالى فإن الحيوان لا يتخطى في استجاباته هذه البيئة، لذلك فهو يفتقد الخيال والتصور، وذلك لأن الخيال والتصور يشكلان مواقف بالنسبة للانسان يستجيب لها، وبالطبع تكون استجاباته لها مختلفة (نوعا) عن استجابة الحيوان، كما أن لغة الانسان هى وحدها التى تفصل بين الإشارة ، ولهذه الفروق العديدة بين لغة الحيوان ولغة الإنسان، قام العلماء بتحديدها فى عدة نقاط أساسية:

الثنائية:

اعتبر العلماء أن لغة الإنسان تحتوى على نظامين واحد للأصوات والآخر للمعانى، وهذان النظامان يقدمان للإنسان اقتصادا أساسيا في عملية التوصيل، لأن النظام الأول يتكون من عدد محدود من الأصوات، وهو يتيح للإنسان أن ينقل عددا معينا من المعانى، ثم عددا آخر وآخر في جمل لا تدخل في عصره وهذه الثنائية غير موجودة في الاتصال الحيوانى، لأن صيحات الحيوان هى وحدات فردية متمايزة لا تخضع للتحليل.

الخلق والانتاجية:

اللغة كما يقول العلماء تمكن الانسان من أن ينقل كل لحظة "رسائل" و "معانى" لم يبق أن أداها، وتمكنه من أن يفهم "وسائل" جديدة لم يكن له بها عهد من قبل، وقدرة اللغة الإنسانية على الخلق وعلى الانتاج لا توجد في الاتصال الحيوانى، فالحيوان غير قادرة على أن يتحدث عن المستقبل والأمل وال؟؟؟؟؟؟، وهذا هو السبب في أن لغة الحيوان لا تتطور ولا تتحول، أن قردة البابون والقطط والدجاج ... الخ تتحدث نفس اللغة التى كانت تتحدث بها منذ القدم[١].

التحكمية:

أوضح العلماء في تلك النقطة أن علاقة الكلمة بالمعنى أو اللفظ بالشئ علاقة تحكمية، اعتباطية، عرفية، تولد داخل المجتمع وتتغير بتغير المكان والزمان، أما في الاتصال الحيوانى فإن صلة الرمز بالشئ الذى يدل عليه تكاد تكون صلة "ايقونية" أى تتبع مثالا خاصا لا يتغير، فرقصة النمل مثلا تدل على مكان الرحيق ليس غير، وهى تدل عليه في كل بيئات النمل دون تغيير.

التبادل الداخلي:

اللغة في رأى العلماء اللغويين تمكن الإنسان من أن يكون "مرسلا" و "مستقبلا" في الوقت نفسه، فهى التى تتيح التبادل الداخلى في

---

(١) عبده الراجحى، اللغة وعلوم المجتمع، كلية الاداب، جامعة الاسكندرية، ١٩٧٧، ص ٦٦ - ٦٧.

المجتمعات، وقد نجد شيئا من ذلك عند بعض الحيوان كالقرود، ولكنه غير موجود عند كثير من الحيوانات[١].

الشمول:

أننا نستخدم اللغة في الدلالة على أشياء حقيقية، وعلى أشياء متخيلة، وعلى أشياء مادية وأخرى معنوية، ونستخدمها للإشارة إلى الماضي والحاضر والمستقبل، ولا يوجد شئ مهما يكن إلا ونستخدم اللغة في الإشارة إليه، بل نحن نتحدث عن اللغة باللغة، وهذا كله لا يوجد عند الحيوان[٢].

كل هذه الاختلافات في النهاية تؤكد على حقيقة مؤداها أن نداء ولغة الحيوان شئ متوارث بعكس اللغة الانسانية التى لا تؤخذ إلا بالاكتساب، فهى لا تعيش ولا تنقل إلا من خلال ثقافة المجتمع الذى يتحدث بها، وتلك هى النقطة الاساسية التى لا توجد عند الحيوان، فالحيوان لا يملك ثقافة بالمعنى المفهوم للكلمة، وحتى إن كانت موجودة فهى محدودة وغير نامية داخل المملكة الحيوانية بأسرها، فما زال الحيوان يعتمد في السيطرة على قوته البدنية، ولم يحدث في التاريخ أن استخدم محصلة تعلمه في بناء مجتمع أو تطوير حكومة أو بناء قوات مسلحة أو معارض فنية.

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٦٩.

الفصل الثانى

اللغة كعلم وكظاهرة

- مقدمة
- أصل اللغة الانسانية ونشأتها.
- اللغة كعلم "علم اللغة العام".
- كيف يدرس الباحث اللغوى الانثربولوجى اللغة.
- لمحة عن تاريخ الدراسات اللغوية.
- الاتجاهات اللغوية المعاصرة.
- الخلاصة.

مقدمة:

أوضحت في الفصل الأول كيف أن اللغة هى أهم عنصر في حياتنا، وأنه لا غنى مهما تعددت وسائل الاتصال المختلفة ولأهمية الدور الذى تلعبه اللغة في حياتنا، فأن الأمر يقتضى منى أن أقوم بتحليل أهم جوانبها في محاولة التوغل في فهمها وتمحيصها حتى يمكن أن نصل من خلال دراستنا وأبحاثنا إلى عدة قوانين وقواعد تحكم اللغة وتعمل دائما على تطورها حتى يمكنها أن تعبر عن ثقافة المجتمع.

ودراسة اللغة من الأمور التى أصبحت شائعة وهامة في معظم الجامعات والمعاهد، ولم تعد دراسة اللغة مقتصرة على أقسام اللغة العربية أو اللغات الأجنبية، وإنما امتدت باعتبارها ظاهرة مجتمعية إلى اهتمامات الانثربولوجيا والاجتماع وعلم النفس بل وإلى الدراسات الجغرافية، ولعل أحدث العلوم التى دخلت الجامعة وهى علوم الاتصال تجعل من اللغة كوسيلة لنقل المعارف والمعانى والافكار كمستودع للرموز والاشارات والتوجيهات .. الخ من بين مباحثها الأساسية .. ومعنى ذلك أن الاهتمام باللغة تجاوز حدودها التقليدية باعتبارها أداة حضارية كبرى ذات تأثير بعيد المدى في الآداب والعلوم والفنون المختلفة، فضلا عن أنها في مجال التأثير على الرأى العام تستخدم من صناع القرار وواضعى السياسة في كثير من المجتمعات استخدامات للتأثير في صنع الرأى وتوجيهه أو تغييره .. وباختصار نستطيع القول بأن العلماء بدأوا يهتمون اهتماما كبيرا باللغة ودورها في حياة البشرية.

وسأحاول أن أعرض في هذا الفصل "اللغة كعلم وكظاهرة" تستحق الدراسة، ومن خلال هذا العرض سألقى الضوء على المحاولات

العديدة التى تبذل للكشف عن أصل اللغة ونشأتها، كما سأتعرض لموضوع علم اللغة وهدفه الأساسى، وقد يكون ذلك من باب الاستطراد الذى هو من عمل اللغوى، ولكن لنفس الأسباب السابقة، ولكن نظرا لحداثة الموضوع في الدراسات الاجتماعية، إلا أننى سأحاول أن أوضح الكيفية التى يدرس بها الباحث اللغوى والانثربولوجى اللغة في مجتمع ما، حتى يمكن من خلال دراسته لها في مجتمع ما أن يكشف عن التأثيرات المتبادلة بين الثقافة واللغة وهى في الحقيقة جوهر البحث.

إن الانسان هو الكائن الوحيد الذى يتمتع بالقدرة على التفكير المنظم، كما أنه ينفرد عن بقية الكائنات بوجود لغة متطورة لديه يستطيع من خلالها التفاهم وتوصيل تلك الأفكار ونقل المعلومات وتبادلها مع الآخرين، بل ونقل المعلومات وتبادلها مع الآخرين، بل ونقل التراث الانسانى كله من جيل لأخر عبر الزمن .. لذلك عرف الإنسان اللغة منذ قديم الزمان، فاللغة قديمة قدم أى جانب آخر من الثقافة، فهى التى أتاحت للإنسان أن يصنع المجتمع وأن يقيم الحضارة، وقد استخدم الانسان اللغة منذ آلاف السنين(١) وهى عمر الانسان على الأرض.

ونتساءل هنا: كيف تكلم الإنسان؟ وكيف نشأت لغته، وما هو أصل اللغة الإنسانية؟

---

(١) نقول استخدم الإنسان اللغة، وكأن اللغة كانت موجودة أبدا، ولعل هذا هو جوهر التعريف الدوركايمى للظاهرة الاجتماعية أنها سابقة، ولكن الحقيقة أن الإنسان هو الذى صنع اللغة، ويستدل على ذلك من تعدد اللغات في العالم، ولكن يمكن القول أن وسيلة التخاطب (الاتصال بين البشر) ربما تكون لها جذور في الطبيعة البشرية، أما اللغة التى تنطوى على مجموعة معقدة من الأصوات والدلالات فهى حديثة، وهى وليدة الثقافة وهى مكون من مكوناتها.

وسأحاول الاجابة على تلك التساؤلات العديدة من خلال عرض تفصيلى لموضوع نشأة اللغة الذى يرتبط ارتباطا وثيقا من وجهة نظر الانثربولوجيا ودراسات المجتمع بطابع الثقافة ومكوناتها وضرورات الاجتماع الانسانى.

أصل اللغة الإنسانية ونشأتها:

أن أصل اللغة وثيق الصلة بأصل الإنسان ذاته، وبتطور جسمه وعقله، وأن معرفتنا بتاريخ الإنسان قبل التاريخ المدون قد ازدادت في القرن الأخير، ولكن رغم تقدم معارفنا في هذا الحقل، إلا أن أصل الانسان ونشأته من حيوان أبكم إلى حيوان ناطق، ومن حيوان لا يعقل إلى حيوان عاقل لا يزال يكتنفه بعض الغموض، وتحوطه حجب من الأسرار لذلك يقول الباحثون أن معرفة أصل الإنسان ونشأة لغته أمر يثير الخيال، كما أن معرفة أصل اللغة تعد من أقدم المشاكل الفكرية التى جابهت الإنسان(١).

وقد قامت العديد من النظريات، وكتبت العديد من المقالات كلها تحاول أن تصل إلى الحقيقة التى شغلت وما زالت تشغل الدارسين في هذا الحقل وجميعها تعكس عددا من النظريات البيولوجية والانثربولوجية والاجتماعية عن أصل المجتمع ومنشأ الثقافة والتطور والانتشار والتفاعل، أن هذه المشكلة (مشكلة أصل اللغة) ترجع إلى العصور الأولى للفكر الإنسانى حيث نجد عددا كبيرا من الأساطير القديمة تدور كلها حول أصل اللغة ويرجع الاهتمام بدراسة أصل اللغة ونشأتها إلى علماء القرن التاسع عشر الذين كان يغلب عليهم الطابع أو الاتجاه التاريخى والتطورى في

---

(١) أنيس فريمه، محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها، معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٥، ص ١٢.

مختلف مجالات البحث والمعرفة بقصد التعرف على الأصول الأولى للأشياء، وكان السائد حينئذ أن التاريخ هو المفتاح الوحيد للدراسة العلمية للغة والكلام الانسانى[١]. ولعل التشابه في المستوى على النظرة التاريخية بين علماء القرن التاسع عشر المهتمين باللغة وبين علماء الانثربولوجيا وخاصة على مستوى التفسير هو الذى جعل اللغويات من المباحث الأولى التى أهتم بها كل الانثربولوجيين تقريبا على اختلاف نقاط انطلاقهم أو تداخلهم.

ونحن نتساءل دائما: كيف بدأت اللغة الإنسانية في المقام الأول؟ الحقيقة أن هذا التساؤل حول أصل اللغة وكيف بدأت أصبح سؤالا متداولا، وأصبحت مادته جديرة بالدراسة، وقد كتبت عدة نظريات حول هذه النقطة، ولكننا مازلنا في حاجة إلى العمل قليلا على أسس سليمة ومنطقية للغة واتصالاتها وذلك قبل أن نصل إلى خلاصة من شأن أصل اللغة، وليس معنى ذلك أننا نفتقد الأمل في التعرف على أصل اللغة، ولكن العملية تحتاج فقط إلى إعادة بناء العملية الخاصة بأصل اللغة بصورة ذكية[٢]. والسؤال الذى يشغل أذهاننا دائما هو: كيف تكلم الانسان؟

إن الإنسان لا شك باتساع إدراكه احتاج إلى التعاون والاتصال، فاحتاج إلى اللغة، ولا ريب في أن اتساع المدارك كان يتدرج بتدرج النمو فيها، فيكون احتياج اللغة بطريق التدرج أيضا، وبعد أن كان التفاهم بالاشارات ثم بالمقاطع الصوتية القليلة أصبح بمقاطع أكثر لحاجات أكثر،

---

(١) أحمد ابو زيد، عالم الفكر (مجلة دورية)، مقالة بعنوان "حضارة اللغة" المجلد الثانى، العدد الأول، أبريل ١٩٧١، ص ١٧.

(2) Casson, Ronald W., "Culture and Cognition" Auth. Perspective Inc. Publishing Co. Inc. New York, 1981, P. 23.

وهكذا إلى أن نمت اللغة بنمو الإدراك وتكاثر الحاجة، كيفت المقاطع حروفا أمكن حصرها فكان منها اللغة(١).

ونرى هنا أن نفس الشئ تماما يحدث عند الطفل الصغير، فالطفل أول ما يتحرك لسانه بالكلام يكون ذلك منه بالحروف السهلة على النطق، فإذا أدرك الأشياء أخذ يطلق عليها في هذه الحروف ما لا يخلو من مناسبه، وإذا اتسع إدراكه وانطلق لسانه بالحروف الأخرى قلد من هم حواليه بما يسمعه منهم من إطلاق الألفاظ على معانيها، وهو في ذلك سينتقل في كلامه من لغو الأطفال إلى لغة الوليد إلى غرين الصبى، ثم إلى لهجة العشيرة ثم إلى تهذيب الدراسة، وهكذا تلقن اللغة(٢).

لغة الطفل ونشأة اللغة وتطورها:

يذهب كثير من العلماء إلى أن المراحل التى يجتازها الطفل في أى فرع من فروع حياته تمثل المراحل التى اجتازها النوع الإنسانى في تعلمه للغة، فقبل أن يتمكن الطفل من الكلام يكون قد اكتشف وسائل كثيرة للاتصال للآخرين، وهى وسائل بسيطة وساذجة وتلقائية ولكنها تكفى على أى حال للتعبير، كما هو الحال مثلا في البكاء للتعبير عن الجوع، والألم أو عدم الشعور بالراحة والخوف، وهذه كلها وسائل تسود في كل المجتمعات الانسانية بلا استثناء وبغير اختلاف في كل زمان ومكان، وإن كانت تتخذ عند الكبار أشكالا جديدة ومقصودة(٣).

---

(١) أحمد رضا العاملى، "مولد اللغة"، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٦، ص ١٢.
(٢) المرجع السابق، ص ١٣ - ١٤.
(٣) أحمد أبو زيد، حضارة اللغة، مرجع مذكور، ص ١٩.

ولا يلبث الطفل ان يلجأ إلى بعض الأصوات ذات المقاطع المتميزة للتعبير في بعض حاجاته ويتدرج ذلك ويزداد حتى يملك ناصية اللغة، وهذا ما حدث تماما للإنسان واللغة في مرحلة نشأتها الأولى على حد قول العلماء اللغويين، وهذا الاتجاه يحمل اسم "نظرية التلخيص" أو "نظرية هيكيل" وعلى هذه النظرية اعتمد كثير من العلماء في تأييد آرائهم بصدد نشأة اللغة الانسانية وتطورها، وفى ذلك يقولون: أن اللغة الانسانية قد نشأت من أنواع التعبير الطبيعى، وأن الإنسان قد افتتح هذا السبيل بمحاكاة أصوات الطبيعة وأصوات الحيوان والأشياء[1] والتعبير الطبيعى للإنسان يشمل جميع الأمور الفطرية غير المقصودة التى تصحب الانفعالات (اللاارادية) وذلك مثل الصراخ والبكاء والضحك وأغماض العينين ... الخ وتنقسم هذه التعبيرات من حيث الحاسة التى تدركها عن طريقها إلى نوعين تعبيرات بصرية - وتعبيرات سمعية[2].

ونجد هذه المرحلة تماما عند الطفل، وتسمى المرحلة الأولى، حيث تصدر عن الطفل في هذه المرحلة أصوات وجدانية تعبر تعبيرا طبيعيا عن الانفعالات، وهى تصدر منه حين تلبسه بحالة انفعالية، كالأصوات التى تصدر متمثلا في حالات الخوف والألم والجوع والغضب والدهشة ... فنراه يبكي، يضحك ... الخ هذا النوع فطرى عند الطفل، ويصدر منه بشكل غير إرادى وبدون سابق تجربة وتعليم، وتثيره الحالات الجسمية والنفسية إليمها ويسارها، وهذه الاثارة قائمة على روابط طبيعية تربط

---

(١) على عبد الواحد وافى، علم اللغة، مطبعة الاعتماد بمصر، ١٩٩٤، ص ١١١.
(٢) على عبد الواحد وافى، نشأة اللغة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٢، ص ٦١ - ٦٢.

أعضاء الصوت بالحالات الجسمية والنفسية بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك بشكل آلى وتلقط أصواتا معينة[١].

ومرحلة الصراخ الفطرى نجدها أولى مراحل نشأة اللغة الانسانية، حيث يقول العلماء أن في هذه المرحلة لم يكن في أصوات اللغة الإنسانية أصوات "مد" ولا أصوات "ساكنة" وإنما كانت مؤلفة من أصوات تشبه أصوات التعبير الطبيعى عند الانفعال[٢].

وكما قال العلماء إن الإنسان كانت لديه القدرة على محاكاة أصوات الطبيعة وأصوات الحيوان، ونجد ذلك عند الطفل أيضا، فالطفل في بعض الأحيان يحاكى الأشياء وأصوات الحيوانات، وتعتمد هذه الأصوات على استعداد فطرى عند الطفل وهو غريزة المحاكاة، ولكنها مع ذلك تصدر بشكل ارادى ويرمى الطفل من ورائها إلى غايات معينة، فهو يرمى أحيانا إلى مجرد التلذذ بالمحاكاة أو إثبات قدرته على التقليد وأحيانا إلى التعبير عن أمور تتصل بالشئ أو بالحيوان الذى يحاكى صوته[٣].

وأوضح معظم علماء اللغة أن الكلام الإنسانى كان يعتمد في البداية اعتمادا كبيرا على الاشارات اليومية والجسمية التى كانت تصحبه، فتكمل ناقصه وتوضح مدلوله وتمثل حقائقه ثم ما لبث أن أخذ يستغنى شيئا فشيئا عن هذا المساعد حتى كاد يستقل بالتعبير، هذه المرحلة تسمى التعبير الوضعى الإرادى، وتشمل جميع الوسائل الإرادية التى يلجأ إليها الإنسان للتعبير عن المعانى التى يريد غيره الوقوف عليها[٤].

---

(١) على عبد الواحد وافى، نشأة اللغة، مرجع مذكور، ص ٩١.
(٢) على عبد الواحد وافى، علم اللغة، مرجع مذكور، ص ٧٢.
(٣) المرجع السابق، ص ٨٣ - ٨٤.
(٤) على عبد الواحد وافى، نشأة اللغة، مرجع مذكور، ص ٩٤.

وذهب العلماء أيضا إلى أن اللغة الإنسانية اجتازت فيما يتعلق بتطور أصواتها ثلاث مراحل "مرحلة الصراخ" التى كانت فيها أصوات اللغة شبيهة بأصوات الحيوان والأشياء ومظاهر الطبيعة كما قلنا، ثم أصوات اللين ثم ظهرت الأصوات الساكنة، أو أصوات التمرينات النطقية، فيظهر لدي الطفل في الشهر الخامس ميل فطرى إلى اللعب بالأصوات وتمرين أعضاء النطق، فيقضى فترات طويلة من وقته في إخراج أصوات متنوعة عارية عن الدلالة وعن قصد التعبير، وقد سمى الباحثون هذا النوع من الأصوات بالتمرينات النطقية، ولا يرمى الطفل من وراء هذه الأصوات إلى محاكاة أو تعبير، وإنما تدفعه إليها غرائزه دفعا(١).

النظرية الأولى:

تقرر أن الفضل في نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى الهام الـهى هبط على الإنسان فعلمه النطق وأسماء الأشياء، وأصحاب هذه النظرية يعتمدون في نظريتهم هذه على أدلة نقلية بعضها يحتمل التأويل وبعضها يكاد يكون دليلا عليهم لا لهم، ومن مؤيدى هذه النظرية "الأب لامى" والفيلسوف الفرنسى "دويونالد"(٢)، والمؤيدون لهذا الرأى من الباحثين العرب يعتمدون على قوله تعالى "وعلم آدم الأسماء كلها" وانقسم العرب إلى قسمين إزاء هذه المشكلة:

قالت جماعة أن اللغة توفيقية، أى أن الله علمها للإنسان، كاتب قصة الخليقة عزاها إلى الله، فالله علم آدم الكلام.

وجماعة أخرى قالت أنها اصطلاحية.

---

(١) المرجع السابق، ص ٨٦.
(٢) محمود السعران "علم اللغة" - مقدمة للقارئ العربى، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢، ص ١٣٣.

فعلى سبيل المثال نرى الأصوليين(١) وعلى رأسهم الإمام الغزالي الذى يعتبر قمة في الفكر التشريعى قد أثار قضية نشأة اللغة، فقال:

"ذهب قوم إلى أنها اصطلاحية، وقال قوم أنها توفيقية إذ الاصطلاح لا يتم إلا بخطاب ومناداة ودعوة إلى الوضع وقال قوم القدر الذى يحصل به التنبيه والبعث على الاصطلاح يكون بالتوفيق، وما بعده يكون بالاصطلاح"(٢).

والتوفيق بأن يخلق الله الأصوات والحروف بحيث يسمعها واحد أو جمع، ويخلق لهم العلم ليتيح لهم الدلالة على المسميات، والقدرة الأزلية لا تقصر عن ذلك، أم الاصطلاح بأن يجمع الله دواعى جمع من العقلاء للاشتغال بما هو همهم وحاجاتهم من تعريف الأمور الغائبة التى لا يمكن للإنسان أن يصل إليها، فيبدأ واحد ويتبعه الآخر حتى يتم الاصطلاح، بل القائل الواحد ربما ينقدح له وجه الحاجة وإمكان التعريف بتأليف الحروف فيتولى الوضع ثم يعرف الآخرين بالاشارة، والتكرار للفظ مرة بعد مرة كما يفعل الوالدان بالولد الصغير(٣).

وقوله تعالى: " **وعلم آدم الأسماء كلها**" تعطينا عدة احتمالات:

- فربما ألهمه الله سبحانه وتعالى الحاجة إلى الوضع فوضع بتدبيره وفكره، ونسب ذلك إلى تعليم الله تعالى لأنه الهادى والملهم ومحرك الداعية، كما ننسب جميع أفعالنا إلى الله تعالى.

---

(١) سبق التعريف بهم، نسبة إلى "علم الأصول"، الفصل الأول.

(٢) السيد أحمد عبد الغفار، "القصور اللغوى عند الأصوليين، دار عكاظ للطباعة والنشر، جدة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م، ص ٤٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٤١.

- أن الأسماء ربما كانت موضوعة باصطلاح من خلقه الله تعالى قبل آدم من الجن أو فريق من الملائكة فعلمه الله تعالى ما تواضع عليه غيره.

- إن الأسماء صيغة عموم فلعله أراد بها أسماء السماء والأرض وما في الجنة والنار دون الأسماء التي حدثت مسمياتها بعد آدم عليه السلام من الحرف والصناعات والآلات، وتخصيص قوله تعالى ولها، كتخصيص قوله " **تدمر كل شئ بأمر ربها**" إذ يخرج عنه ذاته وصفاته.

- وربما علمه ثم نسيه، أو لم يعلم غيره ثم اصطلح بعده أولاده على هذه اللغات المعهودة الآن والغالب أن أكثرها حداثة بعده[1].

ونقول هنا أن القول بأن اللغة جاءت من وحي الله وإلهامه وأن الله سبحانه وتعالى علمها لآدم يحدد من اللغة، فهم يقولون أن الأسماء التي تعلمها آدم هي أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات، فكان آدم وولده يتكلمان بها إلى أن تفرق ولده في الدنيا، وعلى هذا المذهب تكون اللغة محصورة في ما علمه الله سبحانه وتعالى لآدم من اللغات فلا تغيير ولا تبديل فيها، بل هي على ما تكلم به أبو البشر بلا تحريف حتى آخر الدهر، وهذا معنى قولهم أن اللغات توفيقية لا تتعدى ما ورد، والواضح من ذلك أن ناموس التغيير والتبديل لم يخطر لأصحاب هذا المذهب ببال، فحسبوا أن اللغة باقية على وضعها الأول الذي تعلمه آدم عليه السلام في كل لغة من اللغات وانتقلت متوزعة بين أبنائه كما ألقاها هو[2].

---

(١) المرجع السابق ص ٤٢.

(٢) الشيخ أحمد رضا العاملي، مولد اللغة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٦، ص ١٤.

وقد قال ابن جنى في الخصائص:

"إن أكثر أهل النظر أجمع على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحى وتوفيق، وذلك بأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً فيحتاجوا إلى الابانة عن الأشياء والمعلومات، فيضعوا لكى سمة لفظاً إذا ذكر عرف به مسماه "ثم قال "لابد لأولها من أن تكون تواضعاً بالمشاهدة والايماء".

ولكننا نقول أن هذا القول كسابقه لا يعترف بتطور اللغة، وذلك لأن القائلين به يريدون أصل كل اللغات بدليل قوله "ولابد لأولها من أن يكون تواضعاً بالمشاهدة والايماء" وأن الحكماء يجتمعون ليضعوا بطريق المشاهدة والايماء أسماء لمسميات وألفاظاً ثابتة على الدهر للغة لا تتبدل ولا تتغير ولا تتحرف، ولكن كيف يقومون بذلك وهم ليسوا أصحاب لغة، فكيف كانوا حكماء واضعين وليس لهم لغة تصل بهم إلى الحكمة ليكونوا بهذه المرتبة التى لا يبلغها أحد بغير التعلم، إلا إذا كانوا أصحاب لغة سابقة ويجتمعون لأحداث لغة جديدة، ولكن ما فائدة أن يضعوا لغة جديدة وهم أصحاب لغة أصلية صالحة للتفاهم، إلا إذا كانوا يريدون تهذيب اللغة والتوسع، وهنا ليسوا بواضعين لغة، وإنما هم مهذبون، وهذا يختلف كثيراً[١].

ولم يقتصر القول بأن اللغة جاءت من أصل إلهى على الباحثين العرب فقط، بل قال بذلك كثير من العلماء الغربيين، فعلى سبيل المثال في القرن السابع عشر كان بعض العلماء السويديين يعتقدون أن الله يتكلم السويدية في جنات عدن بينما يتكلم آدم اللغة الدينماركية، بل وظن الاتراك

(١) المرجع السابق، ص ١٧.

أن اللغة التركية هى أصل جميع اللغات. وأن كل الكلمات اشتقت أساسا من الكلمة التركية التى تعنى "الشمس" باعتبار أن "الشمس" هى أول شئ يثير الإنسان[1].

وهناك بعض النظريات والآراء لا تقل عن ذلك غرابة وتبتعد تماما عن العلم الدقيق الصحيح كالقول مثلا بأن ثمة علاقة خفية بين الصوت والمعنى، وكل هذه النظريات شبه العلمية نجدها عند الفلاسفة الاغريق مثل فيثاغورث وأفلاطون، بل أن أرسطو وديمقرطيس يذهبان إلى أنها نشأت عن طريق الاتفاق والتراضى دون أن يذكروا كيف أمكن الوصول إلى ذلك الاتفاق، وهناك رأى أخر طريف للعالم اللغوى "شتورتيفانت" Sturtevant يقول فيه بأنه لما كانت النوايا والعواطف والانفعالات الحقيقية الصادقة تكشف نفسها وتفضح صاحبها بطريقة لا إرادية في الحركات والنظرات كان لابد من أن يخترع الإنسان بعض الوسائل للاتصال الإرادى التى ستخدمها ليخفى بها انفعالاته، أى أن اللغة نشأت نتيجة للرغبة في خداع الأخرين واخفاء النوايا الحقيقية[2].

وأخيرا هناك من يقول أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالاتفاق وارتجال ألفاظها ارتجالا، ومن مؤيدى هذا القول كل من العلماء الانجليز "آدم سميث" وريد و"ستيورات"[3]، ولكن هذا القول ليس له أى سند عقلى أو نقلى أو تاريخى، بل أن ما تقرره يتعارض مع القوانين العامة التى تسير عليها النظم الاجتماعية، فهذه النظم لا ترتجل ارتجالا ولا تخلق خلقا بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها.

---

(١) أحمد أبو زيد، الفكر واللغة، مرجع مذكور، ص ١٨.

(2) Pei. The Story of Language. Revised Ed., J. B Lippincott C. Philadelphia. New York, 1965, p. 16.

(٣) على عبد الواحد وافى، نشأة اللغة، مرجع مذكور، ص ٧٢.

ومن ثم فهذه الآراء كلها لا يمكن أن نعتبرها آراء ونظريات علمية، بل هى تفتقد الدقة في تفسيراتها، لذلك لا يمكن أن نعتبرها مفسراً لمشكلة كيف نشأت اللغة الإنسانية.

ولم يقتصر العلماء والباحثون حول هذه النظرية فقط، بل كتبت العديد من النظريات الأخرى التى تحاول الكشف عن أصل اللغة، ومنها:

النظرية الثانية: **نظرية البو- وو** Bow – Waw:

وتقول هذه النظرية أن أصل اللغة محاكاة أصوات طبيعية، وقد أشار العرب إلى هذه النظرية وبطريقة غير مباشرة عندما تكلموا في "حكاية صوت" وقد أدى إلى وضع هذه النظرية ورود كلمات عديدة في كل لغة، لفظها يدل على معناها مثل الحفيف والخدير والخشخشة والطقطقة، وأننا نرى شيئاً من صدق هذه النظرية متمثلا في لفظه Cuckoe وهى اسم طائر يسمى بالصوت الذى يحدثه، ونجد ذلك أيضاً في لفظة "مو" فأنها تعنى في المصرية القديمة وفى اللغة الصينية "هرة"، والواضح هنا أن التوافق في التسمية عند المصريين والصينيين يرجع إلى أن الهرة سميت بالصوت الذى تحدثه، ولكن الكلمات التى يمكن أن تفسر على مبدأ نظرية "البو -وو" قليلة جداً، وفضلاً عن هذا فإن النظرية تعجز عن أن تفسر لنا كيف استغل "مبدأ" حكاية الصوت في آلاف الكلمات التى لا نرى أية علاقة بين معناه وصوتها، فعلى سبيل المثال:

- ما العلاقة بين لفظة أبريق ومعناها؟

- ما العلاقة بين لفظ الكتاب ومعناه؟

فليس هناك من علاقة ظاهرة، أما العلاقة فسيكولوجية أى قرن الأصوات بصورة قائمة في العقل[١].

ومن النظريات التى قيلت أيضا في تفسير أصل ونشأة اللغة الإنسانية، تلك النظرية التى تعرف باسم:

النظرية الثالثة (نظرية البوه – البوه Pooh – Pooh):

ويطلق عليها أيضا اسم نظرية الأصوات التعجبية العاطفية Interjections. وتقول هذه النظرية أن الكلمات الأولى التى نطق بها الإنسان كانت أصواتا تعجبية عاطفية صادرة عن دهشة وسرور، مرح، ألم واستغراب وتأفف .. الخ[٢]، فعلى سبيل المثال لفظة تأفف عندما يتأفف الالمانى يقول "Pfui" وعندما نتأفف نحن نقول "أف أو أوف" وعندما نتحسر أو نتلهف نقول "وى" وهى لفظة ترد في جميع اللغات السامية، ويتبعها عادة حرف الجر "ل" فيقال "وى ل" وعلى مر الزمن امتزجت الكلمتان وصارتا كلمة واحدة "ويل"[٣] وفى الانجليزية القديمة لفظة تدل على التحسر والتلهف شبيهة بلفظك "ويل" وهى "Wa – La"[٤].

ولكن هذه النظرية أيضا لا تفسر نشأة اللغة، لأنه إذا استطاعت نظرية كهذه أن تفسر بضعة ألفاظ فانها تعجز عن تفسير الوف من الألفاظ التى لا نرى كيف يمكن أن تكون في أساسها تعجبية عاطفية أو مشتقة من

---

(١) أنيس فريحة، "محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها" معهد الدراسات العربية، ١٩٥٥، ص ١٧.

(2) Pei. Mario. "The Sory of Language" R. Ed.. J. B. Lippincott Company. Ph.. New York. 1965. PP. 21 – 22.

(٣) أنيس فريحة، مرجع مذكور، ص ١٨ ـ ١٩.

(4) Pei. Mario. op. Cit.. p. 23.

عناصر تعجبية عاطفية، فما علاقة لفظ الحب والنبض والولاء والحصان والانسان والفيل بالأصوات التعجبية العاطفية، ليس هناك أية علاقة يمكن أن يفسر من خلالها نشأة اللغة في حياة الانسان[١].

النظرية الرابعة (نظرية الإشارات الصوتية):

وهى نظرية تحاول أن تفسر أصل اللغة، ويطلق عليها نظرية الاشارات الصوتية، وقد وضعها العالم ريتشارد باجت Sir R. Paget [٢]. وتقول هذه النظرية أن الكلمات هى إشارات صوتية Verbal Gestures ويقول باجت أن الإنسان القديم كان يتفاهم بالاشارة، الإشارة باليد والاشارة بتقلص عضلات الوجه، ولكن عندما صار يستخدم يديه لأمور أخرى، أصبح يشير إلى الأشياء بأصوات، ومما ساعد الإنسان على ترك الإشارة اليدوية والاستعانة عنها بإشارة صوتية هو ظلام الكهف ليلا، ففى النهار يرى الإنسان صاحبه ويستطيع أن يقوم بإشارات يدوية ترى، ولكن كيف يتم التفاهم في الظلام؟ عندها بدأ الإنسان بالتعبير عن الأشياء بالأصوات وهذه الأصوات في الفم تحاكى الأشياء المعبر عنها، وتعرف نظريته هذه بنظرية "Ta – Ta"، أى أن الإنسان عوضا عن أن يشير بيده يقول بلسانه "Ta – Ta" ولا شك أن هذه النظرية فيها كثير من التكلف ولا يمكن أن تكون سببا مفسرا لنشأة اللغة[٣].

ومن هنا نقول أن معظم المحاولات التى قامت لحل مشكلة أصل اللغة لم تكن على أساس علمى سليم، أو على أسس منطقية يمكن أن يتقبلها العقل، حتى محاولة معرفة أصل اللغة عن طريق دراسة اللغات القديمة

---

(١) أنيس فريحة، المرجع السابق، ص ١٩.

(2) R. Paget, "Human Speech", London, New York, 1930.

(٣) أنيس فريحة، محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها، مرجع مذكور، ص ٢٢.

كانت محاولة فاشلة، لأنه لا يوجد لغات قديمة أو بدائية، فقد أثبتت الدراسات الفيلولوجية لهذه اللغات أن وراء كل لغة منها تاريخاً مديداً لا يعلم له بدء، وأنها لغات ليست بدائية في صرفها ونحوها، بل هى نتيجة تطور مستمر للغة قديمة جداً، فإن اعتبرنا أن الإنسان بدأ يتكلم منذ مائة ألف عام، وهذه اللغات وأن اعتبرناها وهما قديما أو بدائيا يكون بذلك وراءها عشرات الألوف من السنين كانت فيها عرضة للتغير والتطور، لذلك فإن محاولة معرفة أصل اللغة عن طريق دراسة اللغات القديمة لن تسعفنا في الوصول إلى معرفة الأصل(١).

ولا شك أننا لا نزال في الظلام رغم المحاولات العديدة التى قامت لمحاولة الكشف عن أصل ونشأة اللغة الانسانية، فعلى سبيل المثال نذكر من تلك المحاولات ما قدمه لغويو القرن التاسع عشر من مقارنات في اللغات الهندية الأوربية في محاولة لاعادة صياغة اللغة الأم، وقد أعجب الانثربولوجيون في ذلك الوقت إعجاباً شديداً بما انتهت إليه أبحاث بعض هؤلاء اللغوين من أن الهندية الأوربية الأولى كانت تتكون أصلاً من كلمات ذات مقطع واحد، وقد جعلت هذه النتيجة بعض الأنثروبولوجيين يتمسكون بأن اللغة نشأت من تقليد أصوات الحيوانات غير المتمايزة، وكان هذا الرأى مناسباً جداً لآراء داروين في التطور(٢).

ولكن على الجانب الآخر نجد أن هناك عدد آخر من الأنثروبولوجيين لم يقبل فكرة أحادية المقطع، لأن اللغات البدائية التى كانت موضع دراستهم لم تكن تنتمى إلى الهندية الأوربية من جهة، ولم تتميز بهذه الظاهرة من جهة أخرى، فقد أوضح Payne أن اللغات البدائية أكثر تحديداً

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣.

(٢) عبده الراجحى، اللغة وعلوم المجتمع، مرجع مذكور، ص ١٩.

من الصيحة الحيوانية وأنها لغة لها نظمها الخاصة .. ومن الذين شغلوا أنفسهم بالبحث عن أصل اللغة العالم "تايلر"، وكان قد اكتشف ما ذهب إليه دى سوسير بعد ذلك من أن اللغة نظام من العلامات، وأنها ينبغي أن تدرس في إطار السيمولوجيا، وقد أجرى تايلور أبحاثا عن الاشارات التى يصطنعها الصم والبكم في معهد برلين ثم قارنها بتلك التى يستخدمها الصم والبكم في انجلترا، ووجد تشابها كبيرا بينهما، ثم قارن هذه الاشارات بتلك التى يستخدمها الهنود الأمريكيون فوجد تشابها كبيرا أيضا، وقد أفضى به ذلك إلى أن يقرر أن هناك "قدرة" خاصة لدى الإنسان على خلق العلامة، وأن هذه القدرة أدت إلى اللغة المنطوقة(١).

وفى نفس الوقت كانت ثمة أبحاث تؤكد على أن اللغات البدائية أكثر اعتمادا على الإشارة، ومنها ما قدمته مدام بفيفر "Pfeiffer" عن قبائل البوريس Puris في البرازيل من أن الإشارة تشكل عندهم عنصرا أساسيا في التوصيل اللغوى، فليس في لغتهم مثلا كلمة تدل على (الأمس) وأخرى على (الغد) ومن ثم يستعملون كلمة (اليوم) ويشيرون إلى الوراء دلالة على الأمس، وإلى الأمام دلالة على الغد ... وهكذا .. وهذه الأبحاث جعلت تايلر يظن أنه على وشك اكتشاف الأصل الذى صدرت عنه اللغة، ولكن كان من أهم ما توصل إليه هو إدراكه أن الإشارة واللغة تعتمدان على قدرة الإنسان على الرمز والتجريد(٢).

ومن هنا ندرك أن مشكلة اكتشاف أصل اللغة مشكلة دقيقة تتطلب الكثير من الوقت والدراسة على الرغم من ما استنزفته من وقت العلماء والباحثين، الأمر الذى نستطيع أن نخرج به من ذلك كله هو التأكيد على أن

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٠.
(٢) المرجع السابق، ص ٢١.

اللغة قديمة قدم الإنسان نفسه وقدم الثقافة والحضارة الإنسانية بمعناها الواسع، وليس من شك في أن أية محاولة لفهم أصل اللغة لن تجدى شيئا إلا إذا أفلحت في اكتشاف الطريقة التى تمكن الإنسان بها من أن يقيم عادات تعسفية معينة ومتفق عليها للربط بين أصوات الكلام والتجربة، وهو الأمر الذى أخفقت في تحقيقه كل النظريات التى سبق ذكرها ... ومن هنا يعتقد علماء الانثربولوجيا اللغوية أن الأجدى في البحث عن أصل اللغة أن يركز الباحث جهوده على تحليل اللغات الحديثة والبدائية الموجودة الآن بالفعل تحليلا دقيقا، لأن مثل هذا التحليل خليق بأن يبين لنا أن عناصر الكلام هى مجرد أمور تعسفية وليست في ذاتها جزءا من الواقع أو التجربة التى يرمز إليها الصوت، وهذه الرمزية التعسفية التى تتميز بها الألفاظ تشير إلى الخاصية الاجتماعية للغة(١).

وعلى ذلك نستطيع القول أن مشكلة اصل اللغة ما زالت مستغلقة على الأفهام، فالإنسان الأول لم يترك وراءه أية تسجيلات عن كلامه مثلما فعل بالنسبة لكتابته ونقوشه ورسومه التصويرية الأمر الذى جعل الأقوال تتضارب حول تحديد ما هى أقدم لغة، فأدعى مثلا الصينيون أن لغتهم هى اللغة الأصلية ولم يستبعد ذلك بعض العلماء من حيث أنها قليلة التهذيب والتشذيب، بل لا تزال ضاربة في البساطة التى هى صفة لازمة للغة الأولى، ولكن لو صح هذا لكانت لغات زنوج أفريقيا وهنود أمريكا هى اللغة الأصلية لأنها أعرق في البساطة من الصينية وأقل تهذيبا، كما ادعى الأرمن أن لغتهم هى اللغة الأولى، وأنها هى التى تفرعت فروعها فكانت منها لغات العالم، لأن الله سبحانه وتعالى جعل آدم من تربتهم، وأنزله بأرضهم فهم يتكلمون لغته، ولغة أبو البشر بالطبع هى الأولى، ولكن ذلك

---

(١) احمد أبو زيد، مقالة حضارة اللغة، مرجع مذكور، ص ١٩.

أيضا لا يعقل حيث يقولون أن الإنسان الأول خلق من تربتهم ونزل بلادهم وهو غير مسلم به، ولو صح هذا فلا يكون دليلا على أن لغتهم هي لغة الإنسان الأول بعينها لم يطرأ عليها أي تغيير ولا تبديل، إذ لا ملازمة بين اللغة والأرض، ولا توجد أمة من الأمم تثبت على لغة واحدة على اختلاف العصور والأحوال[1]. ونرى العبرانيون أيضا يدعون أن لغتهم هي الأولى، وأن العبرانية هي لغة الإنسان الأول، لأن الأسماء الأنبياء الأولين وآباء البشر عبرانية، وفي ذلك دليل على أنها كانت لغة لهم، ولكن نقول أننا إنما أخذنا هذه الأسماء عن العبرانية ولا نعلم هل نقلت كما هي أو تغيرت ثم نقلت، كما فعل اليونان بأسماء بلادهم التي دخلت في حوزتهم، وكما يفعل الصهاينة اليوم في أسماء البلاد التي تدخل في حوزتهم من أرض فلسطين. وأخيرا وليس آخرا أدعى العرب أيضا أن العربية هي لغة آدم أبو البشر جميعا، وجاء في أساطيرهم أن آدم رثى ابنه هابيل بأبيات شعر عربي، ثم قالوا أن عربية آدم حرفت فصارت سريانية، ولما حدث الطوفان "طوفان نوح" لم يكن في سفينته عربي، وكان لسان كل من في السفينة سرياني وهو مشاكل للعربية ولكنه محرف، وكل هذا القول مجرد دعوى بلا دليل، وما نسبوه إلى آدم من الشعر يصعب على كل ذي علم تصديقه[2].

وفي النهاية نستطيع القول بأن الأقوال تضاربت، والآراء تعددت، ولكنهم كلهم يدورون في فلك واحد، هو إمكانية الكشف عن أصل اللغة، ولذلك تنعقد أمامنا مشكلة كيف نشأت اللغة الإنسانية في حياة البشرية، ولكن الشيء الذي أستطيع أن أؤكد عليه أن اللغة إنما نشأت من حاجة

---

(١) أنيس فريحة، محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها، مرجع مذكور، ص ٣١.

(٢) المرجع السابق، ص ٣١ - ٣٢.

الإنسان إلى التعاون والتفاهم مع أبناء جنسه، وحينما كثرت حاجاته كثرت رغبته في ضرورة التوصل إلى لغة يستطيع أن يتعايش من خلالها في مجتمع البشرية؛ لذلك القول بأن اللغة وضعت واخترعت من مجهود الإنسان وفكره أقرب إلى التصديق. فالله خلق الإنسان ذا عقل مفكر، يتدبر الكون وما حوله، لذلك يحتمل وهذا احتمال كبير أن يكون قد نجح قديما في وضع ألفاظ واصطلاحات لتفسير البيئة والطبيعة من حوله، ولتحديد حاجاته ورغباته .. حتى أصبحت بعد ذلك بمثابة لغة تتوارث عبر الأزمان، وتغيرت بتغير الأحوال، ولكن كان هناك دائما واضع أول لها، وهو الإنسان وما أعطاه الله له من قدرة خصه بها عن بقية الكائنات الأخرى.

والمحاولات العديدة للكشف عن أصل ونشأة اللغة الإنسانية إنما إن دلت على شئ إنما تدل على أهمية اللغة في حياتنا، والرغبة في معرفة ما وراءها من ألغاز، كل ذلك استدعى من العلماء أن يعطوا لها اهتماما أكبر وعناية فائقة، وقاموا بدراسات عديدة لمعظم لغات العالم، ولقد نتج عن هذه الجهود أن أصبحت اللغة "علما" من العلوم"، لها ما لأى علم مستقل موضوعه ومنهجه ووسائله.

وسأحاول في هذا الجزء أن اتعرض لمناهج وموضوعات "علم اللغة" كعلم له ثقله في معظم الجامعات والمعاهد اليوم، كما سأتناول الأساليب والمناهج التى يتبعها الباحث اللغوى الانثربولوجى في دراسة لغة مجتمع ما، والتى من خلالها يحاول الوقوف على القوانين والقواعد التى تحكم تلك اللغة كما سيتسنى له من خلال دراسته هذه الكشف عن العلاقة المتبادلة من الثقافة داخل المجتمع واللغة التى يتكلم بها أعضاء هذا المجتمع ومعرفة التأثير المتبادل بينهم.

علم اللغة العام:

بدأت الدراسة العلمية الحديثة للغـة مـع مولـد القرن السـابع عشـر، وذلك في الفترة التى تم الاكتشاف فيها لبعـض الحقـائق مثـل جمـع الكلمـات والعبارات والأصوات وذلك لعدد كبير من اللغات، وكان بعـد ذلـك الاسـهام الأكبر في القرن التاسع عشر حيث كان الاكتشاف لكثير مـن الجوانـب مثـل الأنظمة المنتظمة للغة، ثم جاء القرن العشرون الـذى ظـهر فيـه العديـد مـن النظريات المتقدمة، والذى يهمنا في ذلك أن كـل هـذا أدى إلـى حقيقـة قالـها العلمـاء وهى أن هناك "علم اللغة" أو دراسة كاملة لكل أوجه اللغة(١).

وعلم اللغة العام هو ذلك العلم الذى يتخذ اللغة موضوعا لـه، ولعـل من أفضـل التعريفات لذلك العلم هو ما قاله العالم اللغـوى الشـهير "فرديـناند دى سوسير" في "محاضرات في علم اللغة العام"، فأوضـح أن:

"موضـوع علم اللغة الوحيد والصـحيح هـو اللغـة معتـبرة فـي ذاتـها ومن أجل ذاتها"(٢).

كما قال الأستاذ "روبنز Robins" استاذ علم اللغة العام فـي جامعـة لندن، أن:

"علم اللغة العام من العلوم التى اعتنى بها مرتبطة باللغـة الإنسـانية كجزء مهم وشامل للأسلوب الإنسانى والملكات البشرية، وربما كواحـد مـن

---

(1) Haviland W., "Anthropology" U. of Termont. Copy right 1974 (C) by Holt, Rinehart and Winston, New York. P. 801.

(٢) محمود السعران، علم اللغة، مقدمة للقارئ العربى، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢، ص ٥١.

الأسس في حياة الإنسان كما نعلم، وهو أيضا أحد الموضوعات كبيرة القرابة بالقدرات البشرية على اتساع إنجازات الإنسان"[١].

واللغة التى يدرسها علم اللغة ليست الفرنسية أو الانجليزية، وليست أى لغة معينة من اللغات، وإنما هى "اللغة" التى تظهر وتتحقق في أشكال لغات كثيرة ولهجات عديدة، وصور مختلفة من الكلام الإنسانى.

مثال لذلك:

فمع أن اللغة العربية تختلف عن الانجليزية، والانجليزية تختلف عن الفرنسية، إلا أن هناك أصولا وخصائص جوهرية تجمع ما بين هذه اللغات، وتجمع ما بينها وما بين سائر اللغات وصور الكلام الإنسانى، وهو أن:

- كلا منها لغة.

- كلا منها نظام اجتماعى معين تتكلمه جماعة معينة وتحقق به وظائف خاصة، ويتلقاه جيل بعد جيل.

وهكذا فإن علم اللغة يستقى مادته من النظر في اللغات على اختلافها وهو يحاول أن يصل إلى فهم الحقائق والخصائص التى تسلك اللغات جميعا في عقد واحد.

ويعنى قول وتعريف "دى سوسير" أن "علم اللغة يدرس اللغة في ذاتها" أنه يدرسها من حيث هى لغة، يدرسها كما هى، يدرسها كما تظهر، فليس للباحث فيها أن يغير من طبيعتها، والعالم اللغوى هنا يقوم بدراستها دراسة موضوعية تستهدف الكشف عن حقيقتها، ويكون عمله قاصرا على

(١) أحمد رضا العاملى، "مولد اللغة"، مرجع مذكور، ص ١١٩.

أن يصفها ويحللها بطريقة موضوعية[1]. فاللغة التى يتخذها علم اللغة موضوعا له، هى اللغة التى تقوم على ربط مضمونات الفكر الإنسانى بأصوات ينتجها "النطق" أنها اللغة التى تقوم على إصدار واستقبال أصوات تحدثها عملية الكلام، فالأصل في اللغة أن تكون كلاما، وأن تكون مشافهة.

وهناك فرق بين علم اللغة العام كموضوع لدراسة اللغة وبين دراسة اللغات الفردية، فدراسة اللغات الفردية ترتبط كثيرا بالجماعة البشرية، وفى وقت من الأوقات قامت بدور أساسى في كل مراحل التعليم في جميع أنحاء العالم أما دراسة علم اللغة في صورتها الحالية هى حقل دراسى جديد[2].

وعلم اللغة يشتمل على نوعين من القوانين:

- القوانين اللغوية.
- القوانين الصوتية.

وهذه القوانين لا تتضمن ولا تشترط الحتمية، حيث أن القانون عند اللغويين هو عبارة عن خلاصات مركزة تصف ما كان أو ما هو كائن في جانب من الجوانب ولا يتضمن مقدما الحكم على نفس الظاهرة لو توفرت فيها نفس الشروط مستقبلا، وهم لا يقصدون من وراء هذا القانون إلا رصد ظاهرة معينة وتسجيلها ليس غير .. كما أن علم اللغة لا يدرس اللغة للكشف عن الكيفية التى يجب أن يكون عليها الكلام، فعلماء اللغة هنا يبتعدون عن هدفهم الأساسى وهو درس "اللغة" أى وضعها في ذاتها ومن أجل ذاتها،

(١) محمود السعران، "علم اللغة" مقدمة للقارئ العربى، مرجع مذكور، ص ٥٢.
(٢) على محمود مزيد، علم اللغة العام في الفكر العربى، مرجع مذكور، ص ١٩.

والعالم اللغوى ليس من يتقن عددا من اللغات، فقد يجيد الإنسان لغات عديدة، ولا معرفة له بشئ عن اللغة، وذلك لأن إجادة عدد كبير من اللغات ليست غاية علم اللغة، فقد تساعد معرفة عدد من اللغات على الدراسة، ولكن هذه المعرفة وسيلة من وسائل اللغوى وليست غاية من غاياته[١].

ومن ثم فاللغويات هو علم دراسة اللغة، هو علم يغطى عملية بناء اللغة، تطورها، تاريخها، وعملية وصف بناء اللغة جاءت لتحتوى على عدة مناهج كتلك التى نجدها في الرياضيات الحديثة خاصة في ميدان الاتصال ونظريات المعرفة[٢]. وهو في النهاية علم يرشدنا إلى مناهج سليمة لدرس أى ظاهرة لغوية، وهو يهدينا إلى مجموعة من المبادئ والأصول متكاملة مترابطة عن اللغة وحقيقتها[٣]. فاللغة جزء من السلوك الإنسانى لذلك يبحث اللغوى في حقيقتها وأهميتها، ويوضح الفهم العملى لمكانتها في حياة الإنسان.

ولهذا العلم أغراض معينة يهدف إلى تحقيقها، أهمها:

- الوقوف على حقيقة الظواهر اللغوية والعناصر التى تتألف منها والأسس القائمة عليها.

- الوقوف على الوظائف التى تؤديها في مختلف مظاهرها وفى شتى المجالات الإنسانية.

---

(١) محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربى، مرجع مذكور، ص ٨ ـ ١٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠.

(3) Enc Britinica. Volume 14. Year 1966. Linguistics. P. 266 - 267.

- الوقوف على العلاقات التي تربطها بعضها ببعض، وعلى أساليب تطورها واختلافها باختلاف الأمم، ومحاولة كشف القوانين التي تخضع لها[1].

ومعظم قوانين اللغة المتعلقة بكل من الصوت والدلالة تؤكد على أن الظواهر اللغوية لا تسير وفقا لإرادة الأفراد والمجتمعات أو تبعا للأهواء والمصادفات، وإنما تسير وفقا لنواميس لا تقل في ثباتها وصرامتها عن النواميس الخاضعة لها ظواهر الفلك والطبيعة، فقد يكون في استطاعة الفرد أو في استطاعة الجماعة اختراع لفظ أو تركيب، ولكن بمجرد أن يقذف بهذا اللفظ في التداول اللغوى وتتناقله الألسنة، يفلت من إرادة مخترعه ويخضع في تطوره لقوانين ثابتة صارمة لا يستطيع الفرد أو الجماعة إعاقتها أو تغيير سيرها الطبيعي، فمهما وضع الأفراد والجماعات من قوانين لتحديد ألفاظ لغتهم أو ضبط قواعدها أو حمايتها من أى خطأ أو تحريف، فهى لا تلبث أن تحطم هذه الأغلال، وتفلت من القيود وتسير في السبيل الذى تريدها على السير فيه سفن التطور والارتقاء التى ترسمها قوانين اللغة[2].

وعلم اللغة العام يشتمل على عدد من الموضوعات الهامة المتعلقة بدراسة اللغة، أهمها وأكثرها مكانة في الدراسات اللغوية هى:

- علم اللغة الوصفى.
- علم اللغة التاريخى.
- علم اللغة المقارن.

---

(١) على عبد الواحد وافى، علم اللغة، مرجع مذكور، ص ١٢ ـ ١٣.
(٢) المرجع السابق، ص ١٥ ـ ١٦.

وهذه لمحة سريعة عن كل علم من تلك العلوم، وأهميته في دراسة اللغة.

علم اللغة الوصفي:

يهتم هذا العلم بالوصف والتحليل مع استخدام الوسائل التى تتشكل بها اللغة وتمارس بواسطة عدد معين من الناطقين. والدراسة الوصفية تهتم بدراسة اللغة في ذاتها، ولا تهتم بدراسة لغة أخرى غير اللغة التى تصدت لمعالجتها في زمن معين، أن كل لغة لها نصيب كبير من الذيوع والانتشار، وتشتمل على ما يمكن أن يكون موضوعا متكاملا لعلم اللغة العام، لذلك فإن محاولة وصف لغة ما في إطار مصطلحات لغة أخرى بسبب أن الثانية هى أكثر شهرة أو بسبب أن اللغة التى يراد وصفها تظهر كأنها منحدرة منها محاولة فاشلة تماما، فعلم اللغة الوصفى يصف اللغة في حد ذاتها ومعتبرة في ذاتها، وهو الجزء الأعظم من علم اللغة العامة، بل أنه يعتبر الواجهة الأساسية لدراسة اللغة[1].

أن الهدف المبدئى للوصف اللغوى كان بداية لنمو تفاصيل دقيقة لأنماط النطق التى تجمع لتكون نظما تشتمل على أحاديث لمجموعة معينة من الناس في زمن معين، إلى جانب وصف القوانين الخاصة لتنظيم الأصوات ومعانى لغتهم[2].

واللغوى الذى يهتم باعطاء وصف دقيق للغة يواجه عملا ما يتمثل في ضبط الاختلاف في سلوك الحديث من متحدث لأخر ومن وقت إلى أخر، لأننا دائما لا نعبر عن الأشياء بنفس الطريقة فعندما نتحدث إلى

---

(١) على محمود مزيد، علم اللغة العام في الفكر العربى، مرجع مذكور، ص ٢٤.

(2) Haviland, W., "Cultural Anthropology", U. of Termont, Inc., New York, Chicago, 1976, P. 312.

صديق حميم مثلا نستخدم اللغة بطريقة مختلفة عن تلك التى نستخدمها عندما نتحدث إلى شخص غريب، والجماعات التى تتعرض إلى تغير في ظروف مجتمعهم يبدو منهم اختلافا ملحوظا في حديثهم، وذلك في فترة زمنية قصيرة نسبيا، أو بمعنى آخر يتحدثون بطريقة مختلفة عن الطريقة السابقة التى اعتادوا عليها(١) وديناميات اللغة تحتم علينا أن ندرسها كما تحدث، ويستطيع اللغوى أن ينتج عينة مناسبة تساعده على وصف التخصصات الأساسية للغة المراد وصفها، والتى تعتبر دقيقة لتمده بدستور أو قاعدة يمكن اعتبارها مقياسا يعمم(٢).

وتحتاج عملية وصف اللغة إلى دقة وانتباه لثلاثة أوجه تحليلية منفصلة من بناء اللغة وهى:

- علم الأصوات الملفوظة.
- قواعد النحو.
- تفسير الكلمات.

وبهذه الجوانب الثلاثة تكتمل عملية وصف اللغة في مجتمع ما.

علم اللغة التاريخى:

علم اللغة التاريخى عبارة عن دراسة التطورات التى حدثت للغة عبر القرون التى تغيرت فيها من وقت لآخر، وهذه التطورات كانت نتائج لهذه التغيرات سواء كانت هذه التغيرات من داخل اللغة أو من خارجها، هذا النوع من الدراسة قد عولج في مصطلحات عامة وتمركز في أماكن خاصة للغة مثل اللغة الانجليزية التى اشتقت من الانجليزية القديمة وظلت إلى

(1) Ibid., P. 314.
(2) Ibid., P. 315.

الوقت الحاضر، وقد أصبح ذلك بالفعل أساسا لدراسة وصفية لفترتين أو أكثر من مسار اللغة المتطورة، وإذا وجد من يزعم أنه لا تغيرات في اللغة، فهو زعم بلا دليل لأن التغيرات توجد طالما هناك لغة حية تنتقل بين الأفراد على مر السنين[١].

وعملية وصف اللغة كما عرفنا تعتمد على وصف الكلمة على أساس موقعها وانتماءها إلى اللغة الحديثة وليس إلى تاريخها، وليس معنى ذلك أن المدخل التاريخي يتنافى مع المدخل الوصفي، إلا أن كل واحد منهم ينظر إليه على أساس أنه عامل داخلي مستقل، فحتى بالنسبة للغة الحديثة فهي في تغير مستمر وهذا التغير يعتمد على مبادئ يمكن فقط أن تؤسس على أسس تاريخية. كما أن كل من المدخل التاريخي والوصفي له دوره المميز بالنسبة للانثربولوجي، فالمدخل التاريخي يهتم بالتوقيت أي تحديد تاريخ تداخل الجماعات مثلا أو تحديد تاريخ تأسيس تغير جديد في ثقافة جماعة ما، أما الوصف اللغوي فهو يحدد مثلا متى انتشرت لغة جماعة معينة إلى جماعات أخرى، كما أنه يعطي للانثربولوجي إطار على أساسه يمكن أن يفسر ويفهم كل طرق ووسائل التحليل والوصف، إلى جانب القدرة على العمل والقدرة على التعامل مع كل أنواع لغات الجماعات[٢].

علم اللغة المقارن:

علم اللغة المقارن يقوم اللغوي من خلاله بالمقارنة في عدة نواح، فمثلا:

---

(١) على محمود مزيد، مرجع مذكور، ص ٢٥.

(2) Op. Cit., Haviland, W. "Anthropplogy". P. 616.

- يقارن بين عدد من النظريات من أجل استنتاج القرابات التاريخية للغات الخاصة.
- يقارن بين مجموعة أشكال وصور ليوضح من خلالها مدى التشابه بين اللغات المختلفة بدون أى اعتبارات تاريخية(١).

ويمكننا مقارنة وتصنيف اللغة على أساس ثلاثة أنواع مختلفة التشابه:

- التكوين الأصلى ونتائج اشتقاقه من اللغة المشتركة.
- الانتشار ونتائج التحول من لغة إلى أخرى.
- الناتج من اللغة العمومية.

وهذه المقارنة تفيد دارس الانثربولوجيا كثيرا، حيث أنها تمدنا بدلائل حول العلاقات التاريخية بين الثقافات، ولو تعمقنا قليلا لوجدنا أن عقد تلك المقارنات تساعدنا على فهم عمليات تغير اللغة، بل تسهم إسهاما جادا في الفهم الكامل لعمليات التغير في أوجه أخرى لثقافات أخرى(٢). وعلى الرغم من أن السجلات المدونة توفر لنا معظم الشواهد المباشرة المتعلقة بالتغير اللغوى، فإن مثل تلك السجلات غير متاحة بالنسبة لعدد كبير من اللغات، واللغات غير المسجلة تستلزم دراستها دراسة ميدانية حتى يمكن الوقوف على أوجه التغير فيها. ويقوم علماء اللغة باستخدام ذلك المنهج المقارن عن طريق تقسيمهم للغات العالم إلى مجموعات أو أسر متفرقة، وكلما درس العالم اللغوى لغات أكثر وقارن بعضها ببعض، فإن

---

(١) على محمود مزيد، مرجع مذكور، ص ٢٧.

(2) Hammond & Amacmillian. "An Introduction to Culture and Social Anthropology", 1971, New York, P. 412.

عدد المجموعات اللغوية سوف يقل، وسوف يتضح في النهاية أن للأسر اللغوية كلها أصل مشترك يوحد جميع الألسن(١).

هذه الموضوعات الثلاثة التي عرضناها من أهم الموضوعات في علم اللغة، حيث أن اكتمال هذه الجوانب في ذلك العلم يؤدي إلى دراسة اللغة دراسة علمية دقيقة، والوصول إلى قوانين وقواعد تكون بمثابة قاعدة عامة للغة الإنسانية. ويختص علم اللغة بعدة طرق وأساليب خاصة به في دراسة اللغة، على الرغم من أن هناك بعض الطرق العامة في البحث يشترك فيها مع غيره من البحوث العلمية، ومن هذه الطرق:

١ـ طريقة الملاحظة المباشرة:

يقوم الباحث فيها بملاحظة الظواهر اللغوية في حالاتها العادية الطبيعية، ولا يستعين فيها الباحث بغير حواسه وقواه العقلية وهناك الملاحظة الصوتية وهى ما يتعلق بالصوت، وهناك الملاحظة الدلالية وهى ما يتعلق بالدلالة، وهناك ملاحظة اللغات الحية التي تتم بالرجوع إلى ما وصل إلينا عنها في المؤلفات والوثائق والآثار، وملاحظة اللغات الحية التي تتم عن طريق دراستها ميدانيا .. وتنقسم الملاحظة كذلك باعتبار تعلقها بالشخص إلى:

ملاحظة ذاتية Subjective وهى أن يلاحظ الباحث ما يصدر عنه هو من ظواهر لغوية وبدون ملاحظته ويحللها ليصل على ضونها إلى

(١) هارى هوجر، رالف بيلز، "مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة"، مترجم، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر (القاهرة نيويورك) ١٩٧٧، ص ٦٥٥.

تحقيق ما يرمى إليه، أو أن يكلف شخصا آخر ليلاحظ ما يصدر عنه ويطلب إليه أن يصفها له، وبدون هذا الوصف ويحلله ويوازنه بملاحظات أخرى.

ملاحظة خارجية Objective وهى ملاحظة الباحث لما يصدر من شخص آخر من ظواهر لغوية بدون أن يكون لهذا الشخص الآخر أى دخل في الملاحظة.

وقد تكون هذه الملاحظة سلبية بمعنى أن يترك الملاحظ على حالته الطبيعية، وأن تكون إيجابية بمعنى أن يعمل الباحث على توجيه الشخص الذى تجرى عليه الملاحظة وجهة معينة(١).

ومن الطرق التى يختص بها علم اللغة في دراسة اللغة ما يعرف باسم:

٢ـ الطريقة التجريبية:

وتعتمد هذه الطريقة على تغيير الظروف العادية المحيطة بظاهرة لغوية ما أو المحيطة بالشخص الذى تجرى عليه الملاحظة فقد لجأ العلماء اللغويون إلى خلق الظواهر المختلفة وإثارتها وتغيير أوضاعها والظروف المحيطة بها وبالأشخاص الذين تجرى عليهم الملاحظة، ووصلوا بفضل هذه الطريقة إلى كثير من النتائج القيمة بصدد العلاقة بين اللفظ والسمع وأخطاء الاذن ... الخ(٢). ويقوم علم اللغة أيضا بدراسة اللغة عن طريق الأجهزة في تسجيل الأصوات، وتتم هذه الطريقة كالآتى:

---

(١) على عبد الواحد وافى، علم اللغة، مرجع مذكور، ص ٢٥ ـ ٢٦.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٩.

٢- طريقة الأجهزة في دراسة الأصوات:

إن عدم دقة الإذن الإنسانية في تمييز أنواع الصوت أو إدراك نبراته وقياس قوته أدى بعلماء اللغة إلى الاهتداء إلى الآلات تدار خاصة فلا تغادر صغيرة ولا كبيرة فيما يتعلق بالصوت إلا وسجلتها، وانقسمت هذه الطريقة إلى طريقتين:

طريقة التدوين المباشر وترمى إلى الوقوف على الأعضاء التى تشترك في لفظ صوت ما وانفعالات كل عضو منها في أثناء لفظه عن طريق أجهزة تترك فيها الأعضاء، وهذه الأجهزة كثيرا جدا منها مثلا ما يعرف باسم "السقف الصناعى" وهو عبارة عن آلة على شكل سقف الحلق تركب في الفم وتكون لاصقة بسقف الحلق ويطلب من الشخص النطق بحروف معينة، وعندما ينطق يلتصق لسانه بسقف الحلق، فيترك أثرا في المادة الجيرية، فيتبين للباحث فيه المكان الذى يلتقى فيه اللسان بسقف الحلق في أثناء النطق بهذه الحروف.

والطريقة الثانية في تسجيل الأصوات هى ما تعرف باسم طريقة العلامات والتي بفضلها نقف على طبيعة الصوت، ويتم ذلك عن طريق أجهزة تمس خواص الصوت وتسجلها بعلامات وخطوط دقيقة، ومن طريقة التأمل في هذه الخطوط يتم لنا التعرف على مختلف الخواص المميزة للصوت ودرجة كل منها، وكل جهاز من هذه الأجهزة يشتمل على ثلاثة أجزاء:

- الكاشف ويوضع على العضو المراد دراسته.
- المدون وهو على شكل قلم يتحرك مع تحرك العضو.

- السجل وهى اسطوانة تدور حول محورها يخط عليها المدون خطوطه[1].

وهناك طريقة رابعة لدراسة اللغة في تطورها، وهى ما يطلق عليها اسم:

٤ـ طريقة قياس الغابر على الحاضر:

وتعنى هذه الطريقة محاولة الوقوف على أسباب مظهر من مظاهر التطور في لغة قديمة فيبحثون عن تطور شبيه له في اللغات الحديثة، ويدرسون أسبابه ثم ينظرون إلى أى مدى يمكن أن تكون أسباب التطور القديم شبيهة بهذه الأسباب[2].

وهناك طريقة أخيرة هى طريقة الموازنة بين الظواهر اللغوية في طائفة من اللغات، وتسمى هذه الطريقة باسم:

٥ـ طريقة الموازنة:

وتستهدف الكشف عما بين اللغات من خواص مشتركة، وللوقوف على وجوه الاتفاق والخلاف في عواملها ونتائجها وللوصول من وراء هذا كله إلى كشف القوانين العامة الخاضعة لها في مختلف مظاهرها[3].

كل هذه مناهج وأساليب هدفها الأول والأخير هو دراسة اللغة دراسة علمية دقيقة، ولكننا نقول هنا أن دراسة اللغة دراسة موضوعية لن يتسنى إلا من خلال دراستها في الميدان، فحقل الدارس اللغوى هو دراسة اللغة من جميع نواحيها، فيجب أن يدرسها كما ينطقها أعضاؤها، أن يدرس العلاقات بينها وبين بقية اللغات، وبين اللغة والحياة، وأن يحاول الوقوف

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٧ ـ ٢٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٠.
(٣) المرجع السابق، ص ٣٣ ـ ٣٤.

على ما بينها وبين الثقافة من تأثير متبادل حيث أن أى لغة ما هى إلا تعبير عن ثقافة ما، فاللغات ليست تجميع لمواد أو رموز يلتصنف بعضها ببعض على حد قول الأستاذ روبنز Robins أستاذ علم اللغة في جامعة لندن، فكل جماعة ناطقة بلغة ما تعيش في عالم يختلف نوعا من عالم الجماعات الأخرى، وتفهم هذه الفروق بجلاء في نواحى من ثقافتهم وتبرز في جوانب من لغاتهم ... لذلك معرفة الباحث اللغوى لثقافة الجماعة التى يدرس لغتها تساعده كثيرا في وصف اللغة بطريقة دقيقة، وتساعده في أن يقدم عرضا وصفيا مفهوما أكثر عن عمل اللغة داخل الجماعة باعتبارها نظاما دقيقا مرتبطا بالرموز (١).

ونتساءل هنا كيف يتسنى للباحث اللغوى الانثربولوجى دراسة اللغة بهذا المفهوم؟ وكيف تصل دراسته إلى مرتبة الدراسة العلمية الدقيقة؟

كيف يدرس الباحث الانثربولوجى اللغة؟

أن أهم خصية من خصائص البحث الانثربولوجى هى دراسة الثقافة في الميدان، فالدراسة الميدانية هى عماد الدراسات الانثربولوجية، والباحث الانثربولوجى حينما يبدأ في دراسة لغة ما فإنه يبدأ في اتباع الأسلوب الميدانى في دراسة تلك اللغة، حيث أن اللغة ما هى إلا جزء من ثقافة أى مجتمع إنسانى.

والباحث اللغوى الانثربولوجى ينبغى في دراسته أن يبتعد عن البحث في البناء الشكلى للغة في المستويات الصوتية والنحوية من غير أن ينظر إلى ثقافة الناطقين بها، فإذا رغب أن يكون وصفه متضمنا المستوى الدلالى فعليه أن يستعين ببعض المعلومات الثقافية عن الجماعة التى يدرس

---

(١) على محمود مزيد، علم اللغة العام في الفكر العربى، مرجع مذكور، ص ١٢٠.

لغتها، وعلى الأخص إذا أراد أن تكون تفسيراته لمعنى الكلمات أكثر وضوحا، ولا يحصر نفسه في وضع قائمة للألفاظ التى تنقل ترجمة قريبة لمعنى الكلمة[1].

إن ضرورة نزول الباحث إلى الميدان قد تأتى أيضا بسبب فقدان المواد المكتوبة عن بعض اللغات المختلفة، وخاصة اللغات البدائية، لذلك يجب أن يحصل على مادته من الرواة اللغويين مباشرة، ويتم ذلك من خلال زيارتهم في مواطنهم الخاصة، حيث أن المادة الأولية للغة هى التعابير المنطوقة، فإن الراوى اللغوى أو الراوية اللغوية Informant شخص مألوف وضرورى لدراسة أى لغة حية .. والراوى اللغوى لا يعتبر مدرسا ولا لغويا، وإنما هو ببساطة متكلم وطنى للغة يمكنه مساعدة المسجل اللغوى في عمله، والباحث هنا تظهر براعته في مدى نجاحه في مباشرة الرواة وكسب ثقتهم حتى يستطيع أن يتكلم الراوى بصورة طبيعية حسب قدرته واقتناعه وثقته في الباحث الذى أمامه، ويبدأ اللغوى في أخذ صيغ كلمات مفردة على أنها مواد معجمية، وكلمات أخرى بغرض وصفها الصوتى وعمل قوائم وتصريفات لأشكالها اللغوية.

ونجد الراوى في هذه الحالة أيضا يسرد الأقاصيص، الحكايات الشخصية، ومجموعة من نشاطاته الخاصة .. الخ ويكون الراوى عند سرده لكل هذا واقعا في مجال خلفيته عن لغته الخاصة وعلى سجيته، فيستطيع الباحث جمع مادته دون أن يكون هناك أى تأثير خارجي يؤثر على دقة المادة وصحتها، وبعد ذلك يتجه إلى معمله ليحلل مادته تحليلا علميا من الناحية الصوتية والنحوية، ولا شك أن نجاحه في جمع مادته من الراوى

(١) المرجع السابق، ص ١٢٤.

ومن داخل البيئة يعتبر جزءا هاما لكل فحص خاص باللغات الحية، وبالنسبة للعمل في لغات لها نظام كتابة وأدب مسجل وعراقة دراسية ينبغي أن يلحق بعمله في كل مجال مادة محققة من هذه المنابع ومن عمل الدارسين السابقين[١]. وعلينا أن نذكر هنا أن التعامل مع راو يؤدى عمله وسط جماعته وقومه أفضل بكثير من العمل مع راو منعزل في بيته، حيث يوجد اختلافات شخصية كثيرة في اللغة وفى أى لهجة من لهجاتها، ومن الممكن أن يسير وصف لغوى بعد التفكير أو بالضرورة على متكلم ينفرد يقوم مقام راو، لكن إذا كان هناك فرصة لوجود أكثر من راو واحد، فإننا نستطيع أن نوازن بين خصائص أحد المتكلمين وبين غيره من المستويات اللغوية المختلفة، ويمكن أيضا أن تبرز ظواهر معينة كأبنية وأنماط تنغيمية واختلافات أسلوبية عند المحادثة وفى استعمال اللغة في أوضاعها العادية، ومن الممكن أن تخفى هذه الظواهر على الجماعة التى ينتمى إليها الراوى، فتحليل وظائف دلالية أو معانى كلمات مما يدخل في ثقافة المتكلمين يجب تيسيرها بمساعدة شخص من البيئة الفعلية حتى يمكن استخلاص قرينة السياق منها[٢].

ومن هنا جاءت نظرية "سياق الحال Context of Situation" وهى من أهم النظريات في البحث اللغوى، لأنها تمثل الآن ركنا هاما من أركان الدرس اللغوى.

فهذه النظرية أولا تنتسب إلى مدرسة لندن اللغوية وبخاصة إلى الأستاذ فيرث، وهى تمثل أساس نظريته في المعنى، ولكنها فقدت أهميتها

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢٤ ـ ١٢٥.
(٢) المرجع السابق، ص ١٢٥.

بعد وفاته سنة ١٩٦٠، وما لبث أن عادت دراسته "المعنى" إلى صلب البحث اللغوى عند العالم تشومسكى وأصحابه بعد ذلك(١).

ثم جاء بعد ذلك العالم الانثربولوجى "برونسلاف مالينوفسكى Malinowski" وقام بإرساء قواعد هذه النظرية، فقد توصل إلى فكرة "سياق الحال" من خلال أبحاثه الحقلية التى قام بها في جزر التروبرياند عام ١٩١٤، قدم من خلال دراسته هذه شرحا وافيا لمشكلة المعنى في اللغات البدائية(٢).

وكان مالينوفسكى قد قام بدراسة حقلية على بعض القبائل الميلانيزية، جمع من خلالها عددا كبيرا من النصوص تشمل سيفا سحرية وفنونا شعبية، وغير ذلك من فنون الكلام ثم حاول أن يترجم هذه النصوص إلى اللغة الانجليزية وأن يكتسب إلى ذلك ـ نحوا لهذه اللغة ومعجما لها، ولكنه واجه صعوبات عديدة ووجد أن الترجمة للكلمة لا تصلح لشئ، فالمهم أن يفهم الفكرة من وراء تلك الكلمة التى يترجمها، فقد وجد أن كثير من الكلمات تشير إلى النظام الاجتماعى الوطنى، وإلى التعبيرات التى تعبر عن معتقدات هذه القبائل، وعن عاداتها واحتفالاتها، وكل ذلك ليس موجودا في الانجليزية ولا في أية لغة أوربية أخرى، وترجمة هذه الكلمات والتعبيرات لا يقتضى تقديم نظائرها المتخيلة لأن نظائرها الحقيقية غير موجودة، وإنما

---

(1) Firth. J. R.. Selected Papers. Edited by Palmer Longmans. 1968. P. 139.

(٢) انظر:
Malinowski. "The Problem of Meaning in Primitive Language" Supplement 1 in Ogden and Richards". The Meaning of Meaning. London 10 Edition. 1949. pp. 296 – 336.

يقتضى شرح مغانيها عن طريق وصف دقيق للثقافة والتقاليد لمجتمعات هذه القبائل[1].

ومن هنا ظهرت أهمية فهم الدارس اللغوى لثقافة المجتمع الذى يدرس لغته، حتى تكون لديه خلفية واسعة لما يجمعه من كلمات ومصطلحات تحمل معانى ضمنية كثيرة، وتعبر عن فكرة وتلعب دورا أساسيا في حياة من يتكلم بها.

ويقول مالينوفسكى أنه على الرغم من بساطة الجمل في اللغات البدائية التى درستها، إلا أن هذه البساطة تخفى قدرا كبيرا من التعبير لا يمكن الوصول إليه إلا بالموقف أو السياق، وأن نعرف كيف توضع الكلمة، وموضعها من ثقافة المجتمع، ويؤكد مالينوفسكى على أنك إذا ذهبت إلى هذه القبائل ومعك شارح ممتاز يشرح لك كل كلمة تسمعها، فإنك لن تفهم ما يدور أمامك من حديث[2].

وقد انتهى مالينوفسكى إلى عدة نتائج أهمها:

إن اللغة هى نمط من النشاط وجزء من السلوك فضلا عن أنها لم تعد عملية توصيل صوتى فقط للأفكار، وهذا جانب من جوانبها، ولا يصلح هذا التعريف إلا في قاعات الدرس ومناظرات المثقفين.

كذلك فإن النطوق اللغوية لا تنطق، ولا تفهم في حد ذاتها ولكنها تفهم في "سياق الحال". هذا السياق الذى يضم كل ما هو شخصى وثقافى وتاريخى، بل يفرض معرفة الوضع الفيزيقى الذى تم فيه الكلام بين متكلمين وسامعين.

---

(١) عبده الراجحى، اللغة وعلوم المجتمع، مرجع مذكور، ص ٢٢ ـ ٢٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٥.

وأخيراً أوضح أن الألفاظ ليست اختلافات عالمية، فلكل لفظة ما يقابلها في لغة أخرى، ولكن المهم هو أن ندرك أن "اللفظة" تعتمد على "ثقافة" المجتمع والترجمة ممكنة فقط عند فهم السياق الثقافى[1].

هذه هى الخطوط العامة لفكرة "سياق الحال" كما أوضحها مالينوفسكى، والذى أكد من خلالها على أنها أصح سبيل إلى الدرس اللغوى وإلى بحث حياة اللغات .. فهى التى تكشف لنا عن طبيعة اللغة من خلال إطارها الثقافى.

والباحث اللغوى في الميدان عليه أن يعتنى أيضاً بظواهر اللغة المختلفة، وأن يدرك أن النصوص الشفيهة لها أهميتها الكبرى في تحليل ووصف لغات منطوقة، فهى تساعدنا على فهم نواحى الثقافة وتقاليد المتكلمين، وهذه النصوص تكون عبارة عن قصص قديمة، وأغان وقصص خرافية وأساطير وطقوس وسير شخصية .. الخ، وهذه النصوص تعتبر نماذج من المادة التى يستطيع اللغوى بمفرده أن يجمعها ويحللها، فهذه القصص توضح خصائص جمالية للجماعة التى تعبر بها، وتحفظ من جيل إلى جيل في عقول الناس، وهؤلاء يكونون إما ناس عاديين أو ممتازين ثقافياً، وفى كلتا الحالتين فهم أكفاء بارزون في صون ونقل وخلق هذه الاستعمالات في اللغة[2].

وإذا كان هناك مجموعة نشاطات يجب الحصول عليها مع وجود لغتين، لغة الراوى ولغة اللغوى، يجب أن يتم ذلك عن طريق المترجمين وذلك يتطلب درجة عالية من الثقافة اللغوية الرفيعة ومعلومات عميقة عن اللغتين من أجل استخلاص العناصر الثقافية الأساسية التى يمكن تدوينها،

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٦.
(٢) على محمود مزيد، علم اللغة في الفكر العربى، مرجع مذكور، ص ١٢٦.

وقد قام عدد من علماء اللغة بأعمال استعانوا فيها بالمترجمين ولكن ظهر في بعض أعمالهم تحريفاً ونقصاً في بعض الجوانب، ولكننا نستطيع القول بأن علم اللغة الآن يتمتع بالامتياز، فقد أحتاط العلم الجديد بآلات التسجيل للضبط الدقيق، وطرق عديدة ذكرناها من قبل في مناهج البحث كلها تساعد البحث على الالمام بكل جوانب المادة التى يجمعها، كما أن هذه الأجهزة تساعد على تسجيل كلام جماعات ستغنى لغاتهم، أو لهجاتهم يوماً ما، لذلك يجب علينا التسجيل والمحافظة عليه دائما[1].

بعد هذا العرض لكيفية دراسة الباحث اللغوى الانثربولوجى للغة يمكننا القول أن الدراسة الميدانية هى أيضا عماد الدراسات اللغوية، فلا غنى عن دراسة اللغة في حقلها الأساسى، فمن خلال هذه الدراسة يمكن للباحث أن يقف على طبيعة اللغة التى يدرسها، وعلى أوجه اختلافها وتشابهها مع اللغات الأخرى، كما أنه يمكنه معرفة ما تربطها من صلات مع اللغات المختلفة، ويمكنه أن يتفهم الدور الذى تلعبه اللغة في حياة من يتكلم بها، وما هى وظيفتها الأساسية في المجتمع، كما أننا نعتبر الدراسة الميدانية هى المفتاح الأساسى الذى يفتح لنا باب الاطلاع والكشف عن ثقافة المجتمع الذى نقوم بدراسة لغته، وعلى العلاقة والتأثيرات المتبادلة بينها، وهذا هو موضوع الرسالة والبحث الذى أتقدم به، وهو أهم جانب يعنيني في تناولى لموضوع الثقافة وموضوع اللغة.

نأتى بعد ذلك لموضوع النظر في اللغة، حتى وكيف نشأ؟ هل دراسة اللغة ودورها في المجتمع وعلاقتها بالثقافة مبحث قديم؟ أم أن العلماء تناولوه منذ وقت قصير فقط؟

(١) المرجع السابق، ص ١٢٧.

ونجيب على ذلك فنقول أن النظر في اللغة قديم جداً قد يرجع إلى وقت أخذت الجماعات البشرية في الكلام ثم دق نسبياً عن نشأة الكتابة، وقد كانت تصورات البشر عن اللغة آخذة من نوع مجتمعهم وتراثهم الثقافى وخاصة من دينهم، فالملاحظ أن اللغة في البداية بنيت على نصوص مقدسة بقيت حية لا تتغير لفترات طويلة، ثم جاء الأدب اليونانى وأمد الدراسة اللغوية بميدان ضخم، فاليونانيون لم يكن عندهم نصوص مقدسة، بل كانوا مهتمين بدراسة العالم من حولهم بمعانى ومصطلحات لغوية(1). ولمعرفة كيف ومتى بدأت الدراسات اللغوية، وكيف ينظر العلماء قديماً وحديثاً إلى اللغة، ينبغى لنا أن نلقى نظرة سريعة على تاريخ الدراسات اللغوية في العالم.

لمحة عن تاريخ الدراسات اللغوية:

يذكر اللغويون مرارا أن علم اللغة علم أكاديمى وفرع من فروع المعرفة، لذلك فهو علم حديث نسبيا، وترجع علوم كثيرة في نشأتها وتطورها إلى القرن التاسع عشر وما قبله وهذا يجعلها في مكانة ممتازة ويحقق لها مستقبلا مرتقبا، وحاضرا متميزا، وعلم اللغة في شكله الحالى معظمه نتاج هذه القرون وثمرة من ثمرات الدارسين الأوروبيين والأمريكيين والبريطانيين فيما بين ١٩٠٠ إلى ١٩٥٠(٢).

ولكن لا شك أن النظر في اللغة كان قديما، وتناوله العديد من الباحثين والأدباء القدامى، مثال ذلك أن القدماء شغلوا بالبحث في نشوء اللغة، وفى تعدد اللغات واختلافها ونجد شواهد على ذلك في "سفر

(1) Enc. Britinica, Volume 14, "Linguistics" Year 1966. P. 269.

(٢) علي محمود مزيد، علم اللغة العام في الفكر العربى، مرجع مذكور، ص ١٤١.

التكوين" فالإنسان الأول قد اخترع أسماء للحيوان، وقصة بابل في الانجيل تفسر تعدد اللغات. وقد نظر اليونانيين قديماً في أصل "اللغة" من خلال ما رواه هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد أن "أبسماتيك" فرعون مصر أراد أن يعرف أى الأمم أعرق، فعزل طفلين حديثى الولادة وحدهما في حديثة، فلما أخذا في الكلام نطقا بكلمة Bekos وهى الكلمة التى تدل على خبز[1]. وناقش أفلاطون في محاورته الحماة (كرانتيلوس) مسألة العلاقة بين الأشياء والكلمات التى تسميها، أهى علاقة طبيعية وضرورية أم أنها لا تعدو أن تكون ثمرة إصطلاح الجماعات.

وقد قام النحاة اليونانيين بمعالجة كثير من الموضوعات التى تدخل في الدراسات اللغوية اليوم، وأهتموا بلغتهم ولهجاتهم وسلموا بأن بنية لغتهم تجسم الصور العامة للتفكير الإنسانى وربما تجسم الصور العامة للنظام الكونى بأسره، كما قاموا بدراسة الأصوات والنحو والمعنى[2]. وكان الرومان تلامذة لليونانيين في الدراسات اللغوية، وقد كانت روما تشارك في الدراسات اللغوية منذ القرن الثانى قبل الميلاد، وقد عمل الرومان على إنماء اللغة اللاتينية على غرار النحو اليونانى، وقد كان من المهتمين بالدراسات النحوية يوليوس قيصر نفسه، ولكن لم يبلغ الرومان من الدقة في وصف لغتهم ما بلغه اليونانيون في وصف اليونانية، ومن أشهر علمائهم في اللغة "فارو" من القرن الأول قبل الميلاد "وبريسكيان" من القرن السادس بعد الميلاد[3].

---

(١) محمود السعران، علم اللغة، مقدمة للقارئ العربى، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢، ص ٣٤٨.

(٢) على محمود مزيد، علم اللغة العام في الفكر العربى، مرجع مذكور، ص ١٥٠.

(٣) محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربى، مرجع مذكور، ص ٣٥١.

ولقد جاءت بعد ذلك العصور الوسطى، ولم تشهد أوربا أى خطوات أصيلة في الدراسات اللغوية، وكان الأمر السائد هو تعليم اللغة اللاتينية، ثم تجدد إهتمام العلماء في أواخر هذه العصور بدراسة اللغة اليونانية من جديد. وفى ذلك الوقت نشأت في الشرق الدراسات اللغوية خدمة للقرآن الكريم، فعنى "المسلمون" منذ القرن الأول الهجرى بتدقيق الكتابة العربية، وتقييد الكتابة بالشكل صونا لكلام الله عز وجل عن أن يصيبه التحريف، وفى هذا الوقت بدأت المحاولات للكشف عن القواعد التى يسير عليها الكلام العربى، وقد قام "الخليل بن أحمد الفراهيدى" في ذلك الوقت بوصف أصوات اللغة العربية، ثم جاء تلميذه "سيبويه" بوصف أدق لها وأكل واعتبر كتابه هذا أقدم كتاب وصلنا في النحو العربى(١).

هذا ولقد اتسع في عصر النهضة أفق الدراسات اللغوية في أوربا نتيجة لعوامل كثيرة منها الكشوف الجغرافية والحركات الوطنية .. الخ، وبدأ لغويو أوربا في دراسة لغات أخرى غير اللغتين اليونانية واللاتينية، فدرسوا بعض اللغات السامية مثل العبرية والحبشية والعربية، ومن أشهر المستشرقين في هذا العصر الإيطالى "فيسيوس أمبروجيو" (١٤٦٩ – ١٥٤٠)(٢) ثم جاء القرن السادس والسابع عشر حيث شهدا عناية كبرى باللغات الدرافية (لغات جنوب الهند)، ثم تم في نهاية القرن الثامن عشر اكتشاف اللغة "السنسكريتية" على يد "سيروليام جونز" عام ١٧٨٦، وإدراك مدى قرابتها لكل اللغات الأوربية ثم جاءت بعد ذلك أعمال "بانينى Panin" في اللغة السنسكريتية، وقد ظهرت أول ترجمة لعمل هذا العالم الكبير في أوربا في أوائل القرن التاسع عشر، وكان للدراسة الهندية القديمة

---

(١) محمود السعران، المرجع السابق، ص ٣٥٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٥٨.

تأثيرها السامى والعميق على علم اللغة الحديث في أوربا أعظم من تأثير النحاه الأغريق وأتباعهم في العصور الوسطى، إذ أن علماء اللغة الهنود أولوا اهتماما بالغا وأظهروا أستاذية مبدعة في التحليل الصوتى وفى وصف كلامهم(١).

ثم كانت النظرة الحديثة للغة في القرن التاسع عشر، فقد تم اكتشاف لغات عديدة نتيجة غزو الأوربيين لكثير من الشعوب، وظهر بذلك علم اللغة الحديث في صورة "نمو تاريخى مقارن" وقد أدى ذلك إلى الكشف عن الخصائص الأساسية للغات الرئيسية في العالم ومعرفة ما بينها من نسب، مثال ذلك:

قام يعقوب جيرم Jacab Gurm باختبار التشابهات بين اللغات الجرمانية، كما قام العالم August Schleicher بنشر دراسته عن النحو والصرف المقارن في اللغات الهندية الأوربية(٢) كما اعتبر القرن التاسع عشر قرن النزعة التطورية ولذلك كانت لنظرية "داروين" أثر كبير في دراسة التغيرات اللغوية، فقد أجمع عدد من الدارسين الألمان وهم على سبيل المثال: أوجست ليسيكين August Leskien (١٩١٦ ـ ١٨٤٠)، هيرمان بول Hermann Paul (١٩٢١ ـ ١٨٤٦) أن التطور اللغوى يتبع قوانين بغير استثناءات ولكنها حدثت في فترة معينة من الزمن. كما قام العلماء في هذا القرن بالتفرقة بين ما يعرف Philology و Linguistiscs وبينوا أن المقصود من Philology (فقه اللغة) هو دراسة الوثائق المكتوبة وعلم اللغة Linguistiscs فهو الذى يتخذ اللغة موضوعا له. في عام ١٨٦٦

---

(١) على محمود مزيد، علم اللغة العام في الفكر العربى، مرجع مذكور، ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(2) Enc. Britinica, Volume 14., "Linguistics", Year 1966, P. 275.

"أسست الجمعية اللغوية الباريسية التى كان لها دور كبير في الدراسات اللغوية في ذلك الوقت، وقام العالم "ولهلم فون همبولت" الألمانى (١٧٦٧ ـ ١٨٣٥) بالحديث عن اختلافات الكلام الإنساني، واعتبر هذا البحث أول كتاب كبير عن علم اللغة العام[١].

وجاء بعد ذلك القرن العشرون الذى يعتبر سمة من سمات البحث العلمي في ذلك الوقت، كما كان ملئ بالاتجاهات اللغوية العديدة، التى نوجزها فيما يلى:

الاتجاهات اللغوية المعاصرة:

لقد بدأ العلماء في أوائل القرن العشرين التخلص من طغيان نظرية التطور وأخذوا ينظرون إلى اللغة على أنها بنية أو نظام "عناصره المختلفة تعتمد بعضها على بعض" ووجود هذا النظام مهم بالنسبة لفهم كل من التغير اللغوى واللغة من حيث هى لغة، والدور الذى تقوم به اللغة في المجتمع[٢]. وشهد هذا القرن عالماً عملاقاً من أعلام اللغة كان رائد البحث فيها، وهو العالم السويسرى "دى سوسير" فقد نشر له بعد وفاته بثلاث سنوات عام ١٩١٦ الكتاب الشهير "محاضرات في علم اللغة العام" جمعت فيه محاضراته كما سجلها طلابه، وقد جسد "دى سوسير" في كتابه بعض الأفكار والاتجاهات في البحث اللغوى مبلغ النصف الأول من القرن الحالى بطابعها، ولم يبز هذا الكتاب أى كتاب آخر إلا بعد مرور أكثر من أربعين عاماً. وكان سوسير قد أكد في كتابه هذا على أن أفضل طريقة لدراسة اللغة هى أن نحاول وصفها كما هى في فترة زمنية محددة، وأن نصل من هذا

---

(١) محمود السعران، علم اللغة، مقدمة للقارئ العربى، مرجع مذكور، ص ٣٧١.
(٢) نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، مجلة دورية، عالم المعرفة، ١٩٧٨، ص ١٠١.

الوصف إلى القواعد والقوانين العامة التى تحكمها أو نتوصل على الأقل إلى معرفة التركيب الهيكلي لها[١]. كما قام دى سوسير بالتميز بين اللغة من حيث هى "لغة" وبين الكلام، وأكد على أن اللغة ظاهرة اجتماعية وينبغى أن تدرس على هذا الأساس.

وشهد هذا القرن أيضا أعمال اللغوى الشهير "أونويسبرسن" وكان أشهر أعماله كتابه الفريد بعنوان "اللغة Language" الذى اعتبر خطوة كبيرة في سبيل تأريخ اللغة. كما قام اللغويون الأمريكيون ببحوث عديدة في السنوات الأخيرة، وكان من أشهر هؤلاء اللغويين الأمريكيين ليونارد بلومفيلد (١٨٨٧ ـ ١٩٤٩)، وأدوارد سابير (١٨٨٤ ـ ١٩٣٩). وقد كان بلومفيلد ممن أكدوا على أن اللغة عبارة عن مجموعة من العادات كغيرها من العادات السلوكية الأخرى، ومن أشهر من قال بذلك أيضا العالم الشهير سكينر Skinner صاحب كتاب "السلوك اللغوى"[٢].

ويعتبر العالم "أدوارد سابير" Sapir من أشهر علماء اللغة في ذلك الوقت، وكان قد أبرز الصفة الاجتماعية للغة دون أن يهون من أهمية العامل الفردى ... وبدأ العلماء بعد ذلك الابتعاد عن بعض المسائل التى رأوا فيها أنها لا تتفق مع طبيعة العلم وذلك مثل التصنيفات العامة للغات والبحث في نشأة اللغة، وعدم التفكير في إنشاء لغة عالمية فقد رأى العلماء في ذلك ضربا من الرؤى والخيالات[٣]. ثم بدأ علم اللغة بعد ذلك يظهر في صورته الحالية بعد ظهور كتاب يعتبر رد فعل وثورة عنيفة على المناهج والمفاهيم التى كانت سائدة، وهو كتاب "التراكيب النحوية Syntactic

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠٢.
(٢) المرجع السابق، ص ١٠٩.
(٣) محمود السعران، علم اللغة، مقدمة للقارئ العربى، مرجع مذكور، ص ٣٧٨.

Structure" للعالم "نوم تشومسكى Noam Chomsky"، فقد قدم فيه تسومسكى نظريات عن طبيعة اللغة ومناهج دراستها وكيفية اكتساب الطفل لها، ولا زالت هذه النظريات حتى يومنا هذا مدار البحث والجدل لدى معظم علماء اللغة(١). وقال تشومسكى أيضا بنظرية "الخلق والابتكار" وأوضح أنها متوفرة عند من يتكلم لغة معينة وتعتبر هذه النظرية ثورة أيضا على من نادى بأن دارس اللغة طفلا كان أم راشدا يبدأ بتعليم تلك اللغة وذهنه صفحة بيضاء نقش عليها تلك النماذج التى يتعلمها ويختار النماذج التى تناسب المقام، فقد أعترض تشومسكى على كل هذا وأوضح أن الطفل لا يولد وذهنه صفحة بيضاء، بل يولد ولديه قدرة فطرية على تعلم أى لغة من لغات العالم، وقال بأن القدرة الفطرية للوليد تتألف من معرفة مسبقة لتلك القواعد العامة التى تقوم على أساسها جميع لغات العالم، وأن الطفل لا يكتسب اللغة عن طريق السماع والمحاكاة والحفظ فحسب، بل أنه يحاول أن يضع ما يسمعه من كلام اللغة التى يعيش بين أهلها في القوالب العامة لجميع اللغات التى ولد بها، فالطفل لا يكون عنصرا سلبيا بل عنصرا إيجابيا جدا يستعمل محاكمات عقلية في أثناء اكتسابه للغة(٢). وهكذا يكون تشومسكى قد عمل على أحياء نظرية القواعد الواحدة للغات، وهى النظرية التى نادى بها الأغريق القدماء من قبل، ثم دى سوسير من بعدهم، إلا أن تشومسكى لم يترك هذه المسألة مجرد نظرية هائمة، بل حاول أن يتوصل جاهدا إلى تلك القواعد اللغوية التى تحكم اللغات جميعا(٣).

---

(١) نايف خرما، مرجع مذكور، ص ١١٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١١٩ ـ ١٢٠.

(٣) المرجع السابق، ص ١٢٠.

ونستطيع القول في النهاية أن علم اللغة أصبح الآن بعيدا عن السمة التاريخية، وبدأ العلماء في دراسة اللغة دراسة وصفية علمية دقيقة. وبدأ إدراكهم بأهمية اللغة والدور الذى تلعبه في حياتنا يزداد يوما بعد يوم، لذلك عكفوا على دراستها وفهم قوانينها، في محاولات دائمة منهم على فهم وتقديم أفضل الدراسات والنظرية حول اللغة ... التى هى جزء لا يتجزأ من حياتنا.

الخلاصة:

وأخيرا يمكننا أن نوجز ما عرضناه في عدة نقاط:

١- إن مشكلة البحث في أصل اللغة مشكلة شغلت وما زالت تشغل علماء اللغة، ولكن الشئ الذى نستطيع أن نؤكده أن اللغة إنما نشأت من حاجة الإنسان إلى التعاون والتفاهم مع أبناء جنسه، لذلك القول بأن اللغة إنما وضعت واخترعت من فكرة الإنسان وجهوده هى أقرب إلى الأذهان.

٢- إن تعدد اللغات وتفرقها إنما نشأ من اختلاف ثقافات الشعوب التى تتكلم بها، ومحاولة اكتشاف اللغة الأم لكل هذه اللغات ما زالت دراسة لم تصل إلى الدليل العلمى الأكيد.

٣- علم اللغة هو العلم الذى يختص بدراسة اللغة معتبرة في ذاتها وفى حد ذاتها، ويختص هذا العلم بمناهج وأساليب خاصة لدراسة اللغة أهمها الدراسة الميدانية.

٤- الباحث اللغوى الانثربولوجى الذى يهتم بدراسة لغة مجتمع ما، ينبغى أن يدرسها في حقلها أى كما توجد في المجتمع وعلى ألسنة

أصحابها، والأهم من ذلك هو أن يعكف على محاولة الكشف عن ثقافة ذلك المجتمع، فذلك سوف يساعد كثيرا على فهم ومعرفة طبيعة اللغة التى يدرسها وذلك من خلال الإطار الثقافى الذى تدور فيه، وأن محاولة فهم التأثير المتبادل بين اللغة والثقافة سيعطيه في النهاية دراسة علمية وصفية دقيقة عن اللغة التى يقوم بالبحث فيها ... وهذا هو هدفه الأول والأساسى.

٥- فليس هناك أدنى شك في أن الثقافة تلعب دورا كبيرا في حياة اللغة، وأن أى لغة ما هى إلا وسيلة تعبير عن تلك الثقافة، كما أن الثقافة لا تستطيع أن تعبر عن نفسها، وأن تدون مفاهيمها وتسجل محتوياتها من جيل إلى جيل من خلال اللغة .. ولذلك سأحاول في الفصل القادم أن أتعرض للثقافة في المجتمع ومدى تأثيرها في اللغة وتأثير اللغة فيها، وكيف يؤديان وظيفتهما معا، أو كل على حده بشكل ما في المجتمع الذى توجد فيه.

الفصل الثالث

تغير اللغة في المجتمع

- مقدمة.
- تغير اللغات.
- علم اللغة الاجتماعى ودراسته للغة كظاهرة اجتماعية.
- اللغة كعنصر اتصالى ووظيفتها في المجتمع.
- الخلاصة.

مقدمة:

اللغة في كل مجتمع نظام عام يشترك الأفراد في اتباعه ويتخذونه أساساً للتعبير عما يجول في خاطرهم وفى تفاهمهم بعضهم مع بعض، واللغة ليست من الأمور التى يصنعها فرد معين أو أفراد معينون، وإنما تخلقها طبيعة الاجتماع وتنبعث عن الحياة الجمعية، وما تقتضيه هذه الحياة من تعبير عن الخواطر وتبادل الأفكار، كما أن اللغة في أى مجتمع ما هى إلا أداة تعبير عن ثقافة ذلك المجتمع. وكل فرد منا ينشأ فيجد بين يديه نظاماً لغوياً يسير عليه مجتمعه، فيتلقاه عنه تلقيا بطريق التعلم والتقليد كما يتلقى سائر النظم الاجتماعية الأخرى. واللغة من الأمور التى يرى كل فرد فيها مضطراً إلى الخضوع لما ترسمه؛ وكل خروج على نظامها ولو كان عن طريق خطأ أو جهل يلقى من المجتمع مقاومة تكفل له رد الأمور إلى نصابها الصحيح(١). كما أن الفرد يدرك جيداً أن هذه اللغة تعبر عن ثقافة مجتمعه، وليستطيع أن يتلقى تلك الثقافة لابد له أن يتلقى لغتها والتى تكون بمثابة الوسيلة الأساسية لذلك. فكل فرد منا يعبر عن ثقافته ومفاهيمه من خلال اللغة التى يتكلم بها، والتى يقود الفرد بالتحكم فيها من خلال نسقه الثقافى، فهى ملكه وملك مجتمعه، ووظيفتها الأساسية إشباع حاجاته وتيسير أمور حياته ككائن ثقافى وعضو في مجتمع ما .. لذلك فهو يقوم بإضافة ما يريد إليها من مصطلحات وألفاظ تقتضبه عليه الثقافة التى ينتمى إليها، وما يحدث فيها من تغيرات وتطورات.

فاللغة كما عرفنا في الفصول السابقة أحدى مكونات الوجود الثقافى لأى مجتمع، وهى جزء لا يتجزأ من ثقافة أى فرد، بل هى الجزء الهام

---

(١) على عبد الواحد وافى، اللغة والمجتمع، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥١، ص ٢.

الذى يتأثر سريعاً بأى تغير يحدث في الكل التى تنتمى إليه وهو "الثقافة"، فالثقافة تؤثر في اللغة تأثيراً كبيراً، فهى تضيف إليها مصطلحات ومرادفات حتى يمكن للغة المصاحبة لها أن تساير ما يحدث للثقافة من تغير، وأن تكون معبرة تماماً عن تلك الثقافة .. فالتغير اللغوى هو تغير ثقافى بالدرجة الأولى وهذه حقيقة لا مجال فيها لأدنى شك.

وكل فرد منا مثلما يلتزم بثقافة مجتمعه وقيمه السائدة، يلتزم أيضاً بالنظام اللغوى السائد، وإذا حاول أحد منا الخروج على ذلك النظام، أصبح عمله هذا نوعاً من العبث العقيم الذى سيؤدى به إلى كثير من السخرية والازدراء من جانب بقية أفراد مجتمعه.

والإنسان مثلما يصنع ثقافته، فهو واضع لغته أيضاً، ويضعها من خلال إطاره الثقافى الذى يعيش فيه، وفى ذلك قال "جان بيرو":

"من الثابت أن بنية أية لغة من اللغات ذات علاقة بعقلية وثقافة المتكلمين بها، وأيضاً بنظمهم وحضارتهم المادية".

فلا شك أن التغيرات التى قد تحدث في حضارة مجتمع ما، يعقبها بالضرورة تغيراً في مصطلحات وبنية لغته حتى يمكنها أن تساير وتفى بحاجات من يتكلمون بها، فأى لغة من اللغات الحية هى نظام معين من النظم الاجتماعية التى تندرج تحت نسق ثقافى معين، وهى بهذا الاعتبار تكون خاضعة لتطور مشروط بتطور وتغير الجماعة التى تتكلمها.

فالمثل العامى يقول:

"إن الذى لا يتغير يموت"(١).

(١) محمود السعران، اللغة والمجتمع رأى ومنهج، المطبعة الأهلية، ١٩٥٨، بنغازى، ص ١١.

فالتغير والتبدل من سنن السكون المقررة، واللغات خاضعة فيما تخضع لهذه السنن، فهى إذا عرضة للتغير على مرور الزمن واختلاف الأحوال.

ومن هنا فإن موضوع تغير اللغات من الموضوعات الهامة التى يجب أن يعيرها الباحث كثيراً من اهتمامه، ولذلك سأخصص لها جانباً كبيراً من هذا الفصل، ثم أقوم بإيضاح كيف ندرس هذا التغير اللغوى في المجتمع، والذى يعتبر تغير ثقافى واجتماعى في الدرجة الأولى كما قلنا، وأتناول بعد ذلك وظيفة اللغة في المجتمع، فاللغة تتغير بتغير الثقافات حتى يمكن أن تعبر عن تلك الثقافة المنتمية إليها، ومن ثم يتسنى لها القيام بوظيفتها في المجتمع على أكمل وجه، وهى بلا شك عنصر اتصالى هام والوسيلة الأساسية للتعبير عن كل فرد يتكلم بها.

تغير اللغات:

إن التغير الذى يحدث في اللغة يكون دائماً بسبب تغير ثقافى أو تطور اجتماعى، فعندما تمر كلمة من لغة عامة لمجتمع ما إلى مجموعة محددة فمعناها يميل إلى الانكماش، والعكس تماماً يحدث عندما تنتقل من مجموعة محددة إلى لغة عامة .. وتعاقب الأجيال يؤدى إلى التغير أيضاً، ولكنه ليس العامل الوحيد مع كونها أداة هامة في تطور اللغة، وقد كانت الصيغ القديمة والجديدة للكلمات تستخدم جنباً إلى جنب، ومع مرور الزمان أصبحت الكلمات القديمة تنحدر وتختفى من تلقاء نفسها، حتى لنجد أن الشباب لا يسمع بكلمات كثيرة من قبل[1].

---

(1) Enc. Britinica, "Linguistics", Volume 14, Year 1966, p.

والتغير اللغوى نجده شيئاً منتظراً في أى لغة حية، فقد تستعير اللغات من بعضها البعض، وقد تتغير اللغة لتستطيع أن تفى بحاجات من يتكلمون بها، فعندما تتغير سلوكيات وأساليب حياة المجتمع، لابد من تغير اللغة حتى يمكنها التعبير عن تلك الأساليب المتطورة.

وهناك لغات تبقى ساكنة حتى يستغنى عنها أفرادها، وشيئاً فشيئاً تزول حتى تصبح لغة ميتة، وأشهر مثال على موت اللغات هو:

"اللغة القبطية، واللغة البربرية"

فقد توقف الناس عن استعمالها وحلت محل كل منها لغة العرب القائمة.

ويحدث بين اللغات ما يحدث بين أفراد الكائنات الحية من احتكاك وصراع وتنازع على البقاء وسعى وراء الغلب والسيطرة، وتختلف نتائج هذا الصراع باختلاف الأحوال، والذى يعنينا من ذلك أن هذا الصراع يؤدى إلى تغير اللغة واختلاف أحوالها، وتعدد ألفاظها وتحوير مرادفاتها، فقد يحدث أن تنزح عناصر أجنبية إلى بلد له لغته الخاصة على أثر فتح أو استعمار أو حرب أو هجرة مثلاً، فيؤدى ذلك إلى نزوح عنصر أجنبى ينطق بلغة غير لغة أهل البلد، فيؤدى ذلك إلى اشتباك اللغتان في صراع ينتهى إلى إحدى نتيجتين، أحياناً تنتصر لغة منهما على الأخرى فتصبح لغة السكان قديمهم وحديثهم، وأحياناً لا تقوى واحدة منهما على الأخرى فيعيشان جنباً إلى جنب[1] .. ومن أمثلة تغلب لغة ما على أخرى ما حدث للانجليز السكسونيين حينما نزحوا من أواسط أوربا إلى انجلترا ولم تلبث لغتهم أن تغلبت على اللغات السلفية التى كان يتكلم بها السكان الأصليين ..

---

(١) على عبد الواحد وافى، علم اللغة، مطبعة الاعتماد بمصر، ١٩٤٤، ص ١٣٩ - ١٤٠.

والمهم في ذلك أن اللغة التى يتم لها الغلب لا تخرج سليمة من هذا الصراع، بل أن طول احتكاكها باللغة الأخرى يجعلها تتأثر بها في كثير من مظاهرها وبخاصة في مفرداتها، فنرى أن الألفاظ الأصلية للغة الغالبة ينالها كثير من التحريف في ألسنة المحدثين من الناطقين بها (المغلوبين لغوياً) فتبعد بذلك في أصواتها ودلالاتها وأساليب نطقها عن صورتها الأولى ولهذا يحدث التغير فيها(١).

وقد لا تستطيع لغة ما التغلب على الأخرى، فيظلان جنبا إلى جنب، وذلك مثل اللغة اللاتينية لم تقو على اللغة الاغريقية، مع أن الأولى كانت لغة الشعب الغالب، ولكن الأغريق مع خضوعهم للرومان كانوا أعرق منهم حضارة وأوسع ثقافة وأرقى لغة لذلك لم يستطيعوا التغلب عليهم، ولكن عدم تغلب أحدى اللغتين لا يحول دون تأثر كل منهما بالأخرى، فقد تأثرت اللاتينية بالأغريقية في أساليبها وآدابها واقتبست منها طائفة كبيرة من مفرداتها(٢).

كما أن تجاور شعبين مختلفى اللغة من العوامل أيضا التى تغير اللغة، فهذا التجاور يؤدى إلى تغير إحدى اللغتان عن طريق الاحتكاك الذى يحدث بينهم، فهذا الاحتكاك إما أن يؤدى إلى غلبة أحدى اللغتين، أو أن يعيشان جنبا إلى جنب، وتتغلب لغة ما على الأخرى إذا كانت نسبة النمو في أحد الشعبين كبيرة لدرجة يتكاثف فيها ساكنوه وتضيق مساحته بهم ذرعا، فيشتد ضغطه على حدود الشعب المجاور له وتكثر تبعا لذلك عوامل الاحتكاك والتنازع بين اللغتين وفى هذه الحالة تتغلب لغة الشعب الكثيف على اللغة الأخرى وذلك مثل ما حدث للغة الألمانية، فقد طغت على مساحة

(١) المرجع السابق، ص ١٤١.
(٢) المرجع السابق، ص ١٤٤.

واسعة من المناطق المجاورة لألمانيا بأوربا الوسطى (سويسرا، بولونيا، النمسا) فغيرت من لغاتها .. وقد تعيشان اللغتان جنباً إلى جنب دون أن يتأثر كل منهما بالآخر، وذلك على نحو ما نرى في جوار اللغة الفارسية والعراقية والتركية، ولكن قد يؤدى هذا الجوار إلى تغيرات طفيفة وذلك مثل ما حدث للانجليزية الحديثة في انجلترا والفرنسية الحديثة في فرنسا، فتجاور كل من هاتين اللغتين أدى إلى اقتراض المفردات من بعضهما البعض ... ونستطيع القول أيضاً أن الحروب الطويلة الأمد تؤدى إلى احتكاك طويل ينجم عنه نقل آثار اللغات بعضها إلى بعض.

مثال ذلك:

الحروب الصليبية نقلت كثير من اللغات الأوربية وبخاصة الفرنسية كثير من مفردات اللغة العربية ونقلت كذلك إلى بعض لهجات الأمم العربية بعض كلمات أوربية(١).

كما أن توثيق العلاقات التجارية والثقافية بين شعبين مختلفى اللغة، يؤدى إلى نقل كل لغة منهما إلى الأخرى أسمائها ومصطلحاتها الخاصة بها، فيؤدى ذلك إلى نوع من التغير في كلتا اللغتين، فمثلاً لغة الكتابة بمصر في العصر الحاضر سواء في ذلك لغة العلوم ولغة الآداب ولغة الصحافة انتقل إليها عن هذا الطريق كثير من آثار اللغات الأوربية وبخاصة الانجليزية والفرنسية، فأضاف ذلك إليها قدر من التغير أبعدها عن اللغة العربية الأصلية(٢).

---

(١) المرجع السابق، ص ١٥٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٢.

وتعتبر ظاهرة الاقتراض من الأسباب الهامة في تغير أى لغة من اللغات، فلتلك الظاهرة نواح متعددة وآثار متشعبة، فعملية اقتراض الألفاظ لا تكون اقتراضاً بمعناه الدقيق وذلك لأن اللغة المستعيرة لا تحرم اللغة المستعار منها تلك الألفاظ المستعارة، بل ينتفع بكلا اللغتين وليست اللغة المستعيرة مطالبة برد ما اقترضته من ألفاظ اللغات الأخرى. واقتراض الألفاظ عمل يقوم به الأفراد كما تقوم به الجماعات، وفى العصور الحديثة قد تقوم به أيضاً الهيئات العلمية كالمجامع اللغوية وأمثالها، على أن عمل الفرد هنا لا يظل عملاً منعزلاً عن الناس، بل رغم أنه يبدأ كعمل فردى إلا أنه لا يلبث في غالب الأحيان أن يقلده مجموعة من الأفراد، ثم قد يصبح ملكاً للجماعة كلها، ويكون حينئذ عنصر من عناصر اللغة المستعيرة[1].

واقتراض الألفاظ في أغلب حالاته وليد الحاجة حيناً، أو الاعجاب حيناً آخر، وينظر المرء عادة إلى لغته على أنها شئ ملك له، ومن ثم من حقه أن يزيد عليها ما يشاء من ألفاظ اللغات الأخرى، ولذا نلاحظ أن المرء وهو يتكلم لغة أهله وبيئته قد يدخل في كلامه بعض الألفاظ الأجنبية، في حين أثناء كلامه بلغة أجنبية لا يسمح لنفسه أبداً باقتباس شئ من ألفاظ لغته.. واقتراض الجماعة للألفاظ الأجنبية يتم حين يشعر مجموعة من الأفراد بحاجتهم إلى تلك الألفاظ أو برغبتهم في تقليدها، فيقوم بهذا كل فرد وحده مستقلاً عن غيره ودون أى اتصال بينهم أو اتفاق، وشيئاً فشيئاً يدخل هذا المصطلح أو اللفظ في لغة الأفراد حتى يصبح شئ مألوف على الألسنة، فالمرء حين يقترض لفظاً أجنبياً ويستعمله في كلامه أو في كتاباته يحاول عادة أن يشكل ذلك اللفظ حتى يصبح على نسج لغته، أو قريب الشبه

---

(١) إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٦، مكتبة الانجلو المصرية، ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

بألفاظها سواء من ناحية الأصوات أو من ناحية الصيغ، ويساعد مثل هذه الصيغ على شيوع اللفظ الأجنبي بين أفراد البيئة بسهولة ويتناولونه حينئذ وينطقون به ولذا فالكثرة الغالبة من الألفاظ المستعارة في كل اللغات تتخذ شكلا مألوفا في اللغة المستعيرة(١).

واللغات الحديثة تتباين بعض الشئ في استعدادها لقبول الألفاظ الأجنبية، منها لغات يتحرج أهلها في قبول كل أجنبى على الكلمات، وأخرى ترحب بذلك الفيض الزاخر من الألفاظ المستعارة، والألفاظ المستعارة غالبا ما تكون من بلاد اختصت بيئة معينة من البيئات مثلا، أو بتجارة معينة، فأصبح رصيدها من الألفاظ في هذا الشأن كبيرا، مثال ذلك:

- كلمة Tea أخذت من اللغة الصينية حينما شاع شرب الشاى في أوربا.
- كلمة Wine اقتبستها كل اللغات الأوربية من اللاتينية.
- كلمة "شمبانزى" اقتبسوها من لغات وسط أفريقيا .. وهكذا.

وعملية الاقتراض هذه تؤدى إلى تغير العديد من مصطلحات اللغة، كما قد تؤدى إلى تطورها، فاستعارة مصطلحات حديثة من حضارات وثقافات حديثة يؤدى إلى تطور لغة من لازالوا في طريقهم للحضارات الحديثة.

كما أن تغير النسق الثقافى داخل المجتمع نفسه يؤدى بلا شك إلى تطور اللغة نفسها، فالثقافة قد تتغير في مجتمع ما بسبب قيام ثورة فكرية مثلا، أو تقدم تكنولوجى أدى إلى النهوض بالمجتمع نهضة كبيرة، كل هذه الحركات تؤدى دائما إلى تفجير حلقات من التغيرات الاجتماعية والثقافية التى بدورها تؤدى إلى حركة تجديد في شتى ميادين الثقافة الأخرى كاللغة

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠٥.

والفنون وانساق المعتقدات الدينية، فإذا قامت على سبيل المثال حركة تقدم تكنولوجية غيرت من النسق الثقافى السائد استدعى ذلك من اللغة أن تغير من مصطلحاتها وألفاظها بما يتوافق مع المجتمع التكنولوجى الجديد حتى يمكنها أن تعبر عنه، فنراها تزيد من مرادفاتها الحديثة والتكنولوجية بما يتوافق مع تلك الثقافة الجديدة.

وينبغى أن نشير هنا إلى أن التغير الثقافى والحضارى الذى يحدث على مدى تاريخي طويل، يمكن أن يؤدى إلى إسقاط أجزاء كثيرة من البناء اللغوى لتصبح اللغة التى يتحدث بها الناس من قرون مضت لغة غير مفهومة على الإطلاق في العصر الحاضر(١).

وعندما تظل مستخدمة في بعض المناطق المنعزلة داخل مجتمع معين أو داخل منطقة ثقافية أكثر اتساعا، فإن اللغة التى حافظت عبر التاريخ على بناءها الخاص تصبح عاملا من عوامل العزلة، ويمكن أن تصنف على أنهم لا يزالوا يستخدمونها على أنهم متخلفون حضاريا(٢).

وكل شعب يعمل على تطوير لغته طبقا لتطور حضارته وثقافته، واللغة إذا لم تتغير لا يمكنها مسايرة التقدم، وحياة اللغة وارتقاءها مبنى على مقدار نصيب أهلها من الرقى والتمدن، فكلما ارتفعت الأمة كثرة حاجاتها، فبالطبع تتسع اللغة باتساع الحاجات، وبموت اللغة واندثارها تموت أمتها وتفنى قوميتها، فاللغات لها حياة وموت وصحة وسقم وشباب وهرم. وقد تكلم العديد من العلماء عن التغير اللغوى، فعلى سبيل المثال، قال "أدوارد سابير":

---

(1) Bidney, D., "Theoretical Anthropology" Second Augmented Ed., 1967, New York, P. 94.

(2) Ibid., P. 94.

"إن اللغة لها اتجاه، وإن الاختلافات الفردية هي التي تجعلها تسير في هذا الاتجاه أو ذاك، مثلها في ذلك مثل حركة الأمواج في خليج بعيد عن حركة المد والجزر".

فالتغير الذى يطرأ على أى لغة يتكون عن طريق الاختيار اللاشعورى الذى يقوم به المتحدثون الذين يستخدمون تلك التغيرات الفردية والتى تتراكم في اتجاه محدد(١).

ويلاحظ أن أى مظهر من مظاهر التحول يصبح جزءا من اللغة المقبولة التى يتحدث بها الناس ولكن على مدى زمن طويل، أنها ممكن أن توجد كمجرد اتجاه في لغة الحديث لقلة من الناس، هذه القلة ربما تكون قلة منبوذة من المجتمع نظرا لخروجها عن التيار العام للغة واستمرار تمسكها بما دخل عليها من ألفاظ لم تعد تناسب التطورات الثقافية المتلاحقة. أحيانا قد نشعر أين يمكن أن يجرفنا التغير حتى في الوقت الذى تناضل ضده، ذلك لأن معرفة التحول العام لأى لغة قد لا يكون كافيا ليمكننا من أن نرى بوضوح إلى أين يتجه هذا التغير، وهذا هو الذى يجعلنا نعتقد أنه من الضرورى أن نعرف شيئا عن الاحتمالات النسبية والسرعات التى يمكن أن تكون كامنة من مكونات هذا التحول اللغوى العام(٢).

ويرى "بيدنى Bedniy" هنا أن "سابير" يكتب كما لو كانت بلغة حقيقية اجتماعية ذات تفوق نفسى تتأرجح أو تتغير مستقلة عن الأفراد اللذين يستخدمونها باعتبارها وسيلة من وسائل الاتصال، وكأنها أيضا شئ موضوعى تواجه الأفراد وتقاومه وتقاوم جهوده لتعديلها، فاللغة عبارة عن

(١) انظر: Sapir, L. "Language", New York, 1981, pp. 165 – 166.
(2) Sapir. P. 166.

موجة اتجاهها الخاص وهى قادرة على أن تحمل الأفراد الذين يستخدمونها في ديارها (١).

معظم العلماء وعلى رأسهم سابير - كروبر - دوركايم، وأخيرا ليفى ستروس ينظرون إلى اللغة باعتبارها ظاهرة مستقلة في ذاتها، وإن كانت جزءا متكاملا من الثقافة، وأن تغيرها من الداخل نتيجة تفاعلات بين مكوناتها، وإذا كان التغير على مستوى أوسع النطاق، فإن تأثيرات العناصر المشتركة معها في البناء الثقافى العام يمكن أن تكون لها فاعلية.

ولكننا نقول هنا أن سابير كان مغاليا عندما تصور أن تغيرات اللغة يمكن أن تحدث داخل خليج راكد المياه، فركود المياه يغير من طبيعة الحياة، بل قد يحول الماء إلى شئ آخر، فحركة الماء وحدها هى التى احتفظت بخصائص الماء منذ الخليقة حتى الآن، لأن تفاعل الماء الراكد مع التربة يمكن أن يضيف للماء خصائص لم تكن فيه أصلا(٢).

ولهذا فإن اللغة على عكس ما قال تماما تتعرض لموجات من التغير تضيف إلى الألفاظ والمصطلحات بل والأصوات جديدا كل جيل، ويبدو ذلك واضحا عندما واجهت اللغات الأوربية الحديثة النتائج العلمية المتزايدة، فاضطرت إلى العودة إلى التراث لغويا قديم وهو اللاتينية واليونانية، ولكنها لم تأخذ هذا التراث من بركة راكدة، وإنما أخذته من مضمونه التاريخى وطوعته فأصبح جزءا متكاملا مع اللغة التى استخدمت فيما بعد لتصبح لغة العلم الحديث.

---

(1) Op. Cit., Bidney, D. "Theoretical Anthropology", p. 94.

(2) Ibid., PP. 94 – 95.

وأخيرا أن النظر إلى اللغة كظاهرة ثقافية من خلال وجود اجتماعي معين هو الذى يسمح لنا بقصد عوامل تفسير تغيرها وانقسامها إلى لهجات متعددة تتناسب مع طبيعة المناطق الثقافية المختلفة، ومستوى التعليم، ونوع المهنة .. الخ. وبغير هذا فإننا سنقع في خطأ كبير وهو أن نفسر منهجيا على نحو استاتيكى ما هو بطبيعته ديناميكى.

ومن ثم فالتغير قانون تتعرض له جميع اللغات أثناء سيرها الطبيعي في الحياة، فطالما هى حية باقية لا محال من تعرضها لناموس التغير والتبدل.

واللغة في أى مجتمع لا توجد من أجل ذاتها، وإنما هى نشاط اجتماعى يخدم ما يسميه سابير "بالتشارك الاجتماعى" فهى التى تفصح عن العلاقات الشخصية والقيم الثقافية كما عرفنا من قبل، لذلك أى تغير في ذلك المجتمع لابد أن يستتبعه تغير في اللغة التى يتكلم بها حتى يمكن للغة حينئذ القيام بوظيفتها الأساسية كظاهرة اجتماعية، ولا مناص للدارس من فهم اللغة من المجتمع، ومن فهم المجتمع من اللغة.

فاللغة ظاهرة اجتماعية، والظواهو الإجتماعية والتى يتألف من دراستها علم الاجتماع La Sociologie تمتاز بعدة خصائص:

- أنها تتمثل في نظم عامة يشترك في اتباعها أفراد مجتمع ما، ويتخذونها أساسا لتنظيم حياتهم الجمعية.
- أنها ليست من صنع الأفراد، وإنما تخلقها طبيعة الاجتماع وتنبعث من تلقاء نفسها عن حياة الجماعات، ويقول العلماء أنها نتاج العقل الجمعى.

وأخيرا أن خروج الفرد على نظام منها يلقى من المجتمع مقاومة تأخذه بعقاب مادى أو أدبى[1].

وإذا نظرنا إلى اللغة نجد أن تلك الخواص الثلاثة تتوافر فيها على أكمل ما يكون، فاللغة نظام عام يشترك فيه جميع أفراد المجتمع، حتى يمكنهم الاتصال والتعاون والتفاهم مع بعضهم البعض،كما أن وجودهم في مجتمع واحد والحياة الجمعية التى يعيشونها اقتضت وجود لغة للتفاهم بها وثم هى نتاج عقلية من يتكلم بها، أى نتاج العقل الجمعى، كما أن الفرد دائما يتبع لغته في تغيرها وتطورها، وهو يستخدمها في مجتمعه كوسيلة أساسية للاتصال بمن حوله، لذلك إذا حاول الخروج عن ألفاظها ومرادفاتها المألوفة تعرض للسخرية وللعقاب سواء كان أدبى او مادى ولكنه في الغالب يكون عقابا أدبيا.

واعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية أدى إلى النظر إلى دورها ووظيفتها الاجتماعية بكثير من الاهتمام نتج عنه نشأة فرع جديد من فروع علم اللغة، فاللغة قيمة اجتماعية كبيرة، فهى عماد قيام تلك المجتمعات البشرية، لذلك إذا كان هذا هو شأن أفعال اللغة بالمجتمع وانبثاقها عنه، وتأثيرها فيه وتأثرها به من ناحية أخرى، فليس هناك من غرابة أن ينشأ فرع جديد من فروع علوم المجتمع واللغة وهو الذى يعرف باسم "علم اللغويات الاجتماعى". ماذا يدرس هذا العلم؟ وكيف ينجح في الكشف عن العلاقة الوثيقة بين اللغة والمجتمع التغيرات التى تحدث في كل منهما وأثر ذلك على حياة اللغة في للمجتمع، كل هذه تساؤلات تقتضى منا أن نعرض بالتفصيل لموضوع "علم اللغويات الاجتماعى" يمكننا الاجابة على كل ذلك.

---

(١) على عبد الواحد وافى، اللغة والمجتمع، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥١، ص ٢.

علم اللغة الاجتماعي:

علم اللغة الاجتماعى يهتم بدراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع، وهو نوع جديد في الدراسات اللغوية، ويحتوى هذا الفرع على مجموعة كبيرة من المصطلحات تصنف العلاقات اللغوية داخل المجتمع الواحد.

وقد أصبح "علم اللغة الاجتماعى" الآن علما له ثقله في معظم الجامعات لمعاهد التى تختص بجزء كبير من دراستها لعلم اللغة .. وقد ازدهر هذا العلم كثيرا في الفترة ما بين ١٩٦٠ - ١٩٧٠، وهذا لا يعنى أن دراسة اللغة بعلاقتها بالمجتمع لم تظهر إلا في ذلك الوقت، ولكن كانت هناك دائما محاولات تقليدية قديمة في دراسة اللهجات ودراسة العلاقة بين معنى الكلمة لثقافة بصورة خاصة، ولكن الشئ الجديد هو أن ذلك العلم أصبح يلقى المزيد من الضوء على واقعية اللغة وطبيعة المجتمع(١).

وموضوع "علم اللغة الاجتماعى" هو دراسة الواقع اللغوى في أشكاله المتنوعة باعتبارها صادرة عن معان اجتماعية وثقافية، مألوفة أو غير مألوفة، ذلك من خلال النهر المتدفق للتبادل الاجتماعى(٢).

وعلم اللغة الاجتماعى يطبق منهج "علم اللغة الوصفى" بالإضافة إلى منهج وصف الظواهر الاجتماعية، كما أنه يوجد به جزء عملى وجزء نظرى، جزء العمل (الميدانى) من حيث الخروج والبحث وتجميع الحقائق، الجزء النظرى من حيث تحليل وصياغة هذه الحقائق. ويعتبر مجال علم اللغويات الاجتماعى منتجا بصورة جيدة، وذلك إذا كان يرتكز على حقائق

---

(1) R. A. Hudson, "Sociolinguistics", Cambridge Un P. London, 1980, P. 1.

(٢) عبده الراجحى، اللغة وعلوم المجتمع، كلية الآداب - جامعة الاسكندرية، ١٩٧٧، ص ١٠.

مجمعة بصورة منظمة كجزء من البحث أو من حيث اعتمادها ببساطة على خبرة الفرد الذاتية، وهذا المجال يسمح لنا بأن نبدأ في تحليل الاطار العملى وذلك بما تحتويه مصطلحات مثل "اللغـة" (جسم المعلومـات أو القوانين)، الحديث (التعبير الفعلى)، المتحدث، المرسل إليه ... الخ. ومما لا شك فيه الخبرات الشخصية هى تلك المنبع الغنى بالمعلومات في اللغة وفى علاقتـها بالمجتمع، وإن كنا نجد أن هذا المدخل سوف يتعرض إلى خطورة إذا ما أعتمد التطبيق المتعلق بالخبرات الشخصية فقط، وذلك لسببان:

أولا: أننا يمكن أن نكون غير دقيقين في تفسيرنا إلى خبراتنـا الذاتية، وذلك لأن معظمنا لا يدرك بصورة شعورية هذا المدى الواسع من التغير والتنويع في الحديث الذى نسمعه أو نجيب عليه في حياتنا اليومية[١].

ثانيا: أن الخبرات الشخصية ما هى إلا عبارة عن أساس محدود يصعب أن نقوم بتصميمات منها على اللغة في المجتمع.

وعموما .. نقول أن السبب الرئيسى الذى جعل من مجال علم اللغويات الاجتماعى مجالا ممتع خصب هو ليس فـي الواقع جانبه الذى يتمثل في الأداء النظرى، وإنما في ذلك الجانب الذى يتمثل فـي الاكتشافات العملية التى أجريت بصورة منظمة على اللغة في واقعها الاجتماعى[٢].

وعلم اللغة الاجتماعى يهتم "بالحديث الكلامى" بين الأفراد داخل المجتمع، ومن مجالات "الحدث الكلامـى" ما يعرف الآن "بالتحول الكلامى" وموضوع له أهميته في علم اللغة الاجتماعى، إذ لا يوجد مجتمع يتكلم لغة واحدة أو لهجة واحدة والانسان لا يتحول من لهجة إلى أخرى أو

---

(1) Op. Cit.. R. A. Hudson, "Sociolinguistics", P. 2.

(2) Ibid., p. 2.

مـن لغـة إلـى أخـرى إلا لأسـباب وعوامـل اجتماعيـة، وإذا كـان اللغويـون يعزلـون بعـض الظواهـر اللغويـة لدراسـتها فـي حـد ذاتـها، فـإن علـم اللغـة الاجتماعى يصر على دراسة الظواهر في إطار "كل" ما في المجتمع، كمـا أنه في النهاية يصل إلى العوامل الاجتماعية "الكليـة" التـى لـها تـأثير علـى اختيار الناس للغة، ومن ثم يصل إلى تطوير "نظرية" تصلح لدراسة أنواع الحدث الكلامى[1].

ودراسـة الحـدث الكلامـى يمكـن أن يطلـق عليــه أيضــا مصطلـح "محادثة الجماعة" Speech Communities هذا المصطلح استخدم بصـورة واسعة عن طريق "علم اللغة الاجتماعى" وذلك للاشارة إلى الجماعـة التـى ترتكز عليها دراسة اللغة، فمن خــلال محادثـات الجماعـة يمكـن أن نكشـف عن اختلافات بين الجماعات ترتبـط باختلافـات أيضـا فـي لغتـها، فمحادثـة الجماعة مصطلح يعتبره بعض العلماء غامض ومبـهم حيـث أنـه كثيرا مـا يستخدم في كل من الناحية اللغويـة لمجموعـة مـن النـاس يسـتخدمون نفـس أسلوب الكلام والأكثر من الناحية الاجتماعية والانثربولوجية حيـث يعـرف مجموع الأشخاص اجتماعيا ولغويا[2].

وقد تعددت التعريفات التى قيلت حول مصطلح "محادثة الجماعـة" فقال العالم "بلومفيلد Bloomfiled" (١٩٣٣) أن:

"حديث الجماعة هو عبارة عن مجموعة من الأفراد يتداخلون عـن طريق وسائل المحادثة".

وأوضح "تشارلز هوكت Charles Hockett" (١٩٥٨) أن:

---

(١) عبده الراجحى، اللغة وعلوم المجتمع، مرجع مذكور، ص ١١- ١٢.

(2) Pride J. B. "The Social Meaning of Language", Oxford, Unv. Press, 1971, p. 5.

"كل لغة تعرف حديث الجماعة، فالشكل الكلى للأفراد الذين يتصلون بعضهم البعض بصورة مباشرة أو غير مباشرة يتم عن طريق اللغة العامة أو المشتركة".

وأخيرا عرفه "جون جامبرز John Gumperz" (١٩٦٢) بأن:

"حديث الجماعة هو حديث كائنات بشرية تجتمع وتعيش معا بانتظام، ومن ثم تتداخل مع بعضها البعض بوسائل معينة متبادلة من الاشارات اللفظية"[(١)].

وقد كان "جامبرز" يرى أن لغة الجماعة كمجموعة اجتماعية تتصل حقا طريق تكرار أنماط التداخل الاجتماعى وانبثاقه من البقاع المحيطة عن طريق وضعه في خطوط الجماعة، وقد كان هذا التعريف في نظره يساعد بسهولة على معرفة الاختلاف في المقياس من الجماعات الكبيرة إلى الجماعات الصغيرة، والتركيز هنا لا يكون فقد على اللغة ولكن على المجموعات الاجتماعية والتى تتميز نفس الوقت بالاختصاصات اللغوية[(٢)].

فقد أكد معظم العلماء على أن دراسة "الحدث الكلامي للجماعة" لنا من خلاله الوقوف على خصائص اللغة التى يتكلم بها الجماعة، وأيضا في المجتمع والاختلافات التى توجد بين لهجات اللغة في المجتمع الواحد.

وعلم اللغة الاجتماعى كما قلنا هو عبارة عن اللغة في علاقتها بالمجتمع، المجتمع يحتوى على أفراد، وكل من اللغويين الاجتماعيين أجمعوا على ضرورة من أن نجعل من الأفراد نقطة الاهتمام في الدراسة

(1) R. A. Hudson, "Sociolinguistics", P. 25 – 26.

(2) Op. Cit., Pride J. B. "The Social Meaning of Language", P. 8.

اللغوية، فالفرد المتحدث يعتبر هاما في مجال بحث علم اللغويات الاجتماعى بنفس أهمية الخلية الفردية في علم الاحياء، فإذا لم نفهم كيف يعمل الفرد لن يتسنى لنا معرفة كيف يتصرف أو يسلك مجموعات الأفراد(١).

وأكثر من ذلك، فهناك سبب آخر وهام في ارتكازنا على الدراسة من خلال الأفراد في علم اللغة الاجتماعى والتى لا تتماثل في أهميتها مع الخلية في علم اللغة الاجتماعى والتى لا تتماثل في أهميتها مع الخلية في علم الاحياء، وذلك لأنه يجب أن نكون واثقين من أنه لا يوجد اثنين من المتحدثين لهما نفس اللغة، لأنه لا يوجد اثنين من المتحدثين لهما نفس الخبرة في اللغة، فالاختلافات بين المتحدثين يمكن أن تختلف في الشئ القليل والعادى (في حالة التوائم التى تنشأ معا مثلا)، لذلك فالفرد المتحدث يعتبر فردا غنيا من حيث خبرته (كمستمع) عن وضعه المتعلق بالجينات، وإن كانت خبرته في الحقيقة تتكون من أحاديث أفراد آخرين متحدثين والتى تعتبر بدورها جوهرية(٢).

ولكن مع ذلك فإن جوهر الفرد من حيث لغوياته الاجتماعية السابقة ليست هى المنبع الرئيسى والأول للاختلافات بين المتحدثين، فلو تخيلنا أن هناك شخصا يعيش في مجتمع ما أو جماعة، يفصل بين الأفراد من حوله أبعادا مختلفة وذلك مثل التعليم والطبقة ... الخ، مثل هذه الأبعاد تحتوى على اختلافات لغوية، مثل كيف تنطق بعض الكلمات أو الظواهر مثلا، ولنفترض أن هذا الشخص نموذج معين في هذه الجماعة التى يعيش فيها، فإن هذا النموذج الذى يؤسسه سوف يعكس خبرته الشخصية، لذلك سوف

(1) Op. Cit., R. A. Hudson, "Socialinguistics", P. 12.
(2) Ibid., P. 13.

نجد بالتالى أن الأفراد الذين لهم خلفيات لغوية اجتماعية مختلفة سوف ينقادون ويقومون بتأسيس نماذج مختلفة للغة والمجتمع، ذلك ينبغى أن نوضح أن الفرد ليس عبارة عن فرد اجتماعى أتوماتيكى يعطى للناس انعكاس صحيح دقيق وحقيقي لماضيه في تعبيره اللغوى كما يفعل شريط التسجيل ولكن الفرد يضفى خبرته المتمثلة في الموقف الجديد من خلال مفاهيمه الخاصة والمستمرة، فمن الممكن أن يسمع شخصان نفس الحديث، ولكن يتأثر كل منهما بهذا الحديث بصورة مختلفة عن الآخر(١).

فلا شك أن اختلاف الأفراد في المجتمع الواحد طبقا لعامل السن، الطبقة، والجنس، ونوعية العمل ... الخ يؤدى إلى اختلاف خبراتهم، ومن ثم يؤثر ذلك على لغته وألفاظه، فتنتج الاختلافات في اللهجات واللغات داخل الجماعة البشرية.

وهناك فرق بين "علم اللغويات الاجتماعى" وبين "اللغويات" وهذا الفرق يبدو أساسا في البناء الخاص باللغة، وذلك مع أبعاد المحيط الاجتماعى الذى استخدم فيه، فالعمل الأساسى للغوى هو وضع القوانين اللغوية، ثم يأتى بعد ذلك اللغوى الاجتماعى ويحاول أن يكشف إلى أى مدى يمكن أن تتداخل هذه القوانين وتتفاعل مع المجتمع(٢). وعلم "اللغة الاجتماعى" وهو أحد فروع "علم اللغة العام" (اللغويات) وعلم اللغة العام هو ذلك العلم الذى يختص بوصف وتحليل اللغات ومعالجة معانيها واستنباط قوانينها، أى هو العلم الشامل، أما علم اللغة الاجتماعى فهو أحدى فروع ذلك العلم، فالظواهر الاجتماعية على اختلاف أنواعها لها آثارا كبيرة في مختلف شئون اللغة، فنشأة اللغة وانقسامها إلى فصائل وانتشارها وما

---

(1) Ibid., p. 14.

(2) Ibid., p. 15.

يطرأ عليها من قوة وضعف وسعة وضيق والتطورات التي تحدث في مدلولاتها وأساليبها وقواعدها، كل هذا لا يمكن فهمه والوقوف عليه إلا من خلال وجود اللغة في مجتمع معين، ودراستها من خلال إطار ذلك المجتمع التي تحيا فيه، واقتضى ذلك قيام علم يختص بدراسة اللغة كظاهرة اجتماعية، أى دراسة ذلك الجانب الاجتماعى من اللغة(١)، فقام علم اللغة الاجتماعى كأحد فروع العلم الأعم "اللغويات"، ونجد بجانب هذا الفرع فروع أخرى عديدة تنتمى إلى "علم اللغة" وذلك مثل "علم اللغة المقارن" الذى يهتم بالمقارنة بين لغتين أو أكثر، و"علم اللغة الوصفى" الذى يهتم بالوصف والتحليلات مستخدما الوسائل التى بها تتشكل اللغة وتمارس بواسطة عدد محدد من الناطقين بها، وأخيرا هناك "علم اللغة التجريبى" الذى يهتم بدراسة الحواس نطقا وسمعا وحركات أعضاء النطق ... الخ(٢).

وفى النهاية يمكن لنا أن نحدد موضوعات البحث في ذلك العلم إلى الآتى:

إن دراسة علم اللغة الاجتماعى تتمركز في دراسة العلاقات الشخصية والقيم الاجتماعية في علاقتها باللغة ومدة التأثير بينهما، ودور اللغة الاجتماعى تجاه تلك القيم، كما يعتنى ذلك العلم بدراسة اللهجات الاجتماعية وأسباب قيامها والوقوف على أوجه اختلافها، وعلم اللغة الاجتماعى يدرك أن لغة الشخص تحددها عوامل كثيرة، منها الموقف الاقتصادى والمستوى التعليمى، والرغبة الخاصة والحالة الصحية وغير ذلك من الأمور التى يقوم هذا العلم بدراستها وعدم اغفالها وإيضاح ما تلعبه من دور في التأثير على لغة الفرد داخل المجتمع(٣). وأخيرا نقول أن اللغة

---

(١) على محمود مزيد، علم اللغة العام في الفكر العربى، المطبعة العالمية، ١٩٧٨، ص ١٢.
(٢) المرجع السابق، ص ١٣.
(٣) عبده الراجحى، اللغة وعلوم المجتمع، مرجع مذكور، ص ١٠ ـ ١١.

هى "السلوك الاجتماعى الكامل" لذلك قام هذا العلم لدراستها في واقعها وميدانها وهو المجتمع. وأى مجتمع لا يمكنه الاستغناء عن اللغة، كما أن اللغة لا يكتب لها الاستمرار والبقاء إلا من خلال وجودها في مجتمع معين، فهى بلا شك من خلال ذلك الوجود تصبح قوة اجتماعية كبيرة، وتلعب دورا كبيرا في حياة متكلميها، فهى أساس اتصالهم، وهى التى تعبر عن اتجاهات وآراء وقيم من يستخدمونها، وهى المقياس الذى يصبح من خلاله الطفل عضوا في مجتمعه، عن طريقها يوصل آراؤه واتجاهاته للآخرين عندما يصبح شابا، فهى تفسح له الطريق لامكانية العيش والتعاون مع بقية أعضاء مجتمعه، ولذلك تتعدد وظائفها في المجتمع وفى حياة الأفراد، فهى بلا شك أعظم وسيلة وهبها الله للانسان ليمكنه من العيش مع غيره من بنى جنسه.

وتعتبر وظيفة الاتصال التى تقوم بها اللغة هى أهم وظائفها على الإطلاق، لذلك ينبغى أن نعرض لها كعنصر اتصالى هام، ولنوضح من خلال ذلك كيف تقوم اللغة بتلك الوظيفة، وهل نقصر وظيفة اللغة على مجرد الاتصال أم أن لها أدوارا أخرى هامة.

اللغة كعنصر اتصال ووظيفتها في المجتمع:

دراسة الاتصال Communication أصبحت تمثل عنصرا أساسيا من عناصر البحث في العلوم الاجتماعية، ذلك أن الإنسان لا يمكن فهمه إلا بمعرفة الطرق التى يقوم عليها الاتصال لديه، وهى طرق تختلف باختلاف النشاط وباختلاف البيئات والمجتمعات، ولما كانت العلوم الاجتماعية تتناول الاتصال من زوايا مختلفة فإن مصطلح "الاتصال" نفسه يستعمل بتصورات متعددة، وقد تكون مختلفة اختلافا كبيرا، فهناك من يتناول

الاتصال من حيث هو ثقافة، وهناك من يتناوله من حيث هو لغة، وآخر يدرس من حيث التأثير الشخصي، وأخيرا رابع يبحثه باعتباره أساس العلاقات الإنسانية[١].

وقد عرف العلماء "الاتصال" بأنه:

"هو العملية التى يتفاعل بها المرسلون والمستقبلون للرسائل في سياقات اجتماعية معينة".

وهذا التعريف يوضح أن الاتصال عملية تفترض أن مكونات التفاعل دينامية وليست ستاتيكية في طبيعتها، وأنه لا يمكن اعتبارها كعناصر غير متغيرة من حيث الزمان والمكان، بل أن الاتصال ـ كما يلاحظ "دانس Dance" موضوع للتغير حتى في اثناء توفرنا على دراسته واختباره[٢]. وأننا لا يمكن أن نفهم جانبا واحدا من الاتصال بمعزل عن المكونات الأخرى للسلوك كما أن التغير في جانب من جوانب العملية الاتصالية قد يؤدى إلى تعديل في الاتصال ككل[٣].

وهناك أبعادا ثلاثة للاتصال الانسانى:

- الاتصال كعملية نقل واستقبال للمعلومات.
- التعليم كاتصال.
- اللغة كاتصال.

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٥.

(2) In F.E.X. Dance (ed), "Human Communication Theory". New York. 1967. P. 43.

(3) Sereno. K. K. & Nortensen. C. D. Foundations of Communication Theory. "New York. Harper & Row Pub. 1970. p. 5.

وهذا البعد الثالث هو ما يعنينا في دراستنا للغة التى بدورها كسلوك اتصال تنطوى على ثلاثة أنماط:

- الاتصال بين الفرد ونفسه ونعنى به إدراك الفرد لذاته ولعلاقته بالعلم المحيط به، ووعيه بخصاله وقدراته وحدوده وضعفه .. الخ ولا شك أن حسن اتصال الفرد مع نفسه يجعله أقدر على توظيف إمكانياته توظيفا كاملا(١).

- الاتصال بين الفرد والآخرين والذى يتم من خلال الواقع الاجتماعى الذى يعيش فيه الفرد، فالاتصال بين الفرد والآخرين ينمو عند الطفل من العلاقات الاتصالية والأدوار المتبادلة بين أعضاء الأسرة كوحدة اجتماعية، ويأخذ هذا النمط الاتصالى من التطور عند الفرد بتطور أدواره الاجتماعية.

- وأخيرا الاتصال بين الجماعات الاجتماعية وهو الذى يكون بين الناس في مجتمع معين، والذى يجعل الجماعات الاجتماعية أنظمة اجتماعية فعالة، ويتحدد الاتصال بين الجماعات الاجتماعية وفقا لأنماط هذه الجماعات وما يمكن أن يقوم بينها من علاقات وأدوار متبادلة(٢).

اللغة إذن .. وباختصار .. هى أداة الاتصال الرئيسية في المجتمع الانسانى، لأنها هى الوسيلة الأكثر فعالية في تمكين الفرد من الدخول في علاقات وتفاعلات اجتماعية مختلفة مثلما هى أداته الرئيسية في عملية التكامل مع الثقافة التى ولد فيها. كما أن أى ثقافة في أى مجتمع لا تفصح عن نفسها إلا بطرق الاتصال فيها، ومن ثم فإن دراسة الاتصال في

(١) طلعت منصور، "مجلة عالم الفكر" مجلة دورية، المجلد الحادى عشر، العدد الثانى، ١٩٨٠، مقالة بعنوان "سيكولوجية الاتصال" ص ١٣٢.
(٢) المرجع السابق، ص ١٣٧.

المجتمع هى التى تقفنا على ثقافته ... وفى ذلك يقول "أدوارد هول Edward T. Hall في كتابه عن اللغة الصامته The Silent Language:

"إن الثقافة اتصال على اعتبار أن العادات والتقاليد والتراث والخبرات والقيم والمعارف المختلفة كلها تنتقل بين الأشخاص والجماعات والاجيال، وهذا الانتقال أو التوصيل هو ما يعطيها صفة الاستمرار والبقاء في الوجود".

ومن هنا كان معظم العلماء والمهتمين بدراسة الاتصال يعطون جانبا كبيرا من اهتمامهم لدراسة اللغة، باعتبار اللغة أداة الاتصال الرئيسية وأداة نقل الثقافة وتوصيلها مثلما هى - في الوقت ذاته جزءا من الثقافة(١).

ومن المؤكد أن اللغة لا تكشف عن قيم الحضارة فحسب، لكنها تدل أيضا على أنماط العلاقة بين الناس، وإذا تأملنا الأسئلة الآتية: من يتحدث إلى من؟ وعن أى موضوع؟ وبأى أسلوب كان الحديث؟ فإن هذه الأسئلة تعنى الاشارة إلى تخصيص الأدوار، وتعنى اختلاف الرتبة بين الأفراد في المجتمع، وكل هذا ملمح مهم من ملامح الثقافة.

والاتصال ليس وظيفة بيولوجية يؤديها الانسان كما يؤدى وظائفه الحيوية، ولكنه يكتسبه من المجتمع، ويتعلم طرائق الاتصال بالآخرين سواء بالوسائل اللغوية أم بغيرها، وبما أنها تكتسب من المجتمع، إذا فإنها تختلف بين ثقافة وأخرى، وإذا كانت اللغة المنطوقة من أهم وسائل الاتصال، فإن هناك أيضا ما يعرف بالاتصال غير اللفظى Nonverbal Communication كما أن هناك بعض الجوانب الأخرى التى تساعد اللغة على قيامها بدورها كوسيلة اتصال أساسية، وذلك مثل ما يعرف باسم اللغة

---

(١) طلعت منصور، مقالة سيكولوجية الاتصال، مرجع مذكور، ص ٦.

الجانبية، وأيضاً الحركات الجسمية المصاحبة للغة والتى تكمل من وظيفتها الاتصالية ... ولنعرض لذلك بشئ من التفصيل ..

الاتصال غير اللفظى:

تعتبر دراسة الاتصال غير اللفظى حديثة نسبيا، حيث ظل الناس يعتقدون لفترات طويلة أن الاتصال لا يمكن أن يحدث بغير استخدام الكلمات، وربما يرجع ذلك إلى أن معظم الثقافات تعلق أهمية كبرى على تأثير الكلام وفعاليته، والناس دائماً ينظرون إلى الانسان الصامت على أنه يفتقر إلى الفاعلية، ولكن هذا الاتجاه الشائع نحو الصمت أو غياب الصوت الكلامى هو في حقيقته اغفال - بل وسوء فهم لطبيعة الاتصال ذاته، فالانسان لا يستطيع إلا أن يتصل، وهو لا يجد للاتصال بديلاً، فمظاهر الاتصال غير اللفظى هى في حقيقة أمرها تعبيرات منظمة تشير إلى مجموعة من المعانى يستخدمها الانسان أو يقصدها في احتكاكه بالأخرين(١).

ومن أهم وسائل الاتصال غير اللفظى ما يعرف "بلغة الاشارات" وهى أول وسيلة من الوسائل التى طورها الإنسان، وتنطوى كل ثقافة من الثقافات المختلفة على نسق من الاشارات ذات المعنى والدلالة، والتى إما أن تصاحب لغة الكلام أو تؤدى بمفردها من أجل أن تغطى معنى معيناً أو ترسل رسالة خاصة، وأما المعنى الذى يكمن وراء الاشارات فهو مسألة ثقافية خالصة، وبالتالى يعتبر نسبيا إلى درجة كبيرة، ومثال لذلك ايماءة

---

(١) سامية جابر، الاتصال الجماهيرى والمجتمع الحديث، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٣، ص ٦٠ - ٦١.

الرأس تشير في بعض الثقافات إلى معنى الموافقة والتأييد، بينما تعنى الرفض في ثقافات أخرى[1].

والجانب الآخر للاتصال هو ما يعرف باسم "اللغة الجانبية" فاللغة الجانبية تساعد اللغة على القيام بوظيفتها بل أنه في بعض الأحيان اللغة الملفوظة لا تؤدى معناها إلا من خلال هذه اللغة الجانبية.

واللغة الجانبية مصطلح يطلقه اللغويون على الجوانب الصوتية التى تصاحب الكلام، أى أنها ليست تلك الألفاظ التى ينطقها المتكلم ولكنها حالة الصوت عند نطق الألفاظ ارتفاعاً أو انخفاضاً أو غير ذلك[2].

وقد رصد اللغويون "موازين" معينة للغة الجانبيـة رأوا أنـها تؤثر تأثيراً مباشراً على الاتصال اللغوى، وهذه الموازين يكتسبها المتكلم من المجتمع، فهى تؤدى وظائف عرفية شأنها شأن اللغة العادية، وأيضاً تضيف إلى المعنى وقد تؤدى عكس ما تؤديه الألفاظ المنطوقة نفسها، وأهم ما رصده اللغويون من هذه الموازين ما يعرف بميزان "جهارة الصوت" ويعنون به الميزان الذى تتحدد به درجة ارتفاع الصوت أو انخفاضه عند نطق معين، فكل موقف كلامى يكتسب من المجتمع درجة معينة من ارتفاع الصوت، والناس يلتزمون بهذه الدرجة عند هذا الموقف، وإذا تغيرت الدرجة عما ينبغى أن تكون قد يفهم سبب ذلك معنى مغايراً للمعنى اللغوى، وارتفاع الصوت أو انخفاضه قد يكون خصيصة ضرورية لبعض أنماط التوصيل، فعلى سبيل المثال رجل السياسة لابد له أن يصيح وهو يخطب

(١) المرجع السابق، ص ٦٤.
(٢) عبده الراجحى، مرجع مذكور، ص ٣٨.

في حشد من أتباعه، كما أن المحب وحبيبته يتهامسان وهما يجلسان مع بعضهما البعض(١).

وهناك أيضا ميزان "طبقة الصوت" الذى يختص بالطبقة الصوتية التى ينطق بها كلام معين، فهناك بعض الأغراض تقتضى طبقات صوتية معينة وذلك مثل الفرح والبهجة والحزن وخيبة الرجاء ... الخ وبعض الناس يعرفون بطبقة صوتية معينة بحيث يؤدى تغييرها إلى أن يدرك السامع أن شيئا ما قد حدث، فيفهم من ذلك شيئا لا تحمله الألفاظ وحدها .. وأخيرا هناك ميزان "البطء والسرعة" وهو يختص بدرجة سرعة وبطء الكلام، وتغير سرعة النطق في موقف كلامى معين قد يضيف إلى معنى الألفاظ شيئا، وقد يقلب المعنى على نقيضه، فمثلا السرعة الزائدة تدل على الحدة والغضب بينما النطق البطئ المقطع قد يشير إلى السخرية أو عدم الرضا(٢). وهذه الموازين تختلف أيضا باختلاف الثقافات، فهى ليست عامة وتنطبق انطباقا واحدا على المجتمعات الانسانية، وإنما هى تنشأ في المجتمع نشأة اللغة العادية، ولها نظامها الخاص ويتعلمها الفرد في المجتمع كما يتعلم اللغة تماما.

وهناك أيضا ما يعرف "بالحركات الجسمية" والتى تصاحب اللغة في كثير من المواقف لتكمل معنى الألفاظ المنطوقة، وفى بعض الأحيان تكون بديلا عنها تماما ... وأول من لفت نظر اللغويين إلى ذلك هو العالم الانثربولوجى "راى بيردوسل Ray L. Birdwhistell" الذى قال بأننا يجب أن ندرس استخدام الانسان لحركات جسمه في عملية التوصيل بما يفيد في فهم العملية اللغوية، وقد كتب بيردوسل عددا كبيرا من الأبحاث جعلت

(١) عبده الراجحى، اللغة وعلوم المجتمع، مرجع مذكور، ص ٤٠.
(٢) المرجع السابق، ص ٤٢.

دراسة الحركة الجسمية تحتل منزلة هامة في علوم الاتصال عموماً وفى دراسة اللغة على وجه الخصوص[1].

وحركة الجسم هذه لا يستخدمها الانسان عشوائياً، وإنما هى نظام يتعلمه من المجتمع، وهذا النظام له أنماطه الخاصة بالثقافة ... فيقول علماء الفسيولوجيا مثلاً أن عضلات الوجه يمكنها أن تقدم للانسان عشرين ألف تعبير، كل منها مختلف عن الأخر، لكنه لا يستخدم منها إلا عدداً قليلاً جداً وفق ما يقتضيه بناؤه الاجتماعى، والذى لا شك فيه أن هناك اختلافات كبيرة بين المجتمعات في استخدام الحركة الجسمية، فاللبنانيون والسوريون والفلسطينيون مثلاً يحركون حواجبهم إلى أعلى دلالة على الرفض على حين يفيد تحريك الحواجب عند المصريين دلالات أخرى .. وهناك فروقاً أيضاً في استخدام الحركة الجسمية داخل المجتمع الواحد على مقياس الطبقات وعلى مقياس المهن وعلى مقياس اختلاف الجنسين، فالرجال والنساء يمشون ويجلسون ويقفون بطرق مختلفة، كما أن دلالات الحركة الجسمية تختلف باختلاف الثقافات وطبيعة المجتمعات، فعلى سبيل المثال: ابتسام أنسة لرجال غرباء في بيئة معينة قد يدل دلالة، على حين يكون غير مقبول في بيئات أخرى .. وهكذا. كما أن "الابتسام" كحركة بيولوجية تحمل معنى معين يختلف تبعاً لاختلاف الموقف نفسه، فهو قد يعنى في بعض المواقف "السرور" أو "السخرية" وقد يكون دليلاً على "رقة" إنسان وأخلاقه الطيبة .. الخ لذلك هو جزء من نظام لا يمكن درسه إلا في إطاره الاجتماعى[2].

---

(١) جمع Barton Jones أهم أبحاث بيردوسل في كتاب بعنوان:
"Kinesics and Context. Essaues on Body Motion Communication. U. of Pennsylvania Press. 1970.

(٢) عبده الراجحى، اللغة وعلوم المجتمع، مرجع مذكور، ص ٤٥ ـ ٤٦.

وأخيرا نستطيع القول أن الحركات الجسمية المصاحبة للغة في كثير من المواقف هى نظام اجتماعى شأنه شأن اللغة، تؤخذ بالاكتساب كما أنها يمكن أن تكون خلاقة ومنتجة لأنها تتكون من تراكيب حركية لا تدخل تحت حصر، وإن دراستها وتحليلها لا يمكن أن يفهم دقيقا إلا من خلال وصفها في "سياق حدوثها" .. وفى النهاية نعتبر أن اللغة والحركة الجسمية عنصران متكاملان لا يستغنى أحدهما - في الأغلب - عن الآخر، وهما يشكلان أهم عناصر الاتصال الانسانى، ويؤكد العالم الانثربولوجى "بيردوسل" على ذلك فيقول:

"إن اللغة ليست نظاما كاملا مستقلا، والحركة الجسمية ليست نظاما كاملا مستقلا كذلك، ولكنهما نمطان من النظم الاتصالية الدنيا، وأنهما إذا ارتبطا بكل الأنماط الحسية الأخرى فإننا يمكن أن نصل إلى معنى النظام الاتصالى الحقيقى"(١).

ومن ثم فاللغة وسيط حتمى للاتصال الإنسانى، فباللغة يستطيع الإنسان أن يجرد هذا الوجود المادى والإنسانى في خصائص وعلاقات وقوانين، وأن يتحقق له الوعي بهذا الوجود والتحكم فيه على أساس انعكاسه في عقله في شكل رموز وكلمات، وباللغة ينتقل الإنسان من معرفة مبعثرة بعناصر الوجود إلى الانعكاس المعجم Generalized Reflection كما أن بقدر ما يملك الإنسان ناصية اللغة يكون في إمكانه خلق الاتصال وتوصيل ما يدور في ذهنه من أفكار وآراء، كما أنها هى الوسيلة التى تمكنه من التوحد مع الثقافة التى ينتمى إليها، والارتباط عضويا بالمجتمع الذى يعيش فيه، وليس أدل على صحة ذلك من الصراع القائم الآن في بعض الدول

(1) Birdwhistell, "Kinesics and Context" (Body Motion Communication" U. Of Pennsylvania Press, 1970, p. 124.

المتقدمة مثل كندا وبلجيكا نتيجة للاختلافات اللغوية بين قطاعات المجتمع المختلفة، ففى هاتين الدولتين بالذات نجد أمثلة حية للأقليات التى تعتقد أن ثقافتها، وبالتالى كياناتها ذاتها مهددة بخطر الزوال والاندثار، نظرا لأن تعليم لغاتها الخاصة يحتمل مركزا ثانويا بالنسبة للغة الأساسية السائدة في الدولة، كذلك مما له دلالته في هذا الصدد ما تلجأ إليه بعض المجتمعات للتعبير عن معارضتها للسياسة التى تنتهجها إزاءها بعض الدول الأخرى، فتحرم تدريس لغاتها في مدارسها، أو تحرق كتبها ومنشوراتها المختلفة، وهذه عملية رمزية تعبر عن الرفض والقطيعة عن طريق القضاء على أداة الاتصال، ومثل هذا الاجراء الرمزى ليس قاصرا على مجتمعات العالم الثالث أو المجتمعات المستضعفة فقط، وإنما نرى بعض الدول الغربية ذاتها تلجأ إليه، وذلك مثل:

ما لجأت إليه فرنسا وبلجيكا بعد الحرب العالمية الأولى من منع تدريس اللغة الالمانية في مراحل التعليم العام في مناطق الالزاس Alsace ومالميدى Malmedy. وذلك لكى تقضى[1] على أداة الاتصال (اللغة

---

(١) لقد تكلم الأدب العربى أيضا عن استخدام أعضاء الجسم في الدلالة، ولم يكن ذلك درسا للحركة الجسمية، وإنما هو تعبير لغوى عنها، مثال لذلك ما قدمه "الثعالبى" عن كيفية النظر وهيئاته في اختلاف أحواله" فقال:
"إذا نظر الإنسان إلى الشئ بمجامع عينه قيل رمقه، فإن نظر إليه من جانب إذنه قيل لحظه، فإن نظر إليه بعجلة قيل لمحه، فإن رماه ببصره على حدة نظره قيل حدجه بطرفه". (الثعالبى، فقه اللغة - المطبعة الأدبية بمصر، ص ٨٢).
ومن قبل عرض الجاحظ لتأثير حركة الجسم أو الاشارة عموما على الدلالة فقال:
"قد قلنا في الدلالة باللفظ، فأما بالاشارة: فباليد وبالرأس وبالعين وبالحاجب، إذا تباعد الشخصان وبالثوب وبالسيف، وقد يتهدد رافع الصوت والسيف فيكون ذلك زاجرا رادعا، ويكون وعيدا وتحذيرا، والاشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هى له، ونعم الترجمان هى عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغنى عن الخط". (الجاحظ، البيان والتبيين ١ ٧٩ ٨٠).

الالمانية) مع جمهورية فايمار Weimar [١].

وما تقوم به اللغة من اتصال وتصميم وأهمية كل منهما في حياة الإنسان، جعلت "ل. فيجولسكى" أن يقول في كتابه "التفكير واللغة":

"إن وظيفتا اللغة بالاتصال والتعميم وما يقوم بين هاتين الوظيفتين من تفاعل إنما يثرى دور اللغة في حياتنا".

فالوظيفة الأولية للكلام واللغة هى الوظيفة الاتصالية، وهى وسيلة المعاشرة الاجتماعية، ووسيلة التعبير والفهم ... لذلك يقول العلماء: "أن اللغة وسيلة للتعبير عن الأفكار والعواطف والرغبات" مثال لذلك - العالم "هنرى سويت" الذى يقدم نوعا من النظرية الكلاسيكية في اللغة، فيقول:

"اللغة هى التعبير عن الأفكار بواسطة الأصوات الكلامية المؤتلفة في كلمات".

والعالم اللغوى "أدوارد سابير" يذهب نفس المذهب، إذ يقول:

"اللغة وسيلة إنسانية خالصة وغير غريزية إطلاقا لتوصيل الأفكار والانفعالات والرغبات عن طريق نظام من الرموز يصدر بطريقة ارادية"[٢].

ولكن يجب أن نقف هنا لنقول أن الأفكار والانفعالات والرغبات مصطلحات منقولة من دراسات أخرى غير لغوية في أصلها، ولو جاز الكلام في بعض استعمالاته تعبيراً عن الفكر، فهو ليس كذلك في جميع

---

(١) أحمد أبو زيد، مجلة عالم الفكر، مجلة دورية، المجلد الحادى عشر، العدد الثانى، ١٩٨٠، مقالة بعنوان "الاتصال"، ص ٣٢٧.

(٢) محمود السعران، اللغة والمجتمع رأى ومنهج، المطبعة الأهلية، ١٩٥٨، ص ٤ - ٥ل . عنى

استعمالاته، فليس مثلاً ثمة توصيل للأفكار أو تعبير عن الأفكار في لغة التحيات أو لغة التأدب أو التدريب العسكرى، ولكن أصحاب الآراء السابقة يرون في النهاية أن الوظيفة الأساسية للغة هي كونها وسيلة من الاتصال أو التعبير عن طريق الأصوات الكلامية. ولكنا لا نعتبر هذا تعريفاً صادقاً للغة، حيث أن دراسة الأنواع المختلفة للوظائف الكلامية في لغة من اللغات الحية لا يؤيد هذا التعريف السابق، ولقد كان العالم الانثربولوجى "مالينوفسكى" هو صاحب الفضل الكبير في تغيير النظر إلى اللغة، فقد أدرك عندما كان يدرس بعض المجتمعات البدائية، أن دراسته لن تصح دون معرفة "الوظيفة" التى تقوم اللغة في المجتمع، ومن هنا كانت نظريته الهامة في اللغة، حيث توصل إلى أن:

"وظيفة اللغة ليست مجرد وسيلة للتفاهم أو للتوصيل بل وظيفة اللغة هى كونها حلقة في سلسلة النشاط الانسانى المنتظم، هى جزء من السلوك الانسانى، إنها ضرب من العمل وليس أداة عاكسة للفكر"(١).

واستعمال اللغة على هذه الصورة ليس قاصرا على الجماعات البدائية، وإنما يلاحظ في أرقى المجتمعات تقدماً، فهناك أنواعًا من وظائف الكلام تبين بوضوح أن الوظيفة الأساسية للغة ليست توصيل الأفكار فقط، ومثال لذلك: استعمال اللغة فيما يسمى بالسلوك الجماعى، فاصطناع اللغة في الاجتماعات الدينية كالصلاة والدعاء ومخاطبة الله أو أى كائنات أخرى مقدسة أبعد من أن يعد نقلاً للفكر، كذلك فإن ملاحظة استعمال اللغات في المخطابات الاجتماعية التى لا تستهدف غاية مثل لغة التحيات مثلا، أو

---

(١) المرجع السابق، ص ٦.

الكلام عن ظاهرة الجو تؤيد وجهة النظر التى تقول أن تبادل الكلمات يمكن أن يكون غاية في نفسه.

ومن هنا يتضح لنا أن هذا الاستعمال للغة هو في أساسه صورة من صور العمل الاجتماعى، ووسيلة من وسائله وذلك لأن كل كائن بشرى يجد في نفسه الميل إلى الاجتماع بسواه والاستمتاع بصحبة غيره، والنفور من الجليس الصامت والكلام أقرب مستلزمات تحقيق هذا الميل، كذلك نجد أن اللغة في بعض الأحيان تستعمل لاخفاء أفكار الإنسان كما يحدث مثلا في لغة اللصوص والخارجين على القانون بصفة عامة، ومن ثم فهى ليست دائما معبرة عنه(١).

إذن النظرة الكلاسيكية في اللغة والتى تقصر وظيفتها على توصيل الفكر نظرية لا تمكننا من أن نملك جميع أشكال السلوك الكلامى، فاللغة ينبغى أن ننظر إليها دائما على أنها "وظيفة اجتماعية" وننظر إلى الدور الذى تقوم به في حياة الفرد، وفى حياة الجماعة وفى حياة النوع الإنسانى بصفة عامة حتى يمكن أن نفهم طبيعة اللغة وجوهرها حق الفهم.

---

(١) المرجع السابق، ص ٧.

الفصل الرابع

اللهجة في المجتمعات

- مقدمة.
- مفهوم اللهجة.
- كيف يدرس الباحث اللغوى الانثربولوجى اللهجة في المجتمع.
- طريقة اكتساب الطفل للهجة في بيئة خاصة.
- أسباب نشأة اللهجات:
    - لهجات محلية.
    - لهجات اجتماعية.
- محاولة انشاء لغة عالمية لا يمنع من التعدد والانقسام.
- الخلاصة.

مقدمة:

اللغة كما عرفناها من قبل هى نظام اجتماعى كالدين والزواج والحكومة، لذلك فهى خاضعة لتأثير الزمان والمكان، أو هى ظاهرة من ظواهر المجتمع الديناميكية، وتلعب الثقافة والبيئة دوراً هاماً في تغير اللغات وانتشارها وتشعبها إلى فروع.

فالفروق الثقافية بين الجماعات والثقافات المختلفة تميل إلى أن تتبع خطوطاً لغوية، كما أن التشابه في اللغة يميل إلى أن يدعم التشابه في السلوك الأجتماعى، فعلى سبيل المثال نجد اللغة العربية في مقدمة المقومات التى تقوم عليها القومية العربية، وكذلك نجد أن الأمريكان يشعرون بتقارب نحو كندا وإنجلترا أكثر من البلاد الأخرى وذلك بسبب استخدام اللغة الإنجليزية كلغة مشتركة على الرغم من الاختلاف في أسلوب نطقها ... وذلك على عكس الحال تماماً في البلاد المجزأة لغوياً، كالهند وبلجيكا ونيجيريا، فنراهم يرتطمون بمشكلات مستمرة تتعلق بالحفاظ على الوحدة القومية لأن الفروق اللغوية تدعم وتضخم الفروق الثقافية[1].

وهناك فرق بين لغة الأمس ولغة اليوم، فكم من الفرق بين ما روى لنا من خطب أبى بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما من أحاديث وعبارات، وبين كلام ابن المقفع والجاحظ في كتاباتهما، بل ما أكثر الفرق في عصرنا هذا بين الأساليب في أول ظهور النهضة العلمية وبين الأساليب اليوم[2].

---

(١) طلعت منصور، مقالة بعنوان: سيكولوجية الاتصال، عالم الفكر، مجلة دورية، المجلد الحادى عشر، العدد الثانى، ١٩٨٠، الكويت، ص ١٢٥.

(٢) عبد الحليم النجار، العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، مترجم، عن كتاب "يوهان فك"، مطبعة دار الكتاب العربى، ١٩٥١، ص . ق.

وكل لغة في مجتمع ما تعبر وتفى باحتياجات مـن يتكلـم بـها داخـل مجتمعه، فالثقافة تختلف من مجتمع لآخر، وكل مجتمع تتكون حصيلة لغتـه من مصطلحات وألفاظ تعبر عن بيئته وسلوكه ونظام حياته وخبرته الثقافية. وتتضح اللغة كركيزة للهوية الثقافية ودالة لها في الثقافات الفرعية في المجتمع، فالطبقات الاجتماعيـة، الفئـات المهنيـة، الريـف ـ الحضـر ـ السواحل ـ الدواخل .. وغير ذلك يؤثر في طريقة وأسلوب استخدام اللغة المستعملة، فنحن نستطيع أن نحكم على شخص متحدث بأنه ينتمى مثلا إلى الطبقة الوسطى أو الدنيا من خلال طريقته في الحديث واستخدامه للكلمات، وطريقة التلفظ، والنحو وما شابه ذلك[١].

لذلك لغة الفرد هـى نتـاج لخبرتـه ووعـاءه الثقـافى، ومـن ثـم فـهى تتباين وتختلف باختلاف الثقافات في المجتمع الواحد، هذا الاختـلاف يطلـق عليه اللغويون مصطلح "اللهجة" وهى موضوع بحثنا في هذا الفصل.

وتلعب اللهجة داخل المجتمـع دوراً كبيراً فـي حيـاة أفرادهـا، فـهى تمثلهم تكنيكيا، وكل اللهجات لغات، وتتباين وتختلـف تبعـاً للثقافـة السـائدة، فهى جزء من تلك الثقافة، ومتغيراً مصاحباً لـها، والاختلافـات اللغويـة فـي المجتمع الواحد تكون نتاج التعدد الثقافى الموجود فـي ذلـك المجتمـع، وكـل فئة ثقافية معينة لديها طرقها الخاصة في التعبير عن نفسها. هذه الاختلافات في اللغات فـي المجتمـع الواحـد، أصبحـت موضـوع اهتمـام ومحـط أنظـار معظم العلماء الانثربولوجيين الذين يهتمون بدراسة اللغـة فـي المجتمعـات، فأصبح هدف الباحث اللغوى معرفة كيف تتباين اللهجات وما هـى العوامـل

(١) طلعت منصور، سيكولوجية الاتصال، مرجع مذكور، ص ١٢٦.

المؤثرة في قيام لهجة ما، وكيف تلعب الثقافة دورا هاما في نشأة وقيام لهجة معينة[1].

وفى هذا الفصل سأقوم بالقاء الضوء على مفهوم اللهجة لدى العلماء، وكيف يدرس الباحث اللغوى الانثربولوجى اللهجة في المجتمع، كما أننى سأتناول العوامل التى تسبب قيام اللهجة داخل المجتمع، وكيف تؤثر البيئة والثقافة على لهجة الأفراد، وذلك كله حتى أقف على هدف الدراسة الأساسى وهوان الثقافة ومكوناتها هى وراء ما يحدث للغة من تغيرات عديدة، فاللغة هى وعاء الثقافة، ومن ثم فإن هذا الوعاء يصب مادة معبرة تماماً عن تلك الثقافة، والتى تكون بمثابة الصاحب الأصلى لذلك الوعاء.

والحديث عن اللهجات حديث طويل، وفيها أبحاث غير قليلة، وهو بطبيعته بحث على أساس علمي دقيق، ويعتبر من أقرب الأبحاث لطبيعة اللغة، فهو يدخل في اهتمام اللغويين ودارسين العلوم الإنسانية على السواء، وسنبدأ حديثنا عن ذلك الموضوع، بتعريف أولا ما هى اللهجة .

مفهوم اللهجة:

هناك اتجاهان متعارضان في تفسير حياة اللغة:

أحداهما نحو الوحدة المتزايدة والاتساع، والثانى نحو التقسيم إلى لهجات.

ويرى اللغويون أن الاتجاه نحو التقسم أقوى من الاتجاه نحو الوحدة، وهذا الاتجاه هو ما يعنينا في بحثنا هذا ... إن اللغة في إنقسامها إلى

---

(1) Ronald W.. Cassen "Language. Culture and Cognition", Mac Publ Co Inc., 1981, New York, P. 636

لهجات تشبه تلك الشجرة التى تتدلى فروعها إلى أسفل فتلامس التربة وترسل إلى الأرض جذورا تصبح أشجاراً فيما بعد وقد تموت الشجرة الأم ولكن من فروعها تنشأ أشجارا جديدة، ونحن هنا إذا قلنا أن اللغة تموت، فإنما نقصد التغير الكلى الذى يطرأ على المجتمع والتبدل الجذرى في محيط الحياة الذى يؤدى بدوره إلى تغير اللغة فيه[1].

واللغة الواحدة تتنوع حسب الفئات والطوائف والجماعات، وحسب ظواهر المجتمع وحسب اختلاف المكان، فاللغة تختلف في المدينة الواحدة، بل وتختلف من إقليم إلى إقليم، وهذا الاختلاف يظهر في البيئات التى استقر فيها السكان منذ زمن بعيد، ويعبر هذا الاختلاف اللغوى عن الاختلاف الثقافى للفئات والجماعات في كل إقليم منهم، وهذا الاختلاف اللغوى يطلق عليه اسم "اللهجة"[2].

ولنتساءل هنا ما الفارق بين اللغة واللهجة؟؟ .. لا شك أن هناك فرق في الحجم بين الاثنين، فاللغة أكبر من اللهجة، حيث أن اللغة تحتوى على بنود أكثر من تلك التى تحتويها اللهجة، وهناك أيضاً اختلاف في مسألة الاعتبار، فاللغة لها اعتبار وهيبة ينعدم وجودها في اللهجة، واللهجة هى عبارة عن تلك المتغيرات التى تحدث للغة الأساسية التى تنتمى إليها تلك اللهجات[3].

---

(١) أنيس فريحه، محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها، معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٥، ص ٣٩.

(٢) عبده الراجحى، اللغة وعلوم المجتمع. كلية الاداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٧٧، ص ٧١.

(3) R. A. Hudson, Sociolinguistics, Univ. of Cambridge, 1980, London – New York, p. 32.

وعلى الرغم من ذلك فإن علم اللغة لا يفرق مبدئيا بين الاثنين، أى بين لهجة Dialect ولغة Literary Language، فكل لهجة هى لغة قائمة بذاتها، بنظامها الصوتى وبصرفها وبنحوها وبتركيبها وبمقدرتها على التعبير، وقد يعترض أحد الناس على هذا الزعم بقوله أن الفرق بين لهجة ولغة هو في الأدب، فاللغة هي التى لها أدب، أى أن الأدب مقياس للتفرقة ولكن هذا الزعم غير دقيق[١] فلهجات الزنوج والهنود الحمر على سبيل المثال لها أدبها وشعرها ونثرها وأساطيرها، وقد يختلف هذا الأدب في غناه الروحى والجمالى عن آداب الشعوب الراقية، ولكن ذلك راجع لأثر الثقافة في المجتمع.

وقد يقال أيضا أن الفارق بين اللغة واللهجة هو أن اللهجة تقهقر وانحطاط لغوى من لغة فصحى، وقد وقع في مثل هذا الوهم لغويو العرب قديما وحديثا، فهم ينظرون إلى العامية على أنها انحطاط وتقهقر، ولكن الدراسات أثبتت غير ذلك، فاللهجة ما هى إلا تطورا لغويا فرضته النواميس الطبيعية التى تتحكم بمصير كل لغة، وأفضل دليل على أن اللهجات ليست انحطاطا لغويا هى كون بعضها سابقا في الزمن للغة الفصحى، مثال ذلك: أن لهجة الالمان في سويسرا وألمانيا الالزاس هى أسبق في الزمن من لهجة هانوفر التى اعتبرت بعد ترجمة التوراة لغة المانيا الفصحى[٢].

والحقيقة أنه لا فارق جوهرى بين لهجة ما ولغة ما، وإنما الفارق هو أن لهجة ما ولسبب خارجي ولظروف خاصة تعتبر لغة قومية رسمية، بينما لهجة أخرى وربما أفضل منها لا يعترف بها، فلو أن التوراة الالمانية

---

(١) أنيس فريحة، محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها، مرجع مذكور، ص ٤٠.
(٢) المرجع السابق، ص ٤١.

ترجمت إلى لهجة برلين، لكانت لهجة برلين الألمانية هى الفصحى، لا لهجة هانوفر[١].

لا شك أن تلك الاختلافات راجعة أساسا إلى عدة عوامل ثقافية تصبح بمثابة مؤثرات فعالة تكمن وراء ذلك التغير، فالنسق الثقافى بما يحوى من أنماط وجوانب ثقافية ودينية واجتماعية واقتصادية ومعرفية .. الخ يؤثر كل ذلك في اللغة تأثيرا كبيرا، فتلك الجوانب المختلفة من الحياة تتعرض للتغير والتطور، وهذا التغير إنما يمس على الفور الأداة المعبرة عنه وهى اللغة، فهذه النظم والانماط تعد اللغة بمصطلحات وألفاظ جديدة تعمل على إضافة الجديد في حصيلة اللغة، ومن ثم يطرأ التغير، وكما قلنا دائماً أن الثقافة هى المتغير المستقل والأساس واللغة هى المتغير المصاحب والتابع لها.

فاللغة لابد أن تتغير، فهى عندما تتجمد تصبح عادات وتقاليد وأساطير وخرافات متوارثة، لذلك يقال أنها لغة متخلفة، وعندما تنمو وتتطور تصبح اختراعات وتجديدات وابتكارات وفن وأدب، لذلك تعبر عن التقدم.

هذه التغيرات العديدة، وانقسام وتفرعات اللغة إلى لهجات، وتباين تلك اللهجات بتباين الثقافات يستدعى دراسة وصفية دقيقة، فهذه الاختلافات العديدة تجعل اللغوى يصب عمله على عملية وصف وتحليل الظواهر اللغوية ووصف وتحليل اللهجات، وهذا يعتبر ميداناً هاماً من ميادين البحث اللغوية يقتضى جهداً واسعاً وتنويعاً في أدوات البحث.

ولنتساءل هنا:

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٢.

كيف يدرس الباحث الانثربولوجي اللهجة؟؟

إن دراسة اللهجات فرع من فروع اللغة يعرف باسم: الدياليكتولوجيا Dialectologic وقد كان مهملاً كل الاهمال قبل أواخر القرن التاسع عشر لأسباب كثيرة منها على سبيل المثال إن العلماء كانوا يحاربون اللغات العامية، ويرون فيها مصدر خطر على الأدب، وإن دراسة اللغات الشعبية والعامية كانت تتطلب الاسفار والرحلات والاختلاط بسكان الريف، وعلماء اللغة في ذلك العصر كانوا يفضلون الدراسة الهادئة في المكاتب[1].

ولم تبدأ العناية بتلك الشعبية إلا من عهد قريب، فقد تنبه العلماء إلى أهمية اللهجات في المجتمع، فبدأوا في إنشاء معاهد للأبحاث اللغوية بعضها يسجل اختلاف اللغات واللهجات وبعضها يتجه إلى رسم خرائط لايضاح كيف تعبر كل بلد مثلاً عن المعنى الواحد بألفاظ مختلفة، وحتى وإن أتحدث في الألفاظ فكيف تعبر عنها مع اختلاف النطق بها[2].

ولكن على الرغم من التأخر في الاهتمام بهذا الفرع، إلا أن الدراسة فيه خطت بسرعة فائقة، ويرجع الفضل في ذلك إلى طائفة من أعلام الباحثين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، ومنهم على سبيل المثال: "جاستون باريس" وهو أول فرنسي نادى بوجوب دراسة اللهجات الشعبية كوسيلة للكشف عن الثقافة الشعبية في المجتمع، كما قام بدراسة اللغات العامية كجزء من التغيرات والتفرعات التى تحدث في اللغة الاساسية، كما قام بعض الأساتذة الفرنسيون مثل "انطوان توماس"

---

(١) على عبد الواحد وافى، علم اللغة، مطبعة الاعتماد بمصر، ١٩٤٤، ص ٤٧.

(٢) عبد الحليم النجار، العربية دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب، مرجع مذكور، ص ١٧.

و"البرت دوزا" بدراسة كثير من اللغات الشعبية الأوربية وأيضا اللهجات الفرنسية[1].

ثم بدأت دراسة اللهجات تأخذ وضعها الصحيح بعد ذلك خاصة في القرن العشرين، واعتبرت بعد ذلك هذه الشعبة من أهم شعب علم دراسة اللغة .. وفى الفترة الأخيرة بدأ طلاب الانثربولوجية ودراسة المجتمعات الانسانية يهتمون اهتماماً كبيراً بدراسة لهجات المجتمع للكشف عن الثقافة التى تدور في إطارها تلك اللهجات. والباحث اللغوى الانثربولوجى يتبع في ذلك الطريقة الانثربولوجية المتبعة في دراسات المجتمعات إلى جانب بعض الأساليب الأخرى التى تفرضها عليه الدراسات اللغوية ومناهج دراسة اللهجات. والخاصية الأساسية المشتركة بين كل الدراسات الانثربولوجية الآن هى أن تكون دراسته دراسة تكاملية، وتتطلب هذه الدراسة أن يقصر الباحث اهتمامه على مجتمع معين وثقافة واحدة بالذات، بغية دراستها دراسة مركزة حتى يمكنه الوقوف على مكونات الثقافة وأثرها على بقية نواحى النظم وأوجه الحياة الأخرى، وبعد الكشف عن تلك المكونات يبدأ في تحليلها ومعرفة العلاقات التى تربط بينها وبين بقية النظم الأخرى في المجتمع .. ولتحقيق ذلك لابد للباحث الانثربولوجى أن يتصل اتصالاً مباشراً بالمجتمع الذى يدرسه، وهذا معناه الدراسة الحقلية Field Work التى تعتبر شرطا جوهريا في الابحاث الانثربولوجية، وتتوقف الدراسة الحقلية الناجحة على أمرين، الأول يتعلق بحجم المجتمع المدروس فكلما صغر حجم المجتمع وتحددت رقعته وتميزت معالمه سهل على الباحث اللغوى الانثربولوجى تتبع نظمه ودراسة ثقافته وتغطية معظم اللهجات المستخدمة فيه، والأمر الثانى يتعلق بالمدة التى يمضيها الباحث

---

(١) على عبد الواحد وافى، علم اللغة، مرجع مذكور، ص ٤٨.

اللغوى الانثربولوجي في المجتمع الذى يدرسه، فكلما كانت المدة طويلة كلما سهل على الباحث فهم اللهجات واللغات المستخدمة، كما يمكنه وضعها دائما في سياقها الثقافى للوقوف على معناها الكامن ودورها الأساسى في حياة أفرادها.

وقبل بداية نزول الباحث اللغوى الانثربولوجى إلى الميدان لدراسة لهجة معينة، ينبغى أن يكون موقفه من عمله موقف العالم المتجرد الموضوعى، فالدراسة التحليلية الوضعية لن تتيسر إلا حين يرتفع الباحث في تفكيره عن مستوى الحقائق والمشاهدات العينية الجزئية، وتتفاوت درجة التجريد من بحث لآخر تفاوتا شديدا، ويرجع هذا التفاوت إلى مدى قدرة الباحث على التحرر من مشاعره الخاصة وتأثراته الشخصية، ويجب أن يتبع في دراسته أسلوب علمى دقيق وذلك لأن نتائج كل نشاط عقلى رهن بمبلغ تملك الموضوع مشاعر الباحث وعقله، وبمبلغ الامانة والدقة في الأسلوب المتبع.

ويسير الباحث في دراسته للهجة عدة خطوات معينة، وهى كالآتى:

الخطوة الأولى: هى اعتراف الباحث وثقته وإدراكه أن اللهجة هى لغة قائمة بذاتها، لها نظامها الصوتى والمعرفى ولها معجمها وبنيانها وأدبها، لذلك يجب أن يدرسها درسا وصفيا تقريريا، وليس درسا فلسفيا، أى ذلك الدرس الذى من شأنه البحث عن العلة والسبب والنتائج وذلك لأننا في حقل اللغة لا نعرف العلة، وإذا اصرينا على معرفة العلة والنتائج نكون قد خرجنا من نطاق البحث العلمى إلى دائرة الحدس والتخمين(١).

(١) أنيس فريحة، محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها، مرجع مذكور، ص ٦٣.

الخطوة الثانية: هى أن يدرك الباحث اللغوى الانثربولوجى جيدا أن اللغة هى مجموعة من الأفعال والأنشطة التى تتمثل في التصرف والقواعد المتبعة في تلك التصرفات، كما ينبغى له أن ينظر إلى اللهجة على أنها جزء هام من سلوك الإنسان داخل المجتمع ويحكمها ثقافة وعرف، وأن المجتمع الذى يدرس لهجته عبارة عن شبكة من العلاقات والنظم والتفاهم بين أعضاءه، وأن الكشف عن أى جانب من تلك الشبكة يستتبعه على الفور معرفة بقية مكوناتها[1]. فالدراسات الانثربولوجية تؤكد على وجود علاقة قوية بين كل نظم المجتمع، وهذه النظم والظواهر تتشابك وتتفاعل مع بعضها البعض، ويؤكد العالم "ريفرز" على ذلك في دراساته لمجتمع التودا بقوله "أن نظم وظواهر الحياة المختلفة في أى مجتمع من المجتمعات تؤلف نسيجا معقدا من الأفعال والممارسات والعلاقات المتداخلة بعضها في بعض بشكل وثيق محكم، إلى حد أننى بمجرد أن ابدأ في فحص أى مظهر واحد من مظاهر الحياة كنت أحصل على معلومات وافية تتصل بنواح أخرى مختلفة كل الاختلاف"[2].

الخطوة الثالثة: هى قيامه بجمع مادة لغوية من البقعة المعنى درسها لغويا، وذلك كما قلنا من قبل عن طريق الدراسة الحقلية الدقيقة، وقد يكون دارس اللهجة من أبناء اللهجة نفسها، فيعتمد على جمع مادته على ما عنده من ذخيرة لغوية، ولكن يخشى في هذه الحال أن تكون لغته قد تأثرت بثقافته وبالبيئة اللغوية التى عاشها في المدينة أو في الجامعة مثلا، وذلك

---

(1) Potter. Simcon. "Language in the Modern World". Penguin Books. Inc. U. S. A. 1960. P. 175.

(2) Rivers (W.H.R.) The Todas. P. 10.

لأن الاحتكاك بلهجات أخرى من شأنه أن يترك أثرا في بعض العناصر اللغوية والمظاهر الصوتية(١).

وجمع المادة اللغوية يتطلب توفير ثلاثة أشياء:

مخبر Informer، مادة Data، أسلوب System.

فأولا بالنسبة للمخبر أو ما يعرف بالمصدر البشرى، فهم أهم ما يعتمد عليه الباحث اللغوى الانثربولوجى في دراسة اللهجات، فهو خير مثال على صفاء اللهجة، ومهمته في البحث أن يقدم أمثلة من اللغة، وأن ينشئ كلاما يطلبه الباحث، ويفسر استعماله باللغة نفسها أو بلغة أخرى .. واختيار المصدر البشرى ليست عملية سهلة، إذ لا يصلح كل متكلم لهذه المهمة، وليس هناك مقياس قاطع في اختياره، فقد يكون شخص مصدرا صالحا عند باحث، وغير صالح عند باحث آخر، والمسألة هنا ترجع إلى ظروف البحث وإلى الباحث نفسه(٢).

غير أن هناك بعض العوامل ينبغى ألا نغفلها في اختيارنا للمصدر البشرى، فمثلا ينبغى أن يكون في حالة صحية مناسبة لا توقعه في النسيان أو الغفلة، وأن يكون لديه من الوقت ما يتيح للباحث أن يلتقى به مدة كافية، ولابد أن يكون متكلما جيدا للغة، فبعض الناس يميلون إلى التحدث كثيرا والبعض الآخر يحب التحدث بافتخار، وبعضهم يتمتع بخيال واسع لخلق موضوعات ومواقف للكلام(٣). والباحثون عن اللهجات لا يكتفون بشخص واحد، فدراسة اللهجات الاجتماعية في تنوعها تقتضى تعدد المصادر البشرية لأسباب كثيرة وهى أن على الباحث أن يحاول الكشف عن

---

(١) أنيس فريحة، محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها، مرجع مذكور، ص ٦٤.
(٢) عبده الراجحى، اللغة وعلوم المجتمع، مرجع مذكور، ص ٧٩.
(٣) المرجع السابق، ص ٨١.

الاختلاف في سلوك الحديث من متحدث إلى آخر ومن وقت إلى آخر، لأننا دائما لا نعبر عن الأشياء بنفس الطريقة، كما أن اختلاف العادات اللغوية الخاصة بالعمر والجنس والعوامل الاجتماعية الأخرى يؤثر في طريقة استخدام اللغة(١).

وعلى الباحث الانثربولوجى الذى يدرس اللغة أن يحاول كسب ثقة المصادر البشرية، وهذه النقطة تعتبر من أهم عوامل نجاح الدراسة الانثربولوجية، فأفراد المجتمع حينما يشعرون بالألفة مع الباحث يتسنى لنا من خلال ذلك الحصول على معظم المعلومات والحقائق التى يريد الوقوف عليها، فعامل الثقة إن وجد يجعل كلام أعضاء المجتمع مع الباحث كلاما تلقائيا وبسيطا وبعيدا عن الاصطناع، وهنا يستطيع أن يأخذ اللهجة من ألسنتهم كما تنطق بالضبط وكما تتداول في المجتمع، كما أن على الباحث أن يحسن اختيار الشخص الذى يستعين به في جمع المادة من حيث أن يكون له القدرة في التحدث بموضوعات كثيرة تتصل بثقافة المجتمع، وذلك لا يعنى أن يكون خبيرا في كل أمور الحياة، ولكن ألا يكون جاهلا بألوان النشاط الرئيسى في المجتمع، ويحسن أن يكون أيضا على قدر من الذكاء وقوة الذاكرة والأمانة(٢).

كما أنه يجب على الباحث أن يقنع راويته أو مصدره البشرى بأهمية ما يقوم به حتى يحثه على التعاون، وأن يعرفه كيفية سير العمل، والطريقة التى ينبغى أن ينطق بها الكلام قبل أن يدونه هو، والمعلومات التى يستطيع أن يضيفها، حتى تأتى مادته دقيقة وقيمة في نفس الوقت(٣).

---

(1) William A.. Haviland, "Çultural Anthropology". U. of Termont. Inc. . New York. Chicago. 1976.

(٢) عبده الراجحى، اللغة وعلوم المجتمع، مرجع مذكور، ص ٨٢.

(3) Samarin. William J.. Field Linguistics. Holt Reinbart & Winston. New York. 1976. p. 48.

وثانيا فيما يتعلق بالمادة التى يجمعها الباحث فقد تكون أقاصيص وأشعارا عامية وخرافات وعادات ومعتقدات، وقد يترك الباحث الخيار "للراوى" أو يقترح عليهم الموضوعات ولكن يجب عليه انتقاء المواضيع التى تكشف عن ثقافة المجتمع وأثرها على اللهجات التى يدرسها.

وثالثا فيما يتعلق بالأسلوب المستخدم في الدراسة، فالباحث يعتمد على التسجيل الآلى، فقديما كان دارس اللغة يلجأ إلى التسجيل المعتمد على المشافهة، وكان الدارس يصغى إلى الحديث ويدونه برموز فونتيكية، ولكن الأن توجد تلك الألة التى تسجل الأصوات تسجيلا دقيقا على خلاف ما كان يحدث قديما من أن الإذن قد تخون صاحبها فيفوته ألفاظ وأصوات معينة بل وقد تخونه أعضاء النطق فيعجز عن ترديد ما سمعه بدقة وضبط[1]، على الرغم من أن هناك من يفضل عدم الاستعانة بتلك الألة، فالأذن المدربة تدريبا علميا صوتيا أفضل من آلات التسجيل، وذلك لأن جهاز التسجيل نفسه قد يكون سببا في عدم الحصول على مادة علمية ولغوية صحيحة، لأن كثيرا من الناس يغيرون حديثهم الطبيعى حين يرون أنفسهم أمام أجهزة التسجيل[2].

ويستعين الباحث أيضا في دراسته بالاستبيانات المكتوبة والقراءات الخاصة بثقافة المجتمع الذى يدرسه، حتى يمكنه الوقوف على مكونات تلك الثقافة، والتغيرات التى تحدث فيها وأثر كل ذلك على اللغة السائدة.

وفى النهاية يمكننا القول أن منهج الدرس اللهجى كما يطبق الآن في علم اللغة الاجتماعى هو منهج ضرورى وهام وذلك لأهميته وصلته

---

(١) أنيس فريحة، محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها، مرجع مذكور، ص ٦٥ - ٦٦.

(٢) عبده الراجحى، اللغة وعلوم المجتمع، مرجع مذكور، ص ٧٩.

بالواقع الحى لفهم خصائص اللهجات المختلفة المتباينة في المجتمع، وأيضا لإمكانية الوقوف على مميزات وخصائص اللغة الانسانية على العموم .. كما أن هذا المنهج يعطى للباحث اللغوى الانثربولوجى الفرصة الكافية للتعرف على لهجات المجتمع وربطها بالعوامل الثقافية المرتبطة بها، ومعرفة التغيرات التى تطرأ على كل من الثقافة واللهجة التابعة لها في أى مجتمع إنسانى.

ولكن الوقوف على خصائص ومميزات لهجة ما، ليس كافى في الدرس اللهجى، بل ينبغى أن يتطرق بنا الأمر لمعرفة كيف تنشأ اللهجة عند الطفل في بيئة معينة؟ وكيف يكتسب الإنسان لهجة مجتمعه فتصبح بعد ذلك لغته ووسيلته الرئيسية في التعبير، يشعر بالاعتزاز نحوها، ويشعر أنها جزء من كيانه وشخصيته الاجتماعية والثقافية، فاللغة عنصر دال للهوية الثقافية للجماعات الاجتماعية ولأعضاء هذه الجماعات، فكل فرد منا يعتز بلهجته الخاصة به وبجماعته، وبالبلد التى ينتمى إليها، ومهما تعددت معرفتنا للغات، إلا أننا نجد أننا في النهاية نرجع إلى لهجتنا الخاصة بنا، حيث نشعر من خلالها أنها ملك لنا وسمة مميزة من سماتنا، وإذا رأينا غيرنا يتكلمونها ويخطأون فيها نغضب لذلك كثيرا، فهى جزء من كياننا، نحافظ عليه ونعمل على تطويره بل ونفخر بها في كل مجتمع وفى كل وقت.

فنحن نكتسبها من المجتمع منذ مولدنا، وتكبر معنا، ونزيد من ألفاظها ومصطلحاتها على قدر ما نستطيع كلما تقدمنا في العمر. لذلك معرفة كيف نكتسب اللهجة تعتبر جزءا هاما في دراسة اللهجات اللغوية، ولايضاح ذلك سأعطى مثلا عن كيف يكتسب الطفل لهجة جماعته في بيئة معينة ..

نشأة اللهجة عند الطفل في بيئة خاصة:

سأتناول في هذا الجزء كيفية اكتساب الطفل للهجة في مجتمع البداوة، على اعتبار أنها بيئة لها لهجتها الخاصة بها، والتى تلعب النظم والتقاليد والأعراف البدوية دورا كبيرا في انتقاء ألفاظها ومصطلحاتها.

لقد جاء الإسلام قديما فشهد في جزيرة العرب بيئتين متمايزتين، بيئة بدوية متوغلة في البداوة، وأخرى حضرية اتسمت بالاستقرار في المدن والقرى.

وحياة البداوة شائعة في وسط الجزيرة، والبدو في هذه المناطق لا يستقرون في مكان بل ينتقلون في أرجاء تلك الصحارى الشاسعة ويرحلون من مكان إلى مكان طلبا للرزق وقد ألفوا حياة الخيام، كل هذا بطبيعته كان له صدى في نطقهم للغة العربية [1]. فاللسان العربى هو اللغة العربية بالمفهوم المتسع، وقد تبلبل هذا اللسان فاستوعب لهجات مختلفة عرفت كل واحدة منها بأنها لغة، فنقول مثلا لغة السواحل، لغة تميم، لغة البدو.

والبدو يعيشون نمط حياة معين، هذا النمط من الحياة أمد لغتهم بكثير من الألفاظ والمصطلحات غيرت كثيرا في حصيلة اللغة العربية عندهم ومعظم الدارسون جميعا يلتمسون الأصول اللغوية في عصور البداوة الأولى، ويحاولون التقاط مفرداتها وتراكيبها، والمتخصصون في الثقافة يرون أن القبيلة كانت المنطق الأصيل لكثير من المقومات والعلاقات في مجتمعاتنا المتحضرة المعاصرة، وذلك لأنها هى القاعدة المكيفة للنظام الاجتماعى وذلك لأنها باعتبارها أكبر مستودع وناشر لثقافة موحدة

(١) عبد العزيز مطر، لهجة البدو في ساحل مريوط، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، ١٩٦٧، ص أ (مقدمة إبراهيم أنيس).

متجانسة، تتألف من جماعة من الناس لهم نفس التقاليد، ويحكمهم نفس العرف .. كل هذا ينطبق تماما على المجتمع البدوى، فهو مجتمع قبلى ينشعب إلى وحدات اجتماعية أصغر، وهى البطون والافخاذ والبيوت، وتصدر في سلوك الأفراد والعشائر شعور قوى بالانتماء والعصبية، وكل من يتجرأ على التحلل من التقاليد أو التخلص من العرف تحكم عليه القبيلة بالجزاء[1]. واللغة بما تحمل من قدرة على إبراز شارة القبيلة تعتبر هى المعيار الأول والأكبر لتلك الثقافة الخاصة، فهذه اللغة حصيلة خبراتهم وثقافتهم، كما أن المعجم اللغوى الخاص بهم يختزن تجاربهم ومعارفهم ويضم الجديد من المصطلحات والتعابير الخاصة بمكونات ثقافتهم.

وقد كان العرب يعتبرون البدو حجة لا يعتريها الشك في جميع مسائل اللغة، وأصبحت عربية البدو هدفا لدراسة كثير من الباحثين العرب، حتى إن علماء العربية في الأمصار نسبوا الفصاحة والبلاغة للأعراب الجفاة الذين كانوا يوفدون إلى الأمصار، وحجتهم في ذلك أن أهل الأمصار لاختلاطهم بالعناصر الأجنبية، وبعدهم عن مصر العربية قد فسدت لغتهم، أو على الأقل ليسوا على مستوى واحد من الفصاحة مع البدو، وذلك لأن علماء العربية من القدماء كانوا يربطون بين السليقة اللغوية والجنس العربى ربطا وثيقا، ويرون أن الأعراب لانعزالهم في الجزيرة قد احتفظوا بكل صفات الفصاحة، فكأنهم قد ورثوها عن آبائهم وأجدادهم من أصحاب اللغة، أو كأنما كانت تلك الفصاحة العربية تمتزج بحياة الخيام ورحال الصحراء[2].

(١) عبد الحميد يونس، عالم الفكر، مجلة دورية، المجلد الثانى، العدد الأول، أبريل ١٩٧١، مقالة بعنوان "اللغة الفنية"، ص ٩.

(٢) عبد العزيز مطر، لهجة البدو في ساحل مريوط، مرجع مذكور، ص ؟؟؟؟ ج ؟؟؟؟

وفى مصر نجد أن لهجات البدو تتمثل في جماعات البدو التى تعيش في كل من صحراء مصر الغربية، وصحراء مصر الشرقية، وكل بيئة من هذه البيئات على الرغم من انتمائهم إلى حياة البداوة، إلا أننا نجد بعض الفروق في حياة كل منهم تبعا للبيئة الجغرافية والثقافية التى تسود في مجتمعهم، لذلك يستتبع ذلك بالضرورة اختلافا في بعض مصطلحات وألفاظ لهجة كل منهما، على الرغم من انتمائهم الاثنين إلى ما يعرف "بلهجات البداوة". والذى يهمنا هنا لسان الطفل يولد في تلك البيئة (البداوة) فيجد أمامه حياة الترحال ورعى الاغنام، وما تفرضه البيئة من جفاء ومناخ قارس وموارد رزق محدودة في الصحراء قد جعلت لجماعته لهجة خاصة فرضتها عليهم ظروفهم وتقاليدهم وأعرافهم التى ورثوها عن أجدادهم.

إن الطفل يبدأ في تعلم لغة جماعته، وما يعينه على ذلك قدرته الفائقة على التقليد، وشدة تطلعه، وما يجده من عناية من حوله من الكبار خاصة الأم، فالأم تظل تناغيه وتكرر على مسمعه الكلمات، والجمل والعبارات التى تعودتها في بيئتها، وهكذا يسمع الطفل الكلمات مرات ومرات بطريقة محببة، والطفل يجد من تشجيع من حوله على محاولاته الكلامية مما ييسر له الطريق، كما أن الكبار من حوله يعجبون من أخطائه، وقد يصححها الطفل نفسه بعد ذلك نتيجة لإدراكه الخاص(١).

والأطفال يتفاوتون فيما بينهم في سرعة تلقيهم للغة في الجماعة وفى سرعة تصحيحهم لأخطائهم اللغوية، كما أنهم يتفاوتون في عدد المفردات التى يعرفها أو يستعملها كل منهم، ورويدا ... رويدا .. يبدأ الطفل في نطق اللغة تماما كما يسمعها من أفراد جماعته، ويصبح كلامه أشد

---

(١) محمود السعران، اللغة والمجتمع رأى ومنهج، المطبعة الأهلية، ١٩٥٨، بنغازى، ص ٥٢.

انتظاما وأقرب إلى كلام الكبار، ثم يبدأ بعد ذلك في إدراك مدلولات الكلمات وما تعنيه من معانى مختلفة، فيبدأ في تحصيل الكلمات والمصطلحات الخاصة بلهجة جماعته، ومن ثم يصبح ناطقا جيدا للهجته ولهجة جماعته الخاصة(١).

فالطفل عندما ينمو يختلط بمن حوله، ويبدأ في إدراك وفهم خصائص بيئته، كل هذا يساعده على اكتساب لهجة جماعته الخاصة، وكلما خرج إلى مجتمعه وبيئته وزاد من اختلاطه ببقية أفراد جماعته زادت حصيلته من الكلمات ونمت اللغة عنده، وتصبح رغبته في التحدث والتفاهم مع بقية أعضاء جماعته عاملا سريعا في التقاطه للهجة الجماعة التى ينتمى إليها.

وهكذا يكتسب الطفل لهجة جماعته، التى تصبح بعد ذلك سمة مميزة من سمات ثقافته .. والبدوى الذى يخرج إلى حياة الحضر ويعمل بينهم لا يفقد لهجته، ولكنه يحاول تعلم لهجة أهل الحضر حتى يستطيع التفاهم معهم، ونجده حين يعود إلى مجتمعه وبيئته يتكلم على الفور بلهجة أهل البداوة الذى يعتز بها، فهي تعبر عن عرقه وسلالته، ومهما حاول منها، فأنها تظهر في بعض ذلات لسانه، والذى يساعد على بقاء لهجات البداوة في بيئتهم بتلك القوة هو طبيعة الحياة التى يعيشونها، ونوع التقاليد والعادات التى تنظم حياتهم، فحياة البداوة لم تتغير كثيرا عما كانت في القدم، والبدو يصرون على الاحتفاظ بكل نواحى وجوانب حياتهم الخاصة وأعرافهم الموروثة، لذلك نجد ذلك واضحا في لهجاتهم التى يتوفر لها عنصر الاستمرارية والبقاء في بيئتهم فطالما أنهم يحاولون الاحتفاظ بكيانهم

(١) المرجع السابق، ص ٤٥.

الثقافى دون تغيير على قدر ما يستطيعون يتبع ذلك على الفور ثبات معين في اللهجة المستخدمة والتى تعتبر جزءا هاما من ذلك الكيان الثقافى.

وبعد هذا العرض، نستطيع أن نخرج بعدة حقائق:

- إن اللهجة هى ما ينتج عن اللغات الأساسية من تفرعات وانقسامات بسبب التغيرات العديدة التى تصيبها خاصة التغيرات الثقافية.
- كل لهجة تعبر عن ثقافة الجماعة المتكلمة بها، لذلك فهى تحمل خصائصهم، وأفكارهم الثقافية الخاصة، وهى تشكل نظاما لغويا خاصا له تراكيبه وقواعده ونحوه ومعجمه الخاص.
- أن الباحث اللغوى الانثربولوجى في دراسته للهجة ينبغى أن يدرسها من واقعها أى في الميدان، وأن يحاول الكشف عن وظيفتها وعن الثقافة التى تعبر عنها تلك اللهجة .

وأخيرا فإن النظر إلى اللهجة على أنها أحدى نتاج التغيرات التى تحدث للغة يساعدنا كثيرا على فهم العلاقة بين الثقافة واللغة والتأثير المتبادل بينهم ... فالثقافات تتباين بتباين المجتمعات، وكل ثقافة لها لغة مصاحبة لها، وكل لغة إذا انتشرت تنقسم بدورها إلى لهجات تكون مزيجا من اللغة العامة ... هذه اللهجات تسلك في سبيل تطورها منهجا يختلف عن منهج غيرها، ولا تلبث أن تتسع في سبيل تطورها منهجا يختلف عن منهج غيرها، ولا تلبث أن تتسع المسافة فلا تصبح مفهومة إلا لأهلها، وبذلك يتولد عن اللغة الأولى فصيلة أو شعبة متميزة مستقلة يختلف أفرادها في كثير من الوجوه، ولكنها تظل مع ذلك متفقة في وجوه أخرى تدل على قرابة لغوية.

وسوف نتساءل هنا ما أسباب نشأة تلك اللهجات، وانقسامها بهذا الشكل لتصبح سمة مميزة ومستقلة من سمات جماعة من الناس لهم ثقافاتهم الخاصة.

أسباب نشأة اللهجات:

يحدث بين اللغات ما يحدث بين أفراد الكائنات الحية وجماعاتها من احتكاك وصراع وتنازع على البقاء، وسعى وراء الغلب والسيطرة، وتأتى نتيجة هذه الصراعات والاحتكاكات أن تتشعب وتتفرع اللغات[١].

وهذه التفرعات تؤدى إلى نشأة اللهجات Dialects ولا شك أن نشأة وقيام اللهجات يرجع بطبيعة الأمر إلى انتشار اللغة انتشارا واسعا، فيؤدى هذا الانتشار إلى انقسامها إلى لهجات.

ولانتشار اللغة أسباب كثيرة أهمها:

- إن تشتبك في صراع مع لغة أخرى، فتحتل بعد هذا الصراع مناطق اللغة المقهورة، فيتسع بذلك مدى انتشارها، وذلك مثل اللغة العربية وتغلبها على كثير من اللغات السامية والقبطية.
- انتشار أفراد شعب ما على أثر هجرة أو استعمار ويتكون من سلالتهم بهذه المناطق أمة أو أمم متميزة كثيرة السكان، فيتسع بذلك مدى انتشار لغتهم، وتتعدد الجماعات الناطقة بها، ومثال لذلك الاسبانية التى أصبحت لغة المكسيك.
- وأخيرا أن يتاح لجماعة ما أسباب مواتية للنمو الطبيعى في أوطانها الأصلية نفسها، فيأخذ عدد أفرادها في الزيادة المطردة وتنشط حركة

(١) على عبد الواحد وافى، "علم اللغة"، مرجع مذكور، ص ١٥٤.

العمران في بلادها، فيتسع بذلك نطاق لغتها وذلك مثل ما حدث لليابانية ومدى انتشارها(١).

هذا الانتشار يلعب دورا هاما في قيام اللهجة، ونجد أن معظم اللغات الكبيرة والمعقدة تميل إلى الامتداد أكثر من اللغات الصغيرة البسيطة، هذا الامتداد يؤدى بدوره إلى الانقسام والتعدد، ومع ذلك نجد في كثير من أنحاء العالم جهودا كبيرة تعمل على الحفاظ على اللغات البسيطة وعدم الميل إلى الانقسام(٢). ولكن الميل إلى الانقسام والتعدد دائما يغلب في النهاية والانتشار لا يؤدى مباشرة إلى قيام اللهجة، ولكنه يتيح الفرصة لظهور عوامل أخرى تؤدى في النهاية إلى تفرع اللغة إلى لهجات، ومن هذه العوامل:

١ـ عوامل اجتماعية سياسية:

تتعلق باستقلال المناطق التى انتشرت فيها اللغة بعضها عن بعض، وضعف السلطان المركزى الذى كان يجمعها ويوفق ما بينها من علاقات، وذلك أن اتساع الدولة وكثرة المناطق التابعة لها واختلاف الشعوب الخاضعة لنفوذها يؤدى غالبا إلى ضعف سلطانها وتفككها من الناحية السياسية، وانقسامها إلى دويلات وهذا الانفصام السياسى يؤدى إلى انفصام الوحدة الفكرية واللغوية.

٢ـ عوامل جغرافية:

تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في الجو وطبيعة البلاد وشكلها وموقعها، هذه الفروق تؤدى إلى فروق وفواصل في اللغات.

---

(١) على عبد الواحد وافي، "علم اللغة، مرجع مذكور، ص ١٥٨.

(2) Potter, Simon. Language in the Modern World, Penguin Books, Inc., U.S.A., 1960, P. 179.

٣ـ عوامل شعبية وبيولوجية:

إن الاختلاف في الاجناس والفصائل الانسانية بين الناس يؤدى إلى تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات، كما أن ما بين السكان من فروق في التكوين الطبيعي لأعضاء النطق، يؤثر على نطقهم للألفاظ والمصطلحات، فتنقسم اللغة رويدا ... رويدا إلى لهجات متعددة(١).

٤ـ عوامل اجتماعية وثقافية:

وتتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في النظم الاجتماعية والعرف والتقاليد والعادات، كما أن الاختلاف في مبلغ الثقافة ومكوناتها وما تحتويه من أنماط متعددة، كل ذلك يؤثر على أداة التعبير ... ولا شك أن هذا هو أهم عامل في انقسام اللغة إلى لهجات، وذلك لأن عامل تغير الثقافة هو العامل المباشر والسريع الذى يؤدى إلى تغير اللغة، فتعدد الفئات الثقافية والاجتماعية داخل المجتمع يؤدى إلى التغير الحتمى في اللغة السائدة أى اللغة الأم، فتنقسم تلك اللغة إلى لهجات، وتعبر كل لهجة عن ثقافة فئة معينة خاصة بها، وذلك عن طريق ما تضيفه إليها تلك الفئة أو الجماعة من مصطلحات ومرادفات خاصة بثقافتهم، وتصبح لهجتهم بعد ذلك سمة مميزة لهم، وجزء هام من النسق الثقافى الخاص بهم.

وهناك أيضا سبب أخر يعتبر من العوامل التى تساعد على نشوء اللهجة ويطلق عليه العلماء اللغويون اسم "المغايرة الفردية"، هذه "المغايرة الفردية" تعنى أن كل إنسان له لهجته الخاصة، وأن هناك لهجات في اللغة

---

(١) على عبد الواحد وافى، علم اللغة، مرجع مذكور، ص ١٥٩.

بقدر ما هنالك من أفراد يتكلمون هذه اللغة، وعلماء اللغة يقولون أن المجتمع الذى يتكلم أفراده لغة واحدة لا وجود له إطلاقا(١).

ولاثبات ذلك يقوم علماء اللغة بادخال شخص ما إلى معمل الصوتيات، ويقولون له أجلس أمام الآلة وقل مثلا عبارة "ما أجمل الطقس" ثم بعد قليل يقال له سجلها مرة أخرى، وهنا سيجد فروقا في التسجيل بين الأول والثانى، ولكنها فروق لا تستطيع الإذن تميزها، ولكن الآلة يمكنها التمييز في هذا وذاك، وهذه الظاهرة تعرف في اللغة باسم "المغايرة الفردية" وهذه المغايرة ليست تعمدية، ولكنها طبيعية عفوية، ويقول العلماء أنهم لا يعرفون السبب لذلك، فالطفل لا يمكن أن يولد صورة طبق الأصل لأبيه أو لأمه، فكأن الطبيعة تكره التطابق أو التشابه العام، فالطبيعة تميل إلى المغايرة، وهذه المغايرة في اللغة جيلا بعد جيل تترك أثرها في اللغة.

مثال لذلك:

إن العرب الأحياء يقرأون الفصحى على غير ما كان يقرؤها الفصحاء في العصر الأموى، أما من جهة التكلم، فظاهر أن لساننا العربى اليوم غير لسان العرب في الأمس البعيد(٢).

وأقول هنا أن اختلاف قراءة العرب الأحياء للفصحى الآن عما كان يقرؤها الفصحاء في العصر الأموى، إنما أرجعه أساسا إلى الاختلاف الثقافى، فثقافة العصر الأموى كانت لا شك تختلف كثيرا عن ثقافتنا اليوم، هذا الاختلاف إنما يشكل خلفية هامة في استيعابنا للغتنا العربية، فنحن نظرنا اليها ونستخدمها بطريقة تختلف عما كان يستخدمها العرب في

---

(١) أنيس فريحة، محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها، معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٥، ص ٤٦ - ٤٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٤٦.

العصر الأموى، كما أن طريقة نطقنا تختلف عن طريقة نطقهم كلا تبعاً للثقافة، واختلاف اللسان العربى اليوم عن لسان العرب في الأمس البعيد إنما راجعاً أيضاً إلى الاختلاف الثقافى بين الماضى والحاضر، فقد تغيرت الثقافة وتعددت أنماطها، وتغيرت القيم والعادات والمعارف وما تحويه الثقافة من مكونات أخرى، كل ذلك كان له تأثيره الفعال على لغتنا العربية، هذا التأثير يظهر بوضوح في طريقة نطقنا واستخدامنا لها .. ولا يقتصر الأمر على طريقة النطق فقط، بل يمتد إلى حصيلة لغتنا من الألفاظ والمصطلحات، فنحن نجد أن هناك بعض المصطلحات قد أضيفت إلى لغتنا العربية، هذه المصطلحات والألفاظ لم تكن موجودة من قبل، كما أن هناك بعض المرادفات والكلمات اندثرت وماتت ولم يعد لها مكان في عربيتنا اليوم على الرغم من شيوعها وأهميتها في وقت ما، هذا كله راجعاً إلى التغير الثقافى الذى حدث، فأعطى أهمية لبعض الكلمات دون الأخرى، وأظهر مصطلحات وألفاظ جديدة بينما في نفس الوقت طغى على أخرى قديمة .. والتغير الثقافى هذا شئ حتمى في حياة أى ثقافة من الثقافات، واللغة هى الجسم الحى الذى يخضع لذلك التغير وما يحتوى على نمو وتطور.

واللغة دائماً كظاهرة إنسانية تميل إلى الاقتصاد، فهى تتبع في سيرها من الصعب إلى السهل، ومن الخشن إلى الناعم ومن الزخرف إلى البسيط[١].

لذلك نجد لهجات عديدة - على مر الأجيال - مخالفة للغة الأم قديماً، وكل لهجة من تلك اللهجات تكون بمثابة .علامة من العلامات التى

(١) أنيس فريحة، محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها، مرجع مذكور، ص ٦٠.

تشير إلى نوع ومكان وبيئة الجماعة التى تتكلمها، كما أنها تدل أيضاً على وضعهم الاجتماعى داخل مجتمعهم، ومن هنا نرى أن اللهجات نفسها تنقسم إلى أنواع، فاللهجة قد تختلف من أقليم لآخر ويسمى ذلك "باللهجات المحلية"، ولكن تلك اللهجات نفسها داخل الاقليم الواحد قد تنقسم بدورها إلى لهجات يطلق عليها العلماء مصطلح "اللهجات الاجتماعية"[1]. وهذه لمحة سريعة عن نوع من تلك اللهجات داخل المجتمع الإنسانى.

اللهجات المحلية والاجتماعية:

هى تلك اللهجات التى توجد في الأمة الواحدة وتختلف تبعاً لاختلاف الأقاليم، وتختلف هذه اللهجات بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً في المساحة التى يشغلها كل منها، فقد تكون منتشرة على مستوى رفيع، وقد تكون محدودة، وتعبر كل لهجة محلية عن ثقافة أعضائها، وتعمل كل لهجة على الاحتفاظ بشخصيتها وكيانها كما أنها تحول محاربة عوامل الابتداع والتغير داخل منطقتها وذلك عن طريق تأكيد سيطرة النظم الاجتماعية، فكل محاولة للخروج على النظام اللغوى يلقى مقاومة عنيفة للقضاء عليه[2].

وهذه اللهجات المحلية تكون أداة تعبير رئيسية عن ثقافة الأقليم الذى تنتمى إليه، فثقافة أقليم الصعيد تختلف عن ثقافة أقاليم الريف المختلفة، ومن ثم نجد اختلافاً في لهجة كل منها وما تحتويه من ألفاظ ومصطلحات، كما ينبغى أن نشير هنا إلى أن أى تغير في ثقافة أى أقليم من تلك الأقاليم يؤدى إلى تغير في اللهجة المستخدمة، فعلى سبيل المثال دخول عناصر جديدة إلى إقليم الصعيد مثل أجهزة الأعلام والصحف وازدياد المتعلمين

---

(1) Swartz. Marc. J. & Jordon. David "Anthropology - Perspective on Humanity" U. of Cal. Copyright 1976, U. S. A., P. 301.

(٢) على عبد الواحد وافى، علم اللغة، مرجع مذكور، ص ١٦١.

والمثقفين من أهالى تلك الأقاليم أدى إلى بعض التغيرات في ثقافتهم الذى بدوره أثر على طريقة نطقهم للهجة المستخدمة .. ومن ثم أصبحوا يستغنون عن بعض الألفاظ والمصطلحات التى كانت شائعة بينهم قبل ذلك، واستخدموا بدلا منها كلمات أخرى جديدة جاءت بها العناصر الثقافية الجديدة التى دخلت مجتمعهم.

والاختلافات اللغوية واللهجات لا تكون بفعل المكان واختلاف الأقاليم فقط، بل أن هناك داخل المجتمع الواحد ما يعرف باسم "اللهجات الاجتماعية" تلك اللهجات ركز عليها العلماء الانثربولوجيين في السنوات الأخيرة، وذلك لأهميتها وتباينها الشديد داخل المجتمعات المختلفة، فاللهجات الاجتماعية تنتج من الاختلاف في الجنس والمهنة والتربية والعرق ... الخ[1] فاللهجة الاجتماعية تختلف بين الأفراد على الرغم من وجود اتصال بينهم، وهى أدق وسيلة للتعبير عن ثقافة وطبقة ومهنة المتكلم بها، فسلوك الدارس للغوى هنا يكون دائما منصبا على معرفة الاختلافات الطبقية واختلاف الأوضاع الاجتماعية والتى يكون لها أثر مباشر في اختلاف لهجات أفراد عن الآخرين[2].

وأفضل الدراسات التى قامت على تلك اللهجات الاجتماعية كانت تلك التى قام بها "وليم لابوف William Labov" في الفونولوجيا وأقامها كلها في أمريكا، وقد أعطى من خلال هذه الأعمال أمثال عديدة لاختلاف نوعيات الحديث والنطق بين مختلف الطبقات والمستويات الاجتماعية.

---

(1) Op. Cit., Swartz & Jordan, "Anthropology Perspective on Humanity", P. 302.

(2) Ibid., P. 302.

كما قام أيضاً "زامانهوف" صاحب فكرة اللغة العالمية (اسبرانتو) بدراسات في "وارسو"، تناول من خلالها حقيقة اختلاف الجماعات الاجتماعية في المدينة الواحدة والذى يؤدى بدوره إلى اختلاف لهجاتهم، وكانت المشكلة هنا ليس في أنهم لا يفهمون بعضهم البعض، ولكن في اتخاذهم للغة رمز لعراقة نسبهم وسلالتهم، والتفرقة في ذلك على أساس اللغة. فقد قال زامانهوف:

"لقد كنت أعتقد أن جميع البشر أخوة، بينما أدركت أن البشر غير متضامنين ومتحدين، ولا يمكن أن يكونوا كذلك تماماً، لأن هناك ما يفرقهم"[1].

وكلام زامانهوف هذا أن دل على شئ فإنما يدل على أهمية اللهجات الاجتماعية في حياة الناس، فهى تفرق بينهم في العرق وفى النظرة الاجتماعية، وفى أمور أخرى عديدة في حياتهم لها صداها الواسع.

وللهجات الاجتماعية Social Dialects أهمية كبرى، فهى أقرب إلى اللغويين والانثربولوجيين وعلماء الاجتماع، وعناياتهم بها أشد لأنها أكثر دلالة على حركة الإنسان في إطاره الاجتماعى. فنحن نجد أن لغة المحادثة تتشعب في البلد الواحد أو المنطقة الواحدة إلى لهجات مختلفة تبعاً لاختلاف طبقات الناس وفئاتهم، فتكون هناك مثلاً لهجة للطبقة الارستقراطية، وأخرى للجنود، وثالثة للتجارة، ورابعة للرياضيين، وخامسة للتجاريين ... وهكذا. وتنشأ هذه اللهجات نتيجة لما يوجد بين طبقات الناس وفئاتهم من فروق في الثقافة والتربية، ونواحى التفكير والوجدان، ومستوى المعيشة، وحياة الأسرة، والبيئة الاجتماعية، والتقاليد

---

(1) Ibid., p. 303.

والعادات، والآثار العميقة التى تتركها كل وظيفة ومهنة في عقلية المشتغلين بها، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير وسرعته وانشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التى يكثر ورودها في حياتهم. ومن الواضح أن هذه الفوارق وما إليها من شأنها أن توجه اللغة أو اللهجة في كل طبقة وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها، فلا تلبث أن تتشعب اللهجة العامة إلى لهجات عديدة تختلف كل منها عن اخواتها في المفردات وأساليب التعبير وتكوين الجمل ودلالة الألفاظ(١).

وتسير اللهجات الاجتماعية في نفس الطريق التطورى الذى تسير فيه اللهجات المحلية، فيتسع نطاقها باتساع شئون الناطقين بها ومبلغ نشاطهم، واحتكاكهم بالاجانب وبأهل الطبقات الأخرى، كما تختلف أساليبها وطرق تركيبها باختلاف العصور وتطور الظروف الاجتماعية المحيطة بالطبقات الناطقة بها، وتؤثر اللهجات الاجتماعية في لغة المحادثة العادية تأثيرا كبيرا، ولا تتميز في العادة اللهجات الاجتماعية بعضها عن بعض إلا في المدن الكبرى حيث يتكاثف السكان. وقد قال علماء الاثنوجرافيا أن اللهجات الاجتماعية لا تنشأ من تلقاء نفسها، بل تخلق خلقا، وتبتدع بالتواضع والاتفاق بين أفراد الطبقة الواحدة، وترتجل ألفاظها ومصطلحاتها ارتجالا، ولكننا نقول هنا أنه ليس لهذا الرأى أى سند عقلى أو تاريخى، فاللهجات تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها، وذلك لأن معظم هذه اللهجات منتشرة بين طبقات فقيرة جاهلة منحطة المدارك ضعيفة التفكير، لا يتاح لمثلها أن تنشئ لغة كاملة المفردات متميزة القواعد(٢).

---

(١) على عبد الواحد وافى، علم اللغة، مرجع مذكور، ص ١٦٩.
(٢) المرجع السابق، ص ١٧٠.

وعملية البحث في اللهجات الاجتماعية تهتم كثيراً بالتنوع اللغوى المنتظم، أى تعنى بدراسة هذا التنوع وفقاً لمقاييس اجتماعية واضحة، وذلك مثل مقياس العمر، الجنس، المهنة، المستوى الاقتصادى، الطبعة... الخ[١]. فلكل طائفة من تلك الطوائف لهجة خاصة بها، تكون بمثابة سمة مميزة من سمات تلك الفئة، بحيث يدرك السامع على الفور من لهجة الفرد إلى أى الطبقات والمهن ينتمى كما أن حصيلة مفردات وألفاظ كل لهجة من تلك اللهجات تختلف عن الأخرى، فلكل فئة طريقتها الخاصة في التعبير والاتصال واستخدام اللغة، ولنوضح ذلك نتناوله بشئ من التفصيل.

أولاً: اللهجة والعمر

الانسان يتعلم اللغة من داخل مجتمعه كما عرفنا من قبل. ووسائل هذا التعلم تتطور مع تطور عمره، ومع هذا التطور تتنوع لغة الفرد الواحد، فكل واحد منا يتكلم في طفولته لغة تختلف عن لغة شبابه وعن لغة كبره.. ونحن نجد دائماً اختلافاً كبيراً بين لغة الشباب ولغة الكبار، وقد لا يستطيع أحد الجيلين أن يفهم الآخر وهما يعيشان في بيئة واحدة ويتكلمون لغة واحدة، ويطلق اللغويون على ذلك اسم الفجوات اللغوية بين الأجيال[٢] Linuistic generation gaps.

ثانياً: اختلاف لهجة الرجال عن النساء

لا شك أن هناك لهجة للرجال وأخرى للنساء، خاصة في تلك الشعوب التى يقل فيها اختلاط الرجال بالنساء، أو أن يكون فيها كلا

---

(١) عبده الراجحى، اللغة وعلوم المجتمع، كلية الآداب - جامعة الاسكندرية، ١٩٧٧، ص ٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٧.

الجنسين بمنعزل عن الآخر تحت تأثير نظم دينية أو تقاليد اجتماعية معينة .. وتكثر مظاهر هذا الأختلاف اللغوى كلما استحكمت حلقات الانفصال بين الجنسين، فيؤدى ذلك إلى نشأة لهجة خاصة بكل منهم[١].

ثالثاً: اللهجات الحرفية

تعتبر هذه اللهجات أهم أنواع اللهجات الاجتماعية، وهى اللهجات التى يتكلم بها أهل الحرف المختلفة فيما بينهم، وذلك مثل: النجارين، الصيادين، البحارة ... الخ. فاختلاف المهنة والمجال يؤدى إلى اختلاف اللهجة، فإن لكل من الزراع والصناع والصيادين والتجار رموزهم الخاصة الكلامية والتى ينحصر فهم مدلولاتها فيهم وفيمن يتصل بهم، والكلام في كثير من وجوه النشاط الزراعى والصناعى قد يكون جزءاً من العمل، فحديث الفلاح لبقرته وعناؤه عند الحرث والرى والحصد يكون جزءاً من العمل ويعينه على إتمامه[٢].

وتلجأ هذه الطوائف الخاصة من أصحاب الصناعات والحرف إلى اختراع كلمات لا يعرفها غيرهم رغبة في التعمية والتمويه على من ليس لهم، بل نجد أن اللصوص يخترعون كلمات معينة تشبه المصطلحات والرموز يستخدمونها لتمويه رجال الأمن وحفظة القانون، وبعض هذه الكلمات قد اخترعت اختراعاً، وأصبحت مألوفة في محيطها الضيق زمناً ما، وقد تتسع دائرته في عامية الكلام عن طريق حديث الفرد به بين أهله وبين الأصدقاء وفى معظم مجالات الحياة العادية، فإذا مرت على تلك الكلمات العامية فترة أخرى زاد فيها شيوعها فقد يكتسب بعضها احترام

---

(١) على عبد الواحد وافى، علم اللغة، مرجع مذكور، ص ١٧٢.
(٢) محمود السعران، اللغة والمجتمع، رأى ومنهج، المطبعة الأهلية، ١٩٥٨، بنغازى، ص ٩٣.

الناس ولا ينفرون من النطق بها في أي وسط من الأوساط، وتقتحم اللغة المعجمية وتصبح بعد ذلك مقبولة في اللغة العادية[١].

إذن، لكل حرفة لهجة خاصة بها، ومن علامات النجاح أن يحسن الانسان التحدث بلغة المهنة حين يتحدث إلى زملائه، وبعض الناس يندمج في لهجته المهنية الخاصة حتى ليجد صعوبة بالغة عند الاتصال بأشخاص لا ينتمون إلى هذه المهنة. وليس هذا مقصورا على المهن اليدوية أو غير المثقفة فقط، وإنما يمتد ليشمل المهن الأخرى، فقد نلاحظ أن بعض كبار العلماء في شئون الاقتصاد والطب لا يحسن الاتصال خارج مهنته المتخصصة من كثرة ما تستغرقه هذه المهنة ومن شدة ما يسيطر عليه قاموسها الخاص[٢].

وهناك طائفة من اللهجات موجودة في كل مجتمع تعرف باسم "اللهجات السرية" تلك اللهجات التي يستعملها اللصوص والخارجين عن القانون، فنجد بينهم ألفاظ ومصطلحات لا يفهمها غيرهم، بل أنهم في بعض الأحيان يضيفون إلى بعض كلمات اللغة العادية معان جديدة لا يفهم مغزاها غيرهم، وذلك مثل مهربي المخدرات على سبيل المثال، فنجد بعضهم يطلق على قطعة الحشيش لفظ "سكو" فإذا نطق هذا اللفظ أمام بقية اللصوص أو تجار المخدرات يدركون منه على الفور نوع الحشيش ... الخ[٣]. كما نجد بعض العصابات تستعمل بعض المصطلحات بمثابة "سين" بينهم لتمويه رجال الشرطة .. ولا تقتصر "اللهجة السرية" على الخارجين على القانون فقط، بل يستخدمها أيضا الذين يحمون القانون، فنراها مألوفة بين رجال

---

(١) إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، مكتبة الانجلو المصرية، الطبعة الثالثة، ١٩٦٦، ص ٩١ ـ ٩٢.
(٢) عبده الراجحي، اللغة وعلوم المجتمع، مرجع مذكور، ص ٧٨.
(٣) محمود السعران، اللغة والمجتمع رأي ومنهج، مرجع مذكور، ص ٤٤.

الشرطة حيث تكون بينهم شفرة معينة للتفاهم وإخفاء الخطط، كما نرى أن "اللهجة السرية" من أهم وسائل الجاسوسية، حيث يقوم الجاسوس باستخدام تلك اللهجة حتى يمكن أن يخفي معلوماته.

واللهجة السرية إن دلت على شئ فإنما تدل على أن اللغة كما عرفها البعض ليست دائما وسيلة لتوصيل الأفكار، فاللهجة السرية هي أكبر دليل على أنها قد تكون في بعض الأحيان وسيلة لاخفاء الأفكار، فاللغة في هذا الجانب تغطي كلتا الحالتين، ولا غنى للإنسان عنها في توصيل وأيضا في إخفاء أفكاره.

رابعا: اللهجة كعلامة طبقية مميزة

في الجماعة الكلامية الواحدة تختلف لغة المتعلمين عن لغة الأميين، والمتعلمون يختلفون فيما بينهم باختلاف درجة تعلمهم واختلاف مهنتهم ودرجة ثرائهم، فلغة الصيادين كما قلنا تختلف عن لغة النجارين مثلا، ولغة المسلمين في جماعة كلامية تختلف عن لغة من يدينون بالاسلام من أفراد نفس الجماعة الكلامية، ولذلك فإن سماع فرد من الأفراد يتكلم لقاص بمستواه العقلي، وبصفته الطائفية والمهنية، والفرد يحتاج إلى مران طويل وتعلم شاق حتى يستطيع تغيير لغة طبقته، وحتى بعد هذا فقد تنفذ عن الفرد ألفاظا أو تعبيرات تدل على أنه دخيل على هذه الطبقة الجديدة لا أصيل فيها[١].

مثال لذلك: لغة حديثي الثراء، هم عبارة عن قوم ترفعهم الأموال التي أنهالت عليهم فجأة إلى مستوى مادي أعلى، فيبدأون في تقليد الطبقة الراقية في كل شئ، وقد يبالغون في ذلك مبالغة تكشف عن حقيقتهم، وهم

---

(١) محمود السعران، اللغة والمجتمع رأي ومنهج، مرجع مذكور، ص ٤٧.

لا يستطيعون تعلم لهجتهم بسرعة فتأتى محاولتهم للتشبه بلهجة الطبقة الراقية الأصلية كثيرا ما تجعل منهم مادة للهزء والسخرية[1].

ومن ثم فاللهجات الطبقية سمة مميزة من سمات لغة الفرد، تكشف عن وضعه الاجتماعى، ودرجة ثقافته، ويشعر الفرد براحة كبيرة في الحديث إلى من هم في نفس طبقته ودرجة ثقافته .. وإذا كانت لهجة الطبقة سمة مميزة من سمات لغة الفرد كعلامة تدل على وضعه الاجتماعى، فاللغة قد تكون أيضا داخل الطبقة الواحدة مميز فردى، فاللغة يمكنها أن تكون سمة من سمات لغة الفرد الشخصية وأسلوبه في الحديث، وهى تعتمد في ذلك على اختلاف الأصوات الطبيعية للأفراد، وهذا الاختلاف راجعا إلى أسباب عضوية، فنحن نميز الشخص بصوته، فنعرف أن فلانا هو فلان لسماعنا لصوته دون رؤية شخصه، وكما يتمايز الأفراد طولا وعرضا وبياضا وسمرة، يتمايزون صوتا، والفرد لا يكتسب هذه الميزة الصوتية بل يولد عليها، وقد يتخذ صوت فرد من الأفراد صفة غير تلك التى ولد عليها نتيجة لظروف مرض أو حادث .. كما أن هناك ما يميز لغة فرد عن فرد وذلك يكون أيضا فيما لدى كل متكلم من ما يعرف باسم: اللوازم اللغوية فاللازمة اللغوية عبارة عن طريقة نطق كلمة أو كلمات. وقد تكون عبارة يكثر ترددها أو لفظة معينة، وقد تكون عيبا عضويا كاللثغة أو الفأفأة، أو قد تكون أمر يكفى سماعه أو ذكره لتحديد شخص القائل، واللازمة اللغوية علامة دالة على الفرد قد يغنى ذكرها عن ذكر اسم صاحبها[2].

ولكل فرد عادات خاصة به، وتكون بمثابة علامة مميزة من علامات لغته، فالإنسان دائما يستعير من غيره في طريقة الكلام وفى

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٤٧ ـ ٤٨.

المصطلحات والألفاظ، ودائما يأخذ الانسان من والديه طرق الحديث، ولكنه لا يكررها أو يقلدها تماما، وإنما يأخذ منها بعض الأشياء، وحينما ينمو الطفل يبدأ في الاستعارة من الأفراد الآخرين، وكلما احتك بالأفراد من حوله كلما ازدادت مقدرته وحصيلته في استعارة الكلمات والعادات المختلفة للحديث، وبالتدريج يبدأ الإنسان في تكوين أسلوب وطريقة معينة لنطقه ولغته، هى في النهاية سمة مميزة من سمات لهجته الخاصة[١].

والفرد ينتمى إلى أكثر من جماعة كلامية أو أحاديثية، وتختلف عادات وطرق أحاديثه باختلاف الموجه إليهم، فنراه يتكلم مع الأفراد من الطبقة العليا بطريقة تختلف عن الأفراد من الطبقة الأقل، وحين نجده يوجه الكلام إلى أشخاص ذو مراكز، نجده يتبع عادة كلامية معينة. وقد يصبح الشخص نفسه نموذج للعادات الكلامية في جماعته ويستعير منه بقية الأفراد في الجماعة[٢].

ونشير هنا إلى أن للمصريين عادات لغوية خاصة، تلك العادات اللغوية المصرية كونتها لغة كلامنا، التى لقنها الطفل في مراحل نموه، فأصبح نطقه وكلامه يتميز بتلك الصفات الكلامية التى يتميز بها المصرى، والتى جعلت له طابعا خاصا له أثره البين في تعلمه أية لغة من اللغات الأخرى .. ورغم تعدد اللهجات المصرية، فإنها تشترك في كثير من العادات اللغوية، ولهذا يمكن أن نعد المصريين على العموم أصحاب عادات لغوية متميزة عن غيرهم من الشعوب، ولقد تكونت لنا لغة نموذجية أخذت تطغى على اللهجات الاقليمية، تلك اللغة استمدت الكثرة الغالبة من

---

(1) Bloomfield, Leonard. "Language History from Language", Ed. By Harry Hoijer, Unv. Of C. 1933, P. 476.

(2) Ibid., P. 477.

مظاهرها من "اللهجة القاهرية" أو لهجة المتعلمين في القاهرة لأنها العاصمة التى يتطلع إليها دائما أبناء الأقاليم، محاولين تقليد أهلها في معظم المظاهر الاجتماعية ومن بينها لغة الكلام .. ومهما يكن من الأمر فاللهجات المصرية وعلى رأسها اللهجة القاهرية هى التى كونت لدينا تلك الظواهر اللغوية التى أصبحت بمثابة عادات مكتسبة، لا سلطان لنا عليها، ولا اختيار لنا في تكوينها، بل لقناها تلقينا(١).

وفى النهاية نستطيع أن نقول أن وراء انقسام اللغة إلى لهجات إقليمية وأخرى اجتماعية عوامل ثقافية، فالثقافة وما تحتويه من نظم وأفكار ومفاهيم تلعب دورا كبيرا في تحديد اللغة المعبرة عنها، فإنى أؤكد دائما على أن الثقافة هى المتغير المستقل، واللغة هى المتغير المصاحب لها، فاللغة جزء من مكونات الثقافة، هذه المكونات تتعرض للتغير، هذا التغير قد يؤدى إلى الانتشار والتعدد، فنرى بذلك فئات وأنماط ثقافية عديدة داخل الأمة الواحدة، هذا الانقسام والتعدد ينتج عنه هذه اللهجات ... إذن وراء تغير اللغة وتطورها عوامل ثقافية، ووراء انقاسمها إلى لهجات، ونشأة تلك اللهجات في المجتمع بخطى ثابتة عوامل ثقافية أيضا ... ومن هنا يمكننا التأكيد دائما على أن مكونات الثقافة هى المؤشر الحقيقى والأساسى في تحريك وتوجيه اللغة الإنسانية.

وتغير اللغة بتغير الثقافة يؤكد على أنه لا يمكن للغة واحدة أن تبقى على حالها لفترات طويلة، فلابد أن تتعرض لناموس الحياة الطبيعى .. وهذا التغير الذى ينجم عنه التعدد والتباين جعل هناك من يحاول علاج ذلك التعدد، وذلك بانشاء ما يعرف باسم (اللغة العالمية) يتحدث بها جميع الناس

(١) ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مطبعة لجنة البيان العربية، ١٩٥٠، ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

في مختلف الأمم والعصور، ولكن هل نجحت تلك الفكرة؟ وإذا لم تنجح ما هى الأسباب التى أدت إلى فشلها؟ وللإجابة على كل ذلك سنعرض لها بشئ من التفصيل.

محاولة إنشاء لغة عالمية:

قام بتلك المحاولة العالم الروسى الدكتور "لازاروس زامانهوف" Dr. L. Zamenhof وكان يكتب تحت الاسم المستعار د. اسبرانتو Esperanto. وكانت فكرته تتركز في محاولة إنشاء لغة عالمية موحدة يتكلمها جميع الشعوب والأمم على مختلف العصور والأزمنة، وأطلق زامانهوف عليها اسم "اللغة الاسبرنانتو" .. وهى عبارة عن لغة دولية مبتكرة بنيت على أساس من الكلمات المشتركة في اللغات الأوربية الأصلية، وزامانهوف (١٨٥٩ - ١٩١٧) كان باحث لغوى في وارسو، حاول استخراج لغة جديدة تكون حيادية يتكلم بها العالم أجمع(١).

وقد كانت مبادئ وأفكار "زامانهوف" فى إبداع لغة الاسبرانتو قد ظهرت ووضحت في تلك الرسالة التى كتبها يوم ما، وقال فيها:

"إن مكان ولادتى وفترة طفولتى المبكرة كان لهما تأثيرا كبيرا في توجيه مستقبلى، فسلوك وعادات المنطقة التى ولدت فيها Byelostok كانت تنقسم إلى أربعة من الفئات - الروس - البولنديين - الالمان - الاسرائيليين.

كل فئة من تلك الفئات كانت تتكلم لغة مختلفة، ومع ذلك تربطهم علاقات ودية، وكان ينتج عن ذلك التعدد اللغوى صراعات عديدة .. وقد تعلمت أن كل البشر أخوة، ومع ذلك شعرت في كل مكان أنه لا يوجد

---

(1) Swartz, Marc. & Jordan, David "Anthropolgy Perspective on Humanity", U. of C. Copyright, 1976, U. S. A. P. 605.

تضامن ولا بقاء ورويدا .. رويدا أدركت أن الأشياء ليست سهلة ومرنة كما تظهر للطفل الصغير، وأدركت أشياء عديدة تغيرت في نظرى بعد ذلك ما عدا الحلم بإنشاء لغة عالمية إنسانية واحدة، وهذا هو الشئ الوحيد الذى ظل معى، فقد أدركت أن اللغة الواحدة أو المشتركة ستكون لغة حيادية لا يمتلكها أحد من الشعوب الحية .."[1].

ومن هذه الرسالة ظهرت أفكار وأحلام زامانهوف في إنشاء لغة عالمية موحدة، وبعد التحاقه بالعديد من المدارس بدأ يطلع على اللغات القديمة، وما لبث أن تعلم الألمانية والفرنسية والانجليزية، واسترعى انتباهه سهولة النحو والصرف في اللغة الانجليزية، وأدرك على حد قوله أن ثراء النحو ووسائله في اللغة شئ غير هام، وقام بمقارنة معانى الكلمات وربطها بعضها ببعض بعد ذلك، كما بدأ في استخراج ما هو غير هام في اللغة، ثم استطاع أن يقذف بكثير من الكلمات خارج نطاق القاموس، ويجد بديلا لها كلمة واحدة حتى استطاع أن يكتب نحو داخلى وقاموس صغير للمعانى والكلمات[2]. كما تنبه أيضا إلى أن هناك العديد من الاصطلاحات والكلمات الدولية المشتركة بين اللغات يعرفها الجميع خاصة في اللغات الحديثة، وهذه في نظره كانت تسهل في المستقبل صنع لغة عالمية .. حتى جاء عام ١٨٧٨ وبدأ حلمه يصبح أكثر وضوحا واستعدادا، وأعجب الكثير بلغته الجديدة وفكرتها وبدأوا في تعلمها، حتى كان اليوم الخامس عشر من ديسمبر سنة ١٨٧٨ وبدأ حلمه يصبح أكثر وضوحا واستعدادا، وأعجب الكثير بلغته الجديدة وفكرتها وبدأوا في تعلمها، حتى كان اليوم الخامس عشر من ديسمبر سنة ١٨٧٨ اعتبر أنه يوم مولد اللغة الجديدة وأقيم لذلك

---

(1) Ibid.. P. 605.

(2) Ibid.. P. 606.

احتفال كبير، وفى أثناء الاحتفال كان هناك بعض جوانب الحديث تدار بلهجة وكلمات اللغة الجديدة، ولكن كانت هناك نواحى نقص ما زالت في اللغة استلزمت وقتا كافيا لتدعيمها، وعكف على ذلك زامانهوف حتى جاء الوقت الذى شعر فيه أن لغته العالمية الجديدة أصبحت كاملة ومستقلة ولها حياتها وروحها الخاصة[1]. وقام هذا العالم بعد ذلك بنشر عمله في مقاله له بعنوان: "An Internationa; Language by D. Esperanto" كان لها الفضل في إخراج عمله إلى النور، ثم بدأ كثير من العلماء اللغويون دراسة إمكانية تحقيق ذلك الحلم .. وقد كانت لغة الاسبرانتو هذه لا تعتبر لغة طبيعية، وفى نفس الوقت ليست صناعية بالمعنى الدقيق، لأنها مبنية على أسس مختارة من اللغات الأوربية، وهى لغة صوتية بمعنى أن لكل حرف من حروف أبجديتها صوتا واحدا فقط، كما أن لها قواعد نحوية قليلة جدا لا يزيد عددها عن ست عشرة قاعدة .

وقد حاول مخترع هذه اللغة وأولئك الذين عدلوها من بعده أن يجعلوا أمر اكتساب هذه اللغة أمرا سهلا للغاية، وذلك بجعل كل شئ فيها منتظما جدا، يسير على قاعدة واحدة وواضحة [2].. ولكن هذا كله كان سرابا.

فهذه المحاولة لم يكتب لها النجاح رغم ما بذل من أجلها من جهود، وبدأ نجمها فى الهبوط ولم تستطع أن تصمد وتنتشر ذلك الانتشار الذى كان متوقعا، ولذلك لعدة أسباب، من أهمها أن لغة أى قوم هى الوسيلة الأساسية للتعبير عن الفكر والثقافة المميزة لأولئك القوم، بينما لغة الاسبرانتو

---

(1) Ibid.. P. 607 – 608.7

(٢) نايف خرما، الدراسات اللغوية المعاصرة، مجلة دورية، عالم المعرفة، ١٩٧٨، ص ٥٩.

ومثيلاتها لاتعبر عن الفكر والثقافة المميزة لأولئك القوم، بينما لغة الاسبرانتو ومثيلاتها لاتعبر عن ثقافات مميزة، بل ربما كان أقصى ما تستطيع التعبير عنه هو الثقافة العالمية المشتركة بين جميع الشعوب.. وعملية تباين الثقافات وتعددها لا يمكن أن يساعد على قيام لغة مشتركة بين كل تلك الثقافات، فاللغة هى الأداة المعبرة عن أى ثقافة ومن ثم فهى تختلف باختلافها.. كما أن عملية اختلاف النطق للغة أدت إلى فشلها، فهذا الاختلاف ناتج عن أن المتكلمين بها ينتمون إلى فئات وأجناس مختلفة يتكلم كل منهم لغة خاصة، فجاء نطقهم للغة الجديدة مختلفا بين كل منهم.(١) كما أننا يمكن أن نؤكد على أنه ليس من السهل على لغة من هذا النوع أن تدوم طويلا وتنتقل من جيل إلى جيل دون أن يطرأ عليها من التغير مايطرأ على غيرها من اللغات الطبيعية، وذلك لأنه اللغة الصناعية على فرض إمكان اختراعها والزام الناس باستخدامها لا تلبث بعد تداولها على الألسنة أن تخضع لجميع القوانين التى تخضع لها اللغات الطبيعية والتى خضعت لها أول لغة تكلم بها الإنسان، فما دام أفراد الأمم الناطقة أن يختلف كل جيل عن الآخر، هنا لا بد لها أن تنقسم إلى لهجات، ويتفرع منها لغات عامية، وتتسع الهوة بين لهجاتها قليلا حتى تنفصل كل لهجة عما عداها انفصالا تاما وتصبح غير مفهومة إلا لأهلها.(٢)

ومن ثم نستطيع القول أن هذه المحاولة كانت بلا شك محاولة فاشلة، وهى نوع من الأحلام يصعب تحقيقه، فمهما كانت اللغة الجديدة تفى باحتياجات المتكلم بها وتعبر عن نظرته للحياة تعبيرا وافيا، فإنه دائما

---

(1) Op. Cit., " Anthropology Perspective on Humanity", P. 609.

(٢) على عبد الواحد وافى، علم اللغة، مرجع مذكور، ص ١٦١.

سيظل يستعبر من لغته القديمة الأصلية التي يشعر بانتماءه إليها والتي تعبر عن ثقافته وعرقه وانتماءه إلى موطنه.

وحتى أن نجاح هذه اللغة لفترة من الوقت لا يعني نجاحها الدائم، وذلك لأنه كأي لغة تخضع للنواميس الطبيعية في الحياة سيكون لها نفس مصير اللغات الطبيعية من تباين وتعدد وانقسام إلى لهجات، فاللغة طالما هي إحدى مكونات الثقافة لا بد أن تتغير بتغيرها وتنقسم بانقسامها، ومهما حاولنا الحد من هذا التعدد والانقسام لن نستطيع، لأنها ستسير دائما في اتجاهها وتطورها الطبيعي كميكانيزم متطورا يساير الأزمنة التي توجد فيها وأن لم تكن تتغير وتتطور مع تطور حياتنا، لاصبحت لا جدوى لها في حياة المجتمعات الإنسانية والبشرية كلها على السواء.

الخلاصة:

بعد هذا العرض حول انقسام وتعدد اللغات، يمكننا أن نخرج بعدة قضايا نوجزها فيما يلي:

١- أن انتشار لغة ما وتوسعها في ثقافات عديدة يؤدي إلى انقسامها إلى لهجات، كل لهجة منها تعبر عن النمط الثقافي الذي تنتمي إليه.

٢- أن اللهجة ما هي إلا مزيجا من لغة عامة يتحدث بها مجموعة من الناس تجمعهم ظروف تاريخية واقتصادية وسياسية ودينية معينة، وتكاد تكون اللغة لغة قائمة بذاتها من حيث نظامها العام، ولكنها لاتعتبر لهجة إلا إذا كانت فرعا من لغة عامة.

٣- أن أفضل طريقة لدراسة اللهجة هي عن طريق درسها في الميدان، أي أن الدراسة الحقلية هي أفضل الأساليب لوصف وتحليل اللهجات، كما يجب على الباحث الانثروبولوجي اللغوي أن يحاول

الكشف عن العوامل والأنماط الثقافية التى تتحرك من خلالها تلك اللهجات حتى يمكنه فهم ما تحويه من دلالات ومعانى كامنة وراء ألفاظها ومصطلحاتها.

٤- تنقسم اللهجات بدورها هى الأخرى إلى لهجات محلية ولهجات اجتماعية، وأسباب هذا الأقسام يكمن فى الاختلافات الثقافية والاجتماعية التى توجد بين أعضاء المجتمع فتؤدى إلى تعدد لهجاتهم وطرق وأساليب اتصالهم.

٥- ان محاولة إنشاء لغة عالمية كعلاج لتعدد اللغات محاولة لم ولن يكتب لها النجاح، فهى ضرب من الخيالات حيث ان اختلاف الثقافات ومكوناتها بين الشعوب لن يسمح بتوحد لغاتهم، فكل لغة ماهى إلا أداة تعبير رئيسية عن الثقافة التابعة لها، ومن ثم لا يمكن أن تكون هناك لغة واحدة تعبر عن كل تلك الثقافات.. كما أن هذه اللغة ما تلبث أن تتعرض لقانون التغير الذى تخضع له جميع اللغات باعتبار أن اللغة ظاهرة اجتماعية يتحكم فيها القانون الذى يتحكم فى تلك الظواهر .. وهو قانون الديناميكية.

الفصل الخامس

عوامل التغير في اللغات العامية

- مقدمة.
- ماذا حدث للغة العربية العامية فى مجتمعنا ؟
- لمحة تاريخية عن تطور اللغة العربية في مجتمعنا.
- خصائص اللغة العربية.
- العامية والفصحى .. وأزمة الثنائية.
- أزمة العامية في مصر (ظاهرة الاقتباس والمستحدثات).
- التغير الذى حدث في المجتمع المصرى وأثره على لغتنا العامية الدارجة.
- التحول الاقتصادى في السنوات الأخيرة وأثره على العامية
- الجماعات المهنية التى تتأثر ألسنة العامة بالألفاظ الخاصة بها.
- العوامل الاجتماعية والثقافية وأثرها على العامية.

مقدمة:

التغير حقيقة واقعة تعيشها الكائنات الحية، وتكشف عنها الحياة بكل أشكالها، والتغير هو طابع المجتمع البشرى، فهو سنة الحياة وقانونها، كما أنه خاصية هامة من أهم الخصائص المرتبطة بتطور الحياة في المجتمعات البشرية.

وقد تعرض المجتمع المصرى في الفترة الأخيرة لعدة تغيرات كان لها أثر بالغ في أسلوب وشكل الحياة، وقد شملت هذه التغيرات الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للمجتمع المصرى مما أدى إلى ظهور أنماط وقيم جديدة لم تكن معروفة من قبل.

والحديث عن المجتمع المصرى وما يعيشه من تناقضات وصراعات ليس بالأمر السهل كما قد يتبادر إلى الأذهان، فقد أصبح هذا المجتمع كيانا معقداً متشعباً، يختلط فيه الماضى السحيق بالحاضر المتوتر، وتتداخل فيه عناصر المادة بعناصر الروح، ولا تخضع فيه أنماط الحياة لأنظمة متسقة من القيم ولا تستقيم فيه وفرة السكان مع قلة الموارد، فهو مجتمع يطفح بالحركة ولكنه بطئ التحرك ...

ماذا حدث للغة العامية في مجتمعنا ..؟؟

لا شك أن مجتمعنا المصرى يسلك ثلاث مستويات من التعبير اللغوى وهى:

١- اللغة العربية الفصحى.

٢- لغة الأدب الشعبى.

٣- لغة التخاطب الشعبية (اللغة العامية).

وإذا القينا نظرة في الموازنة بين اللغة العربية الفصحى وبين لغة التخاطب الشعبية وجدنا بينهما هوة سحيقة رغم أنهما من أصل واحد، كما تعرضت اللغة العامية في السنوات الأخيرة لتغيرات كثيرة شملت معظم مرادفاتها وألفاظها وطرق تعبيرها، وهذا بلا شك انعكاس لتغير أكبر حدث في المجتمع الذى تمارس فيه تلك اللغة وظيفتها. وقبل أن نبدأ في الاجابة على تساؤل: ماذا حدث في لغتنا العامية؟، لابد وأن نتطرق إلى أزمة الثنائية في اللغة العربية في المجتمع المصرى، وهذا يدعونا أولاً إلى أن نلقى الضوء على جذور اللغة العربية في مصر.

حين قال هيجل: "نحن نفكر داخل الكلمات ..." فقد صدق، فما من إنسان يستطيع أن يفكر خارج حدود اللغة حتى وهو يناجى نفسه أو يحلم حلم يقظة[1] وما من مجتمع متماسك إلا وكانت اللغة الواحدة من أهم أسباب ازدهاره.

والمجتمع العربى ازدهر بلا شك بازدهار اللغة العربية السائدة فيه، فاللغة العربية مكانتها من كونها لغة الكتاب السماوى "القرآن الكريم"، ولهذا فهى تجمع بين أمور الدين والدنيا، العبادات والمعاملات، العقيدة والتفاهم ...

لمحة تاريخية عن تطور اللغة العربية في مجتمعنا:

اللغة العربية هى إحدى اللغات السامية، واللغات السامية هى تلك اللغات التى كان يتفاهم بها أبناء (سام)، وهم أهل ما بين النهرين وجزيرة العرب والشام، وأشهر اللغات السامية هى: العربية ـ السريانية ـ العبرانية ـ الحبشية، وتعتبر العربية أرقاما جميعا، فقد وصلت إلينا من الحجاز، وبها

(١) محمود السعران، علم اللغة، مقدمة للقارئ العربى، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٣.

ألفاظ كثيرة دخيلة عليها من لغات القبائل التى كانت موجودة في منطقة الحجاز قبل الإسلام[١].

وقد اقتبس العرب في لغتهمً من لغة الفرس أكثر مما اقتبسوا من سواها، لذلك ترى أئمة اللغة إذا تعذر عليهم أصل بعض الألفاظ أرجعوها إلى الفارسية، فعلى سبيل المثال من الألفاظ الفارسية:

الكوز – الابريق – الطشت – الطبق – الفلفل – النرجس – الزنجبيل – القرنفل .... الخ.

كما أن هناك القليل من الاقتباسات من اللغة اليونانية، وذلك مثل:

الفردوس – القنطرة – الاسطرلاب ... الخ.

كما أخذوا عن العبرانية كثيرا، منها بعض.الألفاظ الدينية مثل:

الحج – الكاهن – العاشوراء ... الخ[٢].

وتأثر العرب قليلاً بالألفاظ السنسكريتية عن طريق الأسفار للتجارة والحج والاختلاط بالهنود، ولأن جزيرة العرب كانت واسطة الاتصال بين الشرق والغرب، لذلك فكل تجارات الهند المحمولة إلى مصر أو الشام كانت تمر ببلاد العرب، لذلك فقد أخذوا عن الهنود الكثير من المصطلحات التجارية وأسماء السفن وأسماء الحجارة الكريمة والعقاقير، فمصطلح "المسك" على سبيل المثال يعتقد الناس أنه فارسى ولكنه في الأصل سنسكريتى ومصطلح "الكافور" يعتقد الناس أيضاً أنه فارسى ولكنه هندى.

وقد كانت اللغة العربية قبل الإسلام محصورة في جزيرة العرب وفى جزيرة سينا وفى بعض أجزاء صحراء مصر الشرقية، ولكننا إذا

---

(١) جرجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مطبعة بيروت، ١٩٥٤، ص ٣٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٤٠ - ٤١.

نظرنا إلى الخريطة اليوم لوجدنا أن الناطقين بالعربية منتشرون في غربي البحر المتوسط وجنوبيه إلى الشام والعراق وما بين النهرين وفي جزيرة العرب وفي مصر وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش وعلى شواطئ البحر الأحمر وفي السودان وغيرها من أواسط أفريقيا، كما أن الذين يستخدمون العربية للمعاملات الدينية وهم المسلمون في معظم أنحاء القارات الخمس وسائر البلاد التي دخلها الإسلام[١].

ومعظم سكان أواسط جزيرة العرب من قبائل مصر وأعظمها في ذلك الوقت مثل "نهم" في شرقي نجد و"قريش" في مكة، كانت لغاتهم تختلف بعضها عن بعض باختلاف أحوالها ومساكنها، وكان الاختلاف واضحاً بين لغات اليمن ولغات الحجاز، أي بين جنوب الجزيرة وشمالها، وأحسن مثال للغات الجنوب ما خلفه (الحميريون) من الآثار بالحرف المسند، وأحسن مثال للغة الحجاز (لغة القرآن) (وشعر الجاهلية) والفرق بين اللغتين كبير. ولغات أهل الحجاز وسائر الشمال ترجع إلى أصل واحد يسمونه "المبين" وهو الباقي إلى الآن ومنه لغة (القرآن) وقد تغلبت على سائر الألسنة وانتشرت مع المسلمين ...

ولم تكن اللغة العربية غريبة على مصر حين جاء الإسلام إليها، فقد كان لها هناك تاريخ طويل يمتد عدة قرون قبل ظهور الإسلام، وربما قبل ظهور المسيحية أيضاً، حين كانت وفود القبائل العربية تقصد مصر أما للتجارة أو الاستقرار.

فمن ناحية التجارة، أشار المؤرخون إلى أنه كانت هناك خطوط تجارية برية وبحرية تصل بين مصر والجزيرة العربية، كما تشير أحدى

(١) المرجع السابق، ص ٤٣ ـ ٤٤.

الوثائق التى يرجع تاريخها إلى عام ٢٦٣ ق. م إلى وجود علاقات تجارية بين المصريين والعرب في تلك الفترة النائية[١]. كما أن عمرو بن العاص زار مصر قبل الفتح الإسلامى بوصفه تاجراً، وذهب إلى الدلتا ومن بعدها إلى الاسكندرية وأن خبرته بالبلاد المصرية هى التى جعلته يفكر في غزوها ويغرى الخليفة بذلك[٢].

أما بالنسبة للهجرات العربية بقصد الاستقرار، فقد كانت هناك كثير من الموجات دفعت بها بلاد العرب إلى مصر في العصور الفرعونية، وكان طريق سيناء قنطرة ثابتة مفتوحة للهجرات منذ القدم، وقد أشار المؤرخون إلى سلسلة من تلك الهجرات أخذت مكانها قبل الفتح الإسلامى وذلك مثل: هجرة قبائل كهلانية ـ وقبيلة "بلى" ـ وقبائل بطون ... الخ وقد أشار المؤرخون اليونانيون بما فيهم استرابوا (٦٦ ق. م) إلى أن عدد العرب في عهدهم قد تضاعف على الضفة الغربية من البحر الأحمر حتى شغلوا كل المنطقة بينه وبين نهر النيل، كما ذكر هيرودوت أن الأقسام الشرقية من مصر بين سواحل البحر الأحمر ونهر النيل كانت ماهولة بقبائل عربية[٣].

وفى عام ٢٦٣ ق. م أصبح في مصر جالية عربية كبيرة مكونة من تلك القبائل التى هاجرت من جنوب الجزيرة العربية وكانت هناك وثائق تبدو على صلة قوية باللغة العربية مما يدل على أن هؤلاء العرب كانوا يكونون جزيرة لغوية في مصر، وأن هذه الجالية ظلت مخلصة لتوقيها محتفظة بأبجديتها "تكتب بها وتعتز بتراثها.

---

(١) جواد على، تاريخ العرب قبل الإسلام، ٨/ ١٣٢، المطبعة المصرية.
(٢) الكندى، الولاة، مطبعة بيروت، ١٩٠٨، ص ٦ ـ ٧.
(٣) مصطفى كامل الشريف، عروبة مصر من قبائلها، المطبعة العالمية، ١٩٦٥، ص ٢٢.

ومن الطبيعي في تلك الأوضاع أن ينشب نوع من الاحتكاك في ذلك الوقت بين اللغتين العربية والمصرية، وأن يكون قد حدث بينهم قدر ما من التبادل. وقد كان نفوذ اللغة المصرية على اللغة العربية كبيراً من ناحية المفردات، فهناك كلمات مصرية كثيرة دخلت اللغة العربية وأصبح ينظر إليها على أنها من اللغة الأدبية النموذجية، من هذه الكلمات ألفاظ نحو "قبس" التى وردت في القرآن الكريم، و"صداع"، و"مشط" التى وردت في الحديث النبوى: الناس سواسية كأسنان المشط، وكلمة "بردى" التى وردت في شعر الأعشى.

وخلاصة القول: أن اللغة العربية كانت تتكلم في مصر في فترة ما قبل الإسلام بين أبناء الجاليات العربية وعلى ألسنة التجار العرب، وأن تبادلا حدث بين اللغتين المصرية والعربية، أدى إلى ترك آثار من كلا الجانبين على الآخر ولكن دون أن يفقد أى منهما شخصيته.

ولقد ظهر الصراع الحقيقى بين اللغتين العربية والمصرية والتى نطق عليها اسم "اللغة القبطية"[١] بشكل واضح بعد الفتح الإسلامى لمصر، وحدثت معركة بينهما انتهت بفوز اللغة العربية وسيادتها، ولم يحدث هذا بالطبع ـ دفعة واحدة وإنما تدريجياً واستغرق فترة طويلة.

---

(١) "القبط" ـ اسم أعطاه العرب للمصريين قبل الفتح الإسلامى وفى الحديث النبوى "استوصوا بالقبط خيراً" وتذهب المراجع العربية القديمة في تفسير كلمة "قبط" مذهبا أسطوريا متزعم أنها مشتقة من اسم ملك لمصر القديمة كان يدعى "قبطيم ابن مصر اين بن مصر بن حاسه بن نوح".
أما المؤرخون فلهم في تفسيرها آراء عديدة منها:
أنها اشتقت من مدينة Koptos (فقط).
أنها تحريف لكلمة Jacobites (اليعاقبة).
أنها تحريف للكلمة اليونانية Koptoi التى كان يطلقها اليونانيون على المصريين لأنهم كانوا يجرون الختان على أولادهم، وهذا أقرب الآراء إلى الصحة. وتعتبر اللغة القبطية المرحلة الأخيرة للغة المصرية القديمة.
(أنظر: حضارة مصر في العصر القبطى لمراد كامل ـ ص ٦٩).

وقد كانت هناك عوامل سياسية واقتصادية ودينية لعبت دوراً كبيراً في إحلال العربية محل القبطية. فعلى الصعيد السياسى فقد كانت القوة في يد العرب ولذلك بذلوا أقصى وسعهم لتعريب البلد ونشر الإسلام، وقد أدت عمليات التعريب ونشر الإسلام إلى نتائج اقتصادية هامة كان لها أثرها في دعم اللغة العربية ورفع شأنها في مصر وقد كان من أهم الخطوات التى خطاها العرب في ذلك:

- إحلال العربية محل القبطية في الدواوين.
- إحلال بعض المسلمين محل الاقباط في الوظائف الرسمية.
- فرض أنواع مختلفة من الضرائب على الأقباط.

فإذا انتقلنا إلى العامل الدينى، لم يكن هناك ضغط مباشر على الأقباط ليعتنقوا الإسلام، ولكن عامل الهيبة والسلطة التى كان يتمتع بها المسلمون باعتبارهم الطبقة الحاكمة أغرت الكثير من الأقباط لأعتناق الإسلام لينعموا بالمساواة في ظله، واعتناق الشخص للإسلام تحت حكم عربى يجعله يبدأ في محاكاة المسلمين في كل تصرفاتهم، فيذهب إلى المسجد، يقرأ القرآن، يصلى باللغة العربية ... لذلك عامل الإسلام من الناحية اللغوية يعتبر ذا أهمية قصوى وقد كان من الواضح جداً ارتباط تقدم اللغة العربية وانتشارها بتقدم الإسلام وانتشاره[1].

وقد علق المستشرق الشهير "دى لاسى أوليرى" على أهمية هذا العامل بقوله:

---

(١) د. أحمد مختار عمر، تاريخ اللغة العربية في مصر، وزارة الثقافة، الهيئة المصرية العامة للكتاب والتأليف والنشر، ١٩٧٠، ص ٢٠ ـ ٢١.

"كان انتشار الإسلام بلا شك عاملا من عوامل إحلال اللغة العربية محل القبطية ..".

وأخيرا ... نستطيع القول "أن تفوق أى لغة وتمتعها بالهيبة يرجع إلى قيمتها الذاتية، واللغة العربية قيمتها عظيمة، وتفوق إلى حد كبير القيمة الذاتية للغة القبطية، فهى من ناحية لغة الحكام، ولغة النبى عليه الصلاة والسلام، ولغة حضارة عظيمة وثقافة تفوق اللغة القبطية ..

وقد أشار "فندريس" في كتابه "اللغة" إلى التفوق الذاتى الذى تتمتع به بعض اللغات ومن بينها اللغة العربية، بقوله:

"القدرة على الانتشار التى نشاهدها في بعض اللغات الهندية، الأوربية أو السامية - كاللغة العربية - مثلا ترجع بلا شك إلى أسباب معقدة، ولكن القيمة الذاتية للغة لها في ذلك نصيب"(١).

ويمكننا أن نقف على مدى اتساع الفجوة بين اللغتين القبطية والعربية في هذا الصدد إذا أخذنا في الاعتبار الحقيقتين التاليتين:

أولا: اتساع وسرعة انتشار اللغة العربية، فصارت تمثل العديد من الثقافات، وبمرور الزمن ازداد هذا العامل قوة، حتى جاء صراعها مع القبطية فأصبحت في ذلك الوقت لغة ثقافة عالية.

ثانيا: أن اللغة القبطية في فترة أحتكاكها باللغة العربية كانت في موقف ضعيف بشكل واضح، وذلك لأن لغة الثقافة في مصر لم تكن القطبطية، بل كانت السريانية التى كانت تستعمل بخاصة في جامعة الاسكندرية العتيقة، وأيضا لم تكن اللغة القبطية وحدها لغة الحديث في

---

(1) Vendreys, Language, A Linguistics Introduction to History, First Ed., 1925, New York, R. H. D., P. 209.

بعض أجزاء من مصر بما فيها الإسكندرية وأنها كانت في صراع دائم مع اللغة اليونانية على ذلك(١)، بل يقال أن اللغة القبطية كانت لغة الحديث لعامة الشعب وغير المثقفين فقط وأن الطبقات الارستقراطية كانت تفضل الحديث باللغة اليونانية(٢).

ولكن ضعف اللغة القبطية أمام العربية لا يعنى زوالها من الوجود، فقد فرضت نفسها في فترة ما كلغة حديث حتى على العرب أنفسهم، وتعلمها الكثيرون منهم، ومن عرفوا باجادتهم للغة القبطية القاضى "خير بن نعيم" الذى كان يتكلم للخصوم والأقباط ويستمع لشهادة شهودهم باللغة القبطية. كما أن هذه اللغة ظلت تدرس ويتخصص فيها من يريد على الرغم من اعتبارها لغة ميتة، كاللغة اللاتينية مثلاً التى تعد لغة ميتة ومع ذلك لا تزال تدرس حتى اليوم ولذا فمن الطبيعى أن نجد الناس يعرفون اللغة القبطية حتى الآن، كما أنه من الطبيعى أن يهتم رجال الكنيسة القبطية بوجه خاص بهذه اللغة لكتابة كثير من تراثهم الدينى بها. وإن كان Prince قد ذكر في كتابه The Modern Pronucation of Captic أن "معظم الوعاظ الأقباط غير متخصصين في اللغة القبطية، ولذا فهم يكتفون بترديد الصلوات كالببغاوات باللسان القبطى مع ترجمة(٣).

ويعتبر القرن الرابع الهجرى هو نقطة التحول في لغة الثقافة في مصر، وقرن انتصار العربية على القبطية، وتدعيم مكانها كلغة للمسلمين والأقباط معا .. فقد كانت مصر منذ اللحظة الأولى للفتح الإسلامى مركزا

---

(١) عبّد المسيح، الاساس المتين في ضبط لغة المصريين، ص ٩٠.
(٢) أنظر جاك تاجر، أقباط ومسلمون، ص ٣٠٤، وعبد الرزاق حميدة: الأدب العربى في مصر، ص ١٧.
(٣) د. أحمد مختار عمر، تاريخ اللغة العربية في مصر، مرجع سابق، ص ٥٥.

للثقافة العربية، وجامعة إسلامية تغص بالعلماء والدارسين في مختلف التخصصات.

ففى مجال الدراسات الإسلامية فقد كانت الريادة لأولئك العرب الذين صاحبوا جيش الفتح من الصحابة واتخذوا مصر موطنا لهم، واشتهرت أعمالهم وكان لها تأثير كبير على ازدهار اللغة العربية، وكانت تشمل مختلف فروع الأدب من: قراءات، وأحاديث وشعر ونثر وفتاوى دينية .... الخ.

وإذا نظرنا إلي ميدان الدراسات اللغوية رأينا نشاطا لا يقل عن نظيره في سائر أنحاء العالم الإسلامى وأن بدا متأخرا بعض الشئ، وأول أسم يطالعنا لشخصية لغوية هامة وهو اسم "عبد الرحمن بن هرمز" تلميذ "أبى الأسود الدؤلى" واضع (علم النمو) – في بعض الروايات، وقد أقامه بن هرمز بالاسكندرية إلى أن توفى عام ١١٧ هـ.

ومع مطلع القرن الثالث الهجرى غصت مصر باللغويين والنحاة، ونشطت فيها الحركة اللغوية إلى حد كبير[١].

خصائص اللغة العربية:

وللغة العربية عدة مميزات وخصائص نوجزها فيما يلى:

الأعراب:

ويعنى بالأعراب تغيير أواخر الكلام بتغير العوامل عليها بالرفع والنصب والجر والسكون، واللغات الحية، في العالم المتمدن الآن تعد

(١) المرجع السابق، ص ٦١.

بالعشرات، وليس بينها من اللغات المعربة إلا ثلاث وهى العربية والحبشية والألمانية.

دقة التعبير:

وتمتاز اللغة العربية بدقة التعبير بألفاظها وتراكيبها، أما الألفاظ ففيها لكل معنى لفظ خاص حتى أشباه المعانى أو فروعها أو جزئياتها، ومن أمثلة دقة التعبير فيها وجود الألفاظ لتأدية فروع المعانى، أو جزئياتها، فعندهم لكل ساعة من ساعات النهار اسم خاص بها، فالساعة الأولى الذرور ثم البزوغ ثم الضحى ثم الغزالة ثم الهاجرة ثم الزوال ثم العصر ثم الصبوب ثم الحدور ثم الغروب ... الخ[1].

الأعجاز والإيجاز:

لكل قوم إعجاز في لغتهم، فيدلون بلفظ قليل على معنىً كثير، والعرب أقدر على ذلك من سواهم لأن لغتهم تساعدهم عليه وقد تعودوه وألفوه ومنه في القرآن والحديث والامثال وكتب الفقه والأدب أمثلة كثيرة.

المترادفات والأضداد:

في لكل لغة مرادفات أى عدة ألفاظ للمعنى الواحد، لكن العرب فاقوا بها سائر أمم الأرض، فمثلا فيها للسنة ٢٤ أسما، وللنور ٢١ أسما، وللظلام ٥٢ .... وهكذا. كما أن اللغة العربية تحوى العديد من أسماء الأضداد، فإن فيها مئات من الألفاظ يدل كل منهما على معنيين متضادين مثل قولهم "قعد" للقيام والجلوس، و"نضح" للعطش والرى، و"ذاب" للسيولة والجمود ..... الخ.

---

(١) جرجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مرجع سابق، ص ٤٧.

حكاية الأصوات:

من خصائص اللغة العربية أن لألفاظها وقعا على الأذن يكون له تأثير موسيقى يختلف شدة ولطافة باختلاف التراكيب فيؤثر في النفس تأثيرا خاصا سواء أكان نثرا أم نظما ....[1].

ومن هذا كله نصل إلى حقيقة مؤداها أن اللغة العربية بلا شك تحتل مكانا مرموقا بين لغات العالم، بما تحويه من مميزات وقدرات نجدها غير متوافرة في كثير من اللغات الأخرى، بالرغم من كون تلك اللغات هى لغات بلاد أكثر تحضرا وتقدما من بلادنا ...

وفى وقت من الأوقات ومن شدة إحساس الغزاة والمستعمرين للعالم العربى بتأثير العربية على أرضها، جعلهم يفكرون في القضاء على اللغة العربية أولا، وكم لاقت العربية من بطش الغزاة والمستعمرين على أرضها سواء ذلك في المغرب أو في المشرق العربى، ولكن رغم هذا انتصرت العربية على هذه المحاولات.

إن اللغة العزبية لم تكن لغة المسلمين في مشارق الأرض، أو مغاربها من أواسط الهند شرقا إلى جبل طارق غربا وإنما كان يمكن أن تكون لغة المسلمين أيضا في غير العالم العربى في العصر الحديث، وعلى سبيل المثال لا الحصر الباكستان ـ بعد استقلالها ـ حين اتجهت إلى محاولة اعتبار العربية لغتها الوطنية ، لما وجدت بينهما وبين لغتها الأوردية من صلات قربى ورحم، إلا أن المحاولة باءت بالفشل.

وقد احتلت العربية مكانة رفيعة وذلك عن طريق انتشارها كلغة الأدب بين الشعوب العربية الأفريقية، فاللغة العربية هى بلا شك إلى الآن

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٠ ـ ٥١.

هى لغة التفاهم الشفهية بين المسلمين في سائر أنحاء العالم، كما أنـها كـانت سائدة في معظم الشـعوب الأفريقيـة فـي الجنـوب قبل الغـزو الاسـتعمارى، وهى إلى الآن لغـة أساسـية فـي موريتانيـا بجـانب اللغـة الفرنسـية، كمـا أن المدارس والجامعات في كل من السـنغال ومـالى ونيجريـا يحرصـون علـى تدريس العربية وتخريج متخصصين فيها[1].

ولـهذه المكانـة الهامـة للغـة العربيـة، بـدأت كثـير مـن الجامعـات والمراكز العلميـة الاهتمـام باللغـة العربيـة وآدابـها، فعلـى سـبيل المثـال: أصدرت الأستاذة "سارانيلى" - أستاذة الإسلاميات بجامعة (نـابولى) مقالـة بعنوان:

"لغتكم العربية في عيوننا".

أوضحت فيها اهتمام الجامعات والمعـاهد الإيطاليـة باللغـة العربيـة فتقول: "إن جامعات إيطاليا تمر بفترة مزدهرة في تـاريخ تعليم العربيـة رسميا، فتاريخ تدريس اللغة العربية بدأ منذ القرن السابع عشر في جامعات رومـا، وقسم اللغـة العربيـة فـي جامعـة رومـا يتبـع المدرسـة الشـرقية فـي الجامعة، ويهتم أيضا بدراسة الإسلاميات واللهجات العربية ....".

ومما لا شك فيه بعد هـذا العـرض أن أهميـة العربيـة الفصحـى فـي حياة مجتمعنـا تقف جنبـا إلـى جنـب بجـانب أهميـة العاميـة بالنسـبة لأفـراد المجتمـع، ونحـن نلاحـظ فـي مجتمعنـا أن أبنـاء اللغـة العاميـة أعنـى أفـراد الشعب الذين لم يتعلموا الفصحى حينما يسمعونها يفهمونها وتصـل معانيـها ولو مجملة إلى أذهانهم في صـورة الفـهم والوعـى ونتسـاءل هنـا: مـا الـذى

---

(1) Sebock T. A., "Linguistics in Subsaharan Africa", (Currents Trnds in Linguistics), Volume 7, 1971, PP, 506 – 507.

جعل أفراد الشعب الذين لم يتعلموا اللغة الفصحى يفهمونها حين يسمعونها بعد لغتهم العامية ؟؟..

فالواقع أننا إذا استقصنا نواحى الصلة بين أفراد الشعب، الذين لم يتعلموا وبين اللغة الفصحى قبل الفترة الأخيرة التى انتشرت فيها الصحافة والاذاعة والتليفزيون خاصة في الريف، نجد أن الصلة تكاد تنحصر في ثلاث نقاط(١).

١- خطبة الجمعة التى يسمعونها أو يسمعها معظمهم كل أسبوع حيث أنها تلقى باللغة الفصيحة.

٢- بعض سور وآيات القرآن الكريم التى يحفظونها لاداء الصلاة.

٣- الرقى اللغوى في الأدب الشعبى من حيث الألفاظ الفصيحة والأساليب العربية التى يحويها. وهذا الأدب الشعبى يتداولونه فيما بينهم ويستمعون إليه في حياتهم اليومية فيديرون في مجالسهم ويسمرون في لياليهم بآدابهم الشائعة فيهم حسب اختلاف المناطق والمجتمعات، كما يستمعون في المناسبات إلى الأغانى والتواشيح وما إلى ذلك من فنون الآداب الشعبى(٢).

ولا شك أن هذه الصلات الثلاث تقربهم من اللغة الفصحى لما تحويه من ألفاظ ومرادفات يفهمونها بعد ذلك حين يستمعون إليها. لذلك فأبناء العامية حتى وإن لم يتعلموا اللغة الفصحى في المدارس فهم يستطيعون فهم ولو مقاطع منها توضح لهم المضمون الذى تحويه ألفاظها ومرادفاتها.

---

(١) عبد الحليم حفنى، المراقى الشعبية، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣، ص ٢٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤٣.

وقضية "الفصحى والعامية" من أهم المشاكل التي تثير الجدل والمناقشة بين رجال الفكر والقلم ... وذلك لأن (الفصحى) لا يعرفها إلا المثقفون ولا يتخاطب بها إلا طوائف محددة .. أما العامية الدارجة فهي كثيرة الأنواع وتختلف اختلافا واضحا من مدينة لأخرى، بل أنها قد تختلف في بعض الأحيان من حارة إلى حارة، ومن جماعة إلى جماعة في المدينة الواحدة ...

ولما كانت اللغة مادة حية وظاهرة اجتماعية تخضع مثل غيرها من ألوان النشاط الإنسانى إلى عوامل الزمان والمكان فتتأثر بها سلبا وإيجابا، فلا تخلو أى لغة لأية أمة من الأمم من مثل هذا التغير تمشيا مع حياة اللغات وطبيعتها وإذا قارنا بين لغتنا العربية اليوم ولغة أجدادنا في العصور السالفة لأدركنا التطور الذى قد يلحق بها من عصر إلى آخر، كما ندرك فرق لغتنا الآن وما كانت عليه العربية عبر تلك العصور .. هذا على مستوى الفصحى.. لغة الأدب والثقافة فما بالنا بلغة الحياة الدارجة في الاستعمال اليومى ؟؟ ولغتنا ليست بدعا في ذلك بين اللغات، وإن كانت تتميز بكونها لغة القرآن، الأمر الذى أورثها قوة خاصة وصفات حفظت لها خصائص معينة أبقت عليها وحفظتها من الاندثار، وهى بذلك "تكون قد أضعفت تأثير الزمن وحدت من التباين بين العربية الفصحى ولهجات الكلام[1].

ويقول فرجسون C. A. Ferguson:

---

(١) السيد يعقوب بكر، دراسات في فقه اللغة العربى، (بيروت مكتبة لبنان ١٩٦٩)، يقول أيضا في ذلك ص ١٥ "من المسلم به عامة أن العربية حافظت على الحروف والحركات السامية القديمة أكثر مما حافظت عليه أية لغة سامية أخرى".

"إن اللغة العربية لغة محافظة تتغير في بطء، فدرجة الاختلاف مثلا بين عربية القرن الثامن عشر وعربية القرن العشرين أقل قلة واضحة منها بين انجليزيتى هذين القرنين"(١).

ونحن إذا نظرنا فعلا إلى اللغة الانجليزية، فإننا سنجد أن المواطن الانجليزى حتى المتعلم والمثقف لا يكاد يفقه لغة أديبه الكبير "شكسبير" دون الرجوع إلى المعاجم القديمة، كما أن هناك فروقا واضحة بين لغة الكتابة عندهم وبين اللهجات التى يتحادث بها الناس في حياتهم اليومية، حتى لقد ألف أحد علماء اللغة معجما خاصا للغة الدارجة في لندن، ومعجما آخر للغة المجرمين الانجليز(٢).

وقد كانوا قديما يطلقون على الانجليزية الفصحى اسم (انجليزية الملكة) وهذا كان معناه في رأى علماء اللغة أن هناك لغة خاصة بالنبلاء ولغة خاصة بأبناء الشعب ولكن الآن استطاعت وسائل الاعلام المختلفة اذابت الفوارق بين هاتين اللغتين، خاصة بين الأميين وبين من يتقنون القراءة والكتابة.

"وأوليفا سميث" أستاذة علم اللغة الاجتماعى في جامعة اكسفورد لها كتاب بعنوان "سياسات اللغة" توضح فيه أن:

انجليزية الملكة لا تزال موجودة في القواميس أساسا وهناك من يحاولون جعلها "لغة الشعب كله" ...

---

(١) ورد ذلك في دائرة المعارف البريطانية Encyclopaedia Brittannica. المجلد الثانى ص ١٨٢ ب ..

(٢) ألف العلامة (اريك بارتروج) أستاذ اللغات الانجليزية معجما للغة الإنجليزية العامية، بحث فيه بحثا علميا للغة الدارجة لأهالى لندن. ثم أخرج معجما آخر للغة المجرمين من الانجليز قضى في وصفه خمس سنوات .. أنظر: على عبد الواحد وافى، علم اللغة، ص ١٨٥ ـ ١٨٩.

وتناقش - "أوليفا سميث" هذا الاحتمال من خلال مسرحية "بيمجاليون" - لبرنارد شو والتى أصبحت تعرف في لغة العامة باسم سيدتى الجميلة بعد الفيلم الشهير فتقول:

هل كان "البروفسير هينز" يدرس "لاليزا دولتيل" بطلة المسرحية اللغة الانجليزية التى يتكلمها هو أم كان يدرس لها مثالا كلاسيكيا لا وجود له إلا في قاموس صومئيل جونسون الذى طبع في القرن الثامن عشر ليحافظ على نقاء لغة شكسبير من حوشية أهالى المدن الجهلة المختلطة بسوقية أهالى الريف الغلاظ في انجلترا القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ...؟؟

وتؤكد هنا "أوليفيا سميث" أن لغة القاموس هى التى كان يحرص عليها "البروفسيور هيجنز" وأنها في نظرها لم تكن لغة حية، بقدر ما كانت لغة فصيحة، وأن اللغة التى كانت "اليزا دولتيل" تتكلمها قبل خضوعها لهجينز كانت هى اللغة الأكثر حياة .. وأقل دقة ... وتقول أيضا أن تسمينا للغة السوقية (مقابل لغة الملكة) هو أمر يصلح أكثر للخطاب اليومى، وللغناء، وللمظاهرات ولملاعب الرياضى - وما شابه ذلك، ولكنها لا تصلح للعلم ولا لتعلم اللغة ... ولا للسياسيين رغم أنهم لابد أن يخاطبوا الناس بلغتهم ففى السياسة كما تقول "أوليفا سميث" تكون الدقة أهم من البيان شأن العلم تماما ..

إن واقع اللهجات العامية وطبيعتها حقيقة لا نستطيع أن نفر منها، وإنما يجب أن نواجهها في شجاعة، وأن نفكر كيف نسمو بها ونقرب بينها ما دام أهلها جميعا ينطقون لغة واحدة هى اللغة الفصحى التى انشعبت عنها وتفرعت هذه اللهجات.

ويوضح إبراهيم السامرائى في كتابه "التطور اللغوى التاريخى" هذا الاقتراب حيث يعد اللغة الفصحى من مصادر العامية، حيث أن كثيرا من ألفاظها تستعملها العامة استعمالات تبعد عما ألف في الفصيح المشهور، كذلك تعد الفطرة العامية والميل إلى التخفف من قيود الأعراب إلى الاكثار من العامية، هذا بالإضافة إلى مصادر أخرى للعامية مثل الدخيل من اللغات الأخرى بحكم الحاجات المتنوعة التى ولدتها الحضارة وبحكم الاتصال والاحتكاك.

وإذا ذهبنا نتتبع مظاهر الضعف اللغوى وتزايد الأخطاء في اللهجات حتى القرن التاسع عشر الميلادى، لرأينا مدى سيطرة هذا الضعف ونفوذ العامية في تاريخ "الجبرتى" وفى كثير من أشعار هذا القرن بتأثير الاتراك والضعف العام الذى أورثوه وحياة المسلمين(١). ولكن هذا لا يعنى أن اللغة الفصحى قد تلاشت أو فقدت نفوذها، فاللغة الفصحى ظلت لها قوتها الأدبية باعتبارها أولا وأخيرا "لغة القرآن" وهو الحصن الذى لا يمكن اختراقه.

العامية والفصحى .. وأزمة الثنائية:

مشكلة الفصحى والعامية مشكلة ارتبطت بالوجود الاستعمارى في وطننا العربى، وقد عرفت "العربية" هذه الظاهرة منذ قديم الأزل، وظلت اللهجات المحلية تعيش جنبا إلى جنب الفصحى، ولكن مهما يكن من تفاوت اللهجات المحلية وحريتها في الخروج على قيود الفصحى وقواعد النحويين واللغويين، فإنها لم تعد أن تكون لهجات شعبية للعربية وليس من المتصور

---

(١) محمود فهمى حجازى، اللغة العربية عبر القرون، المطبعة الأهلية، ١٩٦٨، ص ٦٣ ـ ٦٨.

أن تحمل أى لهجة منا على لغة لـها قديمـة قبل العربيـة، كل هـذه اللـهجات تطور مستحدث تعربت فيه ألسنة العامة بقدر ما اسعفتها حناجرها وتطلبت حياتها وحكمت ظروفـها، وقـد بعـدت بـهذا التقرب مـن لغاتـها عـن لغاتـها القديمة المهجورة، فحين نقول:

العامية المصرية أو الشامية والعراقية ... فليسـت إلا العربيـة علـى لسان أهل هذه الأقطار[١].

إذن ... ظـاهرة الثنائيـة اللغويـة لم تكـن طارئـة، بـل هـى ظـاهرة طبيعية فـي حياتنـا اللغويـة، وقـد حـاول الاسـتعمار مـن قبـل أن يجعـل مـن العاميات سلاحا ضد الفصحى، ووجد في اختلاف اللهجات الاقليمية ذريعـة للقضاء على اللغة الواحدة المشتركة، وقد قامت عدة محلات من قبـل تدعـو إلى (العامية) وتكشـف عـن مزاياهـا مـن السـهولة والمرونـة والقـدرة علـى التعبير عن مطالب الحياة العصرية، وقد كان الاستعمار يحـاول فـي البدايـة احلال لغاته محل العربية، فإن فشل فلتكن اللهجات العامية هى السلاح الذى يقضى به على عربيتنا ولغتنا الفصحى[٢] ...

ويعتـبر الدكتـور "ولـهلم سـبيتل Dr. Wilhelm Spitta الألمـانى الجنسيّة من أوائل الكتاب الأجانب الذى قام بنشر هذه الدعوى (دعوة احلال العامية بدلا من الفصحى) عن طريق كتابه:

"قواعد العربية العامية في مصر"[٣].

---

(١) عائشـة عبـد الرحمـن (بنـت الشـاطئ)، لغتنـا والحيـاة، القـاهرة، معـهد البحـوث فالدراسات العربية، ١٩٦٩، ص ٩٦.

(٢) د. نفوسـة زكريـا، تـاريخ الدعـوة إلـى العاميـة فـي مصـر، دار نشـر الثقافـة بالاسكندرية، ١٩٦٤، ص ١٨.

(٣) المرجع السابق، ص ١٩.

وقد انبثقت بعد هذا الكتاب الدعوة إلى اتخاذ العامية لغة أدبية، كما انبعثت الشكوى من صعوبة العربية الفصحى، وقد ألقى "سبتيا" على اللغة الفصحى "تبعة انتشار الأمية والتخلف الفكرى والسياسى وتصور أن العامية تصلح لأن تكون لغة كتابة تروج بها الثقافة ..

وقد أرجعت د. نفوسة زكريا في كتابها (تاريخ الدعوة إلى العامية في مصر" محاولة هذا المستشرق إلى أهداف ومخططات استعمارية للقضاء على العربية الفصحى وهويتنا القومية ..

بينما استبعدت الدكتورة عائشة عبد الرحمن في كتابها (لغتنا والحياة) أن تكون هذه المحاولة ضمن مخطط استعمارى، وذلك لأن هذا المستشرق على حد قولها، ألمانى الجنسية لذلك من الصعب أن يعمل لحساب الاحتلال الانجليزى، وتقول أن كل ما في الأمر أن مشكلة "الثنائية اللغوية" شغلت هذا المستشرق وكان قد اتصل بالفصحى في نصوصها الرسمية والأدبية الهابطة واتصل بالعامية لغة الحياة والأدب الشعبى، وقارن هذا الوضع بما كان من أمر اللاتينية التى أماتتها اللغات الفرعية، فتصور أن العربية سائرة حتما إلى مثل هذا المصير ....

ونحن نتفق تماما مع وجهة نظر عائشة عبد الرحمن، حيث أن نشر هذه المحاولة (محاولة سبيتا) باللغة الألمانية يبعدها تماما عن مجال التأثير في المجال الفكرى لمصر وذلك لصعوبتها ...

وفى عام ١٨٩٣ جاءت محاولة أخرى للقضاء على العربية الفصحى، وكانت تلك التى قام بها مهندس الرى الانجليزيى "ويلكوكس". فقد قام "ويلكوكس" بالقاء محاضرة دعا فيها إلى إحلال العامية محل الفصحى في الكتابة والتأليف بعنوان:

"لم لا توجد قوة الاختراع لدى المصريين إلى الآن؟ .." [١].

وكان يرجع عدم وجود قوة الاختراع لدى المصريين إلى استخدامهم للغة العربية الفصحى في كتاباتهم، أما إذا استخدموا بدلا منها اللغة العامية استطاعوا من خلالها احياء ملكة الابتكار ... ولخوف "ويلكوكس" من أن تذهب محاضراته في (الدعوة للعامية) مع الريح بعد القاءه، قام بنشرها في العدد الأول من مجلة (الأزهر) التى كان يرأسها في ذلك الوقت .. وأعلن أنه يفسح صدر المجلة للعلماء أن يكتبوا بحوثهم باللغة العامية الحية التى يعرفها الشعب .. ولكن ما حدث من العلماء المصريين هو العكس تماما، فقد بدأوا بارسال بحوثهم للمجلة باللغة العربية الفصحى، وذلك تحديا للدعوة ومحاربتها[٢].

إذن .. الصراع بين العربية الفصحى والعامية العربية وأزمة الثنائية بينهما قديم، ومر بمراحل مختلفة، وما من شك أن كل مرحلة تؤثر في بنيان اللغة، هذا التأثير نلمسه بوضوح في كثير من جوانب اللغة الآن.

وقد يعتقد الكثيرون أن ظاهرة الثنائية اللغوية هى سبب الأزمنة اللغوية التى يمر بها مجتمعنا الآن، فنحن نقرأ ونكتب ونتعلم بلغة، ونتعامل في حياتنا بلغة أخرى ... ولكن هذا غير منطقى ... وذلك لأن معظم اللغات تعرف هذه الثنائية، يختلف فيها دائما لغة البيت والسوق عن لغة المدرسة والجامعة والأدب، ولكن الفرق هنا يكمن في طريقة التعامل باللغة .. فنحن إذا نظرنا للتلاميذ في المدارس في أى بلد من البلاد الغربية لوجدنا أنه ما يكاد يقطع مراحل تعليمه العام حتى يلم بقواعد لغته ويقرأ بها ويكتب، دون أن يمنع ذلك من استعماله للعامية في مجالها، كما أننا إذا نظرنا إلى علماء

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٣. .

(٢) المرجع السابق، ص ٤٥.

العربية عندنا، لوجدناهم يتعاملون باللغة العامية في حياتهم اليومية، وهذا لا يؤثر على براعتهم في الفصحى والمامهم بكل أسرارها وجمالها ...

إذن .. الأزمة اللغوية تكمن في طريقة تعليمنا للغة في بلادنا فنحن نصبها في عقول تلاميذنا صبا دون مراعاة أن يتعلمها التلاميذ كلغة حياة ولسان أمة، دون، محاولة منا للوقوف على جمالها ورونقها وأسرارها وتلقينها لأبنائنا في دور العلم.

ونحن ما زلنا نعيش في جوانب تلك الأزمة اللغوية بكل صورها خاصة الأزمة التى تظهر بوضوح في عاميتنا الدارجة، حيث أصبحت هذه اللغة العامية لغة تخلو تماما من صور الرقى والسمو اللغوى، وبدأت هذه الأزمة تتفاقم بدرجة فائقة إلى حد يؤشر بخطورة بالغة لمستقبل هذه اللغة ..

أزمة العامية في مصر (ظاهرة الاقتباس والمستحدثات):

لا يختلف اثنان في أن العربية تعانى من أزمة واضحة على لسان من يتكلمها ومن يكتبها، وقد يرجع البعض ذلك إلى نقص طرق تعليمها والقصور في وسائل الحفاظ على بنيانها .. ولكننى أضيف إلى ذلك عامل التغيرات الجذرية التى حدثت في مجتمعنا في السنوات الأخيرة فخلقت بيننا شعورا لم نعرفه من قبل وهو الاستخفاف باللغة ...

وهناك جوانب كثير من هذا الاستخفاف نلاحظها في:

١- الكثرة الكثيرة من الاخطاء اللسانية التى نسمعها على ألسنة الخطباء والأئمة والمسئولين.

٢- لغة الاذاعة (المسموعة والمرئية) وما تحويه من أخطاء وتدهور لغوى لم نشاهده من قبل.

٣- الاقتباس في معظم مرادفات اللغة حتى وإن كان لها نظير في الأصل.

٤- المستحدثات الدخيلة على العامية وما تتضمنه من معانى هابطة خالية من صور التهذيب والرقى اللغوى.

والحكم على لغة قوم ما ووصفها بالقوة أو بالضعف لا يبنى على كلام عامة الناس في شئون حياتهم اليومية فقط، بل يبنى على ما يقوله أو يكتبه الشاعر أو الأديب أو رجل العلوم[(١)].

وإذا نظرنا إلى الأعمال اللغوية التى تحيط بنا الآن، لا نستطيع انكار أن هناك ضعفا في الأداة اللغوية في مختلف التخصصات فشعر الشاعر نجده في حالات كثيرة مليئا بالخطأ وبركاكة التركيب وكتابات بعض رجال الصحافة أصبحت خالية من نواحى الجمال في اللغة، ورجل العلوم حين يكون عباراته العلمية مما لا يعتمد على رموز العلم قد تجئ كتاباته أحيانا خالية من الدقة اللغوية والتى لا تتلاءم مع التفكير العلمى.

وخطباء وأئمة المساجد من غير العلماء ورجال الأزهر نجدهم في كثير من الأحيان يلجأون إلى العامية هروبا من بلاغة الفصحى، ثم نجد عاميتهم مليئة بالأخطاء اللغوية. وهذا يكشف لنا مدى انحدارنا إلى عامية لا تغذى وجداننا فضلا عما أصاب حاستنا الجمالية التى ورثناها عن كتابنا من الأجيال السابقة، حيث أن الكثيرين الآن في مختلف المجالات قد بدأوا ينزلقون ليس فقط إلى (عامية أدبية) وإنما إلى (عامية عادية) وهى عامية أصبحت لا تخلو من الأخطاء.

---

(١) محمود السعران، علم اللغة، رأى ومنهج، المطبعة الأهلية، ١٩٦٩، ص ١٦.

فاللغة التى يتكلمها الشعب المصرى في الفترة الأخيرة لغة عربية محرفة عن أصولها خارجة عن نظمها وقواعدها.

ويقول د. أحمد عيسى في كتابه "الحكم في أصول الكلمات العامية"[1]: "أن اللغة العربية العامية التى يتكلمها الشعب المصرى ليست بعيدة كل البعد عن العربية الفصحى، وإنما الاتساع في العبث بها والتسامح في أخطاءها أدى إلى التحريف والتغيير في كثير من جوانبها". وهى تختلف من وجهة نظره في أمرين:

- الأعراب وهو الابانة عن المعانى بتغيير أواخر الكلام.
- تركيب الحروف وما اختلف فيه عن اللغة الرئيسية.

وأزمة العامية الدارجة تكمن الآن في جانبين رئيسيين، وهم:

أولا: الاقتباس

إن اللغة كما نعرف كائن حى، يتطور على الدوام بتطور المجتمع وينمو تبعا لنمو الافكار وتنوع الحاجات، فإن لكل كلمة، وكل أسلوب، وفى كل لهجة وفى كل لغة تاريخ طويل أو قصير ... وظاهرة الاقتباس في اللغة ظاهرة قديمة، ولكنها قد تصبح في كثير من الأحيان ظاهرة خطرة تهدد اللغة في بلدها الأصلى.

وقد طرأت تحولات عديدة على اللغة العربية في مختلف البلاد منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى، فقد حدثت تطورات كبيرة في لغة الدواوين، وفى لغة الصحف، وفى لغة التخاطب في مختلف البيئات مشتقة من أصول

---

(١) أحمد عيسى، الحكم في أصول الكلمات العامية، الطبعة الأولى، مطبعة القاهرة، ص ٥ _ ٦.

فصيحة، أو مقتبسة من اللغات الأجنبية. ومعظم هذه الكلمات المقتبسة كانت فرنسية في بعض البلاد العربية وانكليزية في بعضها الآخر، وأسبانية في بعضها، وإيطالية في بعضها الآخر، وذلك تبعا للأوضاع السياسية الخاصة التى طرأت على كل واحدة من تلك البلاد[1].

ولكن ما طرأ على اللهجات العامية في البلاد العربية لا يهمنى في هذا المقام، وإنما يعنينى ما أصاب لغتنا العامية داخل القطر المصرى. فقد أصبحت ظاهرة الاقتباس ظاهرة شائعة لدرجة تثير المخاوف، فنحن نعرف جيدا أن لغتنا العامية مليئة بالألفاظ والمصطلحات المقتبسة والتى نقولها ونرددها كجزء لا يتجزأ من لغتنا على الرغم من أن لها نظيرا في اللغة العربية، ولكننا تعودنا على نطقها بما ألفناه من جيل إلى جيل ... فعلى سبيل المثال:

نحن نقول: تليفزيون بدلا من إذاعة مرئية

تليفون بدلا من جهاز المسرة أو الهاتف

ساندوتش بدلا من شاطر ومشطور وبينهما طازج.

- كما أننا نلاحظ مثلا معظم المصطلحات الخاصة بالسيارات مقتبسة من اللغة الانجليزية، فمثلا نقول:

دريكسيون - استبن - شاكمان - كوريك - بوجيهات

ونحن لا نستطيع أن نمنع لغة حية من الاقتباس، ولكننا نستطيع الحد منه بقدر المستطاع، وبالقدر الذى لا يصبح الاقتباس فيه يشكل خطرا على بنيان لغتنا.

---

(١) جرجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مرجع سبق ذكره، ص ١١٤.

ولكننا حين ننظر الآن إلى تلك الظاهرة ... نجدها تسير بسرعة فائقة في لغتنا العامية وتسيطر على معظم جوانب حياتنا ونشاطتنا. ومن جوانب هذه الظاهرة الخطيرة ما نراه الآن ونلمسه في مجتمعنا وفيما بين أفراده من معاملات ونشاطات: فعلى سبيل المثال: قد نقرأ في كثير من الأحيان في الصحف القومية إعلانات عن افتتاح "جيشيه بنك مصر" وكلمة "جيشيه" في بنوك البلاد الأوربية هى الكلمة الفرنسية المرادفة لكلمة "شباك الصرف" إذن هناك مرادف لها في لغتنا، ومع ذلك يستخدمها العديد من الناس.

كما نشاهد معظم المراكز التجارية وقد تحو اسمها إلى "شوبنج سنتركومبلكس" والرحلات السياحية صار اسمها "تورز" هذا غير كلمات: بوتيك - سوبر ماركت التى أصبحت على كل محل تجارى.

كما أن هناك بعض المسميات التى تثير العجب حينما نقرأها، وذلك مثل (السلام شوبنج سنتر لملابس المحجبات) فكيف يعقل أن يكون محلا تجاريا يغلب عليه الطابع الدينى الإسلامى، ومع ذلك يصر على استخدام كلمات أجنبية لتصف نشاطه.

حتى وزارة التعمير وهى جهة حكومية رسمية، فقد لاحظت في اعلاناتها في الفترة الأخيرة عن بيع الوحدات السكنية، أنها تستخدم كلمة (تراس) وترجمتها في العربية (الشرفة) وغيرها كثير في هذه وتلك الاعلانات، وهذا يعنى أنه حتى الدولة نفسها أصابتها عدوى التغريب[١].

وإذا كان يظن أصحاب هذه الموجة من التغريب أنهم باستخدام تلك المصطلحات يستطيعون إقناع الناس بأن كل ما هو اسمه غريبا يكون حسنا

---

(١) انظر جريدة الأهرام الصادرة في ١٩٨٧/٨/٥.

وجيداً، فهم بلا شك مخطئون، لأنهم بذلك يخاطبون فئة معينة من الشعب وليس غالبيته، وهي تلك الفئة التي حققت ثراء فاحشاً وسريعاً في السنوات الأخيرة الماضية فهم حقيقة يملكون المال ولكنهم لا يملكون العقول المستنيرة التي تعينهم على حسن استثمار ما بين أيديهم، وإنما يتحكم فيهم ما يعانون منه من جهل وضيق أفق ونقائص نفسية وسلوكية تعود عليهم وعلى مجتمعهم بالضرر وبمزيد من التخلف.

ثانياً: المستحدثات

الجانب الثاني من جوانب الأزمة التي تعاني منها العامية الدارجة هو ذلك الشق الخاص بظهور المستحدثات والكلمات الدخيلة على العامية في الفترة الأخيرة، فبعد حرب أكتوبر تغيرت أوضاع المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، هذه الجوانب الثلاثة من أهم العوامل التي لعبت دوراً هاماً في اقتحام هذه المستحدثات التي تعبر عن تلك التغيرات في لغتنا العامية. أصبحنا اليوم نعتاد سماع كلمات ومصطلحات لم نعهدها من قبل بل أنه في كثير من الأحيان لأنفهم معناها وذلك لغرابتها في النطق والمضمون ... كما كثر استخدام الكلمات التي تعبر عن معنى معين وتوظيفها للتعبير عن مضمون مختلف تماماً عن معناها الأصلي، وتعددت أساليب الكنايات والتورية في الاستخدامات اللغوية لتلك المصطلحات .. والأزمة كبيرة وخطيرة، وأصبحت تتفاقم وتتسع يوماً بعد يوم .. ولأهمية هذا الجانب وما يحدث في لغتنا العامية من تدهور وانحطاط (موضوع هذا البحث) سنتحدث بالتفصيل عن أسباب هذه الأزمة والعوامل المؤثرة فيها بشئ من التفصيل.

لقد غيرت حرب أكتوبر وجه الحياة في المجتمع المصرى، هذا التغير شمل معظم جوانب حياته وأنظمته، ترتب على هذا التغير تناقضات عديدة ظهرت في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فقد تغير الهيكل السياسى للمجتمع المصرى بعد الحرب، وهذا التغير السياسى تعددت فيه الآراء والاتجاهات، واستتبعه بالضرورة تغير في البناء الاقتصادى للبلاد، وقد تبعه تغير في وجه الحياة الاجتماعية أيضاً.

ويرتبط مفهوم التغير بتغير الزمن، وذلك لأن عامل الزمن يلعب دوراً هاماً في إدراك التغير الذى حدث في المجتمع، فالإحساس بالتغير هو إدراك للفرق بين ما كان وما هو كائن، وما سيكون، أو بعبارة أخرى هو إدراك لأوضاع سابقة وأخرى لاحقة(١).

وقد تعددت العوامل التى تؤدى إلى حدوث التغير، وينظر إلى تلك العوامل في ضوء ما بينهما من علاقات وظيفية، بمعنى أنه ينظر إلى أحد العوامل في بعض الأحيان باعتباره متغيراً "مستقلاً"، وفى أخرى على أنه "متغير معتمد" وذلك حسب درجة تأثيره أو تأثره بغيره من ظواهر، ففى حالة تأثير الظاهرة في ظواهر أخرى تعتبر متغيراً مستقلاً، وفى حالة تأثر ذاتها بغيرها من الظواهر تعتبر متغيراً تابعاً(٢).

وعوامل التغير لا تحدث نفس التغيرات والآثار في كل المجتمعات بل تختلف من مجتمع لآخر، كما أنها عندما تحدث فإنها تؤثر في معظم جوانب المجتمع، حيث نجد التغير يحدث في كل من:

- الناحية الاقتصادية.

---

(١) محمد عاطف غيث، علم الاجتماع، دار المعارف، ١٩٦٠، القاهرة، ص ١٩٠.
(٢) المرجع السابق، ص ٥٤.

- الناحية السياسية.

- الناحية الاجتماعية والثقافية.

وكل تلك الجوانب لها تأثير فعلى على الجانب اللغوى، باعتبار أن أية لغة في أى مجتمع لابد وأن تواكب ذلك التغير حتى ولو كان تغيراً إلى الأسوأ وذلك بوصفها أداة عاكسة للثقافة والحياة السائدة.

التغير الذى حدث في المجتمع المصرى وأثره على لغتنا العامية الدارجة:

لقد تعرض المجتمع المصرى في الفترة الأخيرة التى أعقبت حرب أكتوبر ٧٣ لتغيرات جذرية كانت من وجهة نظرى لها أثر بالغ وأساس في حياتنا اللغوية، فالتغير الذى حدث شمل معظم جوانب الحياة في مصر، هذا التغير أدى بالضرورة إلى تغير البناء اللغوى وهو موضوع هذا البحث.

فلا شك أن اللغة الدارجة على ألسنة الناس تختلف عن اللغة الرسمية (اللغة الفصحى) في أى مجتمع من المجتمعات، واللغة الدارجة هى أسرع في التأثر بأى تغير يحدث، وذلك لكونها اللغة المستعملة في الحياة اليومية وفى كل التعاملات التى تقوم بين أفراد المجتمع الواحد، فعلى الرغم من أن اللغة الدارجة تدين بخصائصها إلى اللغة الأم (اللغة الفصحى) إلا أنه كلما استخدمت اللغة الدارجة بطريقة مختلفة عن اللغة الأم أمكننا قياس مدى العلاقة بين الاثنين، فأى تشويه صوتى أو لغوى ولو على قدر ضئيل سيؤدى إلى تحطيم الحدود التى تربطها باللغة الأم(١).

وقد أدى تغير الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في مصر في الفترة الأخيرة إلى اختلال الوضع السائد في المجتمع، فظهرت

---

(1) Vedreys, J., Language, A Linguistics Introduction to History, First Ed. 1925, New York, T. By Paul Radin, P. 312.

أوضاع لم نألفها من قبل، وانقلبت الموازين وتخلخلت الطبقات وتباينت، وظهرت أفكار وقيم واتجاهات لم نعهدها من قبل، وما يهمنى في هذا المقام هو أن أضع يدى على أثر ذلك كله في حياتنا اللغوية، لذلك يجب أن أشير أولا إلى أوجه التغير التى حدثت في أوضاعنا مع محاولة تحليل التغير اللغوى الذى يحدث الآن في ضوء هذه العوامل.

إن التغير خاصية عامة ودائمة وجوهرية في الحياة الاجتماعية كما هو الوضع في كل جوانب الطبيعة، ومن ثم فإننا لا نستطيع أن نتقبل نظرية في تحليلاتنا السوسيوانثربولوجية لا تفسر لنا الأحداث والحقائق التى تتمثل في أنماط متنوعة من التغير في الانساق المجتمعية[١] فعلى سبيل المثال:

أدت استثمارات النفط إلى تغيرات جذرية في اقتصاديات الدول العربية المنتجة له ـ فقد اندثرت في الدول المنتجة نشاطات اقتصادية تقليدية كالرعى والزراعة، وأصبح التصنيع وما يرتبط به من أساليب في الإدارة والأجور والاختيار المهنى وتنمية لقطاع المصارف والتأمين ووسائل الاتصال وغيرها كبديل للنظم التقليدية في تلك المجتمعات القبلية[٢].

كما ترتبت على تلك الاستثمارات الحديثة في المجتمعات النفطية هجرات عمالية جاءت أولاً للعمل بقطاع التعدين في مشروعات البحث عن النفط واستخراجه ثم للعمل بقطاع الخدمات في مجالات الاسكان والتعمير والصحة والتعليم وغيرها[٣].

---

(١) د. محمد عبده محجوب، انثربولوجيا المجتمعات البدوية، الطبعة الثانية، ١٩٨١، الهيئة المصرية العامة للكتاب (فرع الاسكندرية) ص ١٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٩.
(٣) المرجع السابق، ص ٩ ـ ١٠.

وقد تعرض المجتمع المصرى وتركيبه لعدة تغيرات جـ ذية أدت إلى تغير كبير وواضح في البناء الاجتماعى له، وسأقوم هنا بالتعرض لـهـ ا التغير بالتفصيل في محاولـة للكشـف عـن انعكـاس هـ ا التغير علـى البنـاء اللغوى مع التركيز على العامية الداذجة باعتباذها موضوع هـ ا البحث.

أولاً: التحول الاقتصادى في السنوات الأخيرة وأثره على العامية

١ـ مرحلة الانفتاح الاقتصادى:

منـ أوائل السـبعينات، حـدث تحـول كبـير فـي سياسـة مصـر الاقتصادية، وقد عرف هـ ا التحول بسياسة (الانفتاح)، ويعنى هـ ا الانفتـاح في تصوذ وذقة أكتوبر فتح الاقتصاد المصرى للاستثماذ المباشر الخـاص عربياً كان أم أجنبياً، ويجـرى التركـيز فـي توضيـح المـبزذ للانفتـاح علـى عنصرين أساسيين هما:

- التمويل.
- التكنولوجيا.

وقد كانت مصر قبل سياسة (الانفتـاح الاقتصـادى) تعـانى تدهـوذاً بالغاً في اقتصادها، نتج هـ ا التدهوذ من عدة سلبيات اقتصـادية أثـرت علـى الوضع الاقتصادى، ومنها على سبيل المثال:

- زيادة الانفاق العسكرى قبل حرب أكتوبر.
- العجز في ميزان المدفوعات وميزانية الدولة.
- زيادة القروض الخاذجية وبـ لك زادت أعباء الدين.
- التزام الدولة بتعهدات ومسـئوليات أكبر ممـا تسـتطيع تحقيقـه مثـل تشغيل الخريجين ـ دعم السلع التموينية ـ هزيمة يونيو ٦٧ (١).

---

(١) انظـر: محمـد أنـور السـادات، ورقـة أكتوبـر، جمهوريـة مصـر العربيـة، هيئـة الاستعلامات، أبريل ١٩٧٤، ص ٦٢.

ونظراً لاستقرار الآثار السلبية للمشكلة الاقتصادية، وزيادة العجز في ميزان المدفوعات والعجز في السيولة النقدية وحتى يمكن توفير مصادر بديلة لتمويل مشروعات التنمية وخلق علاقات متوازنة مع مختلف دول العالم، وإقامة جسور لتبادل المصالح بينها بما يساعد على توفير المواد اللازمة وجذب رؤوس الأموال والتكنولوجيا الغربية من خلال إقامة مشروعات مشتركة .. جاءت سياسة (الانفتاح) وقد جاءت مرحلة ما بعد أكتوبر سنة ١٩٧٣ بالاستراتيجية الآتية:

١- تطبيق سياسة للانفتاح الاقتصادى تستهدف جذب رؤوس الأموال العربية والأجنبية للاستثمار في مصر.

٢- خلق المناخ المناسب لتطبيق سياسة الانفتاح الاقتصادى وإجراء التعديلات السياسية والاقتصادية وإصدار ما يلزم من قرارات وقوانين وتيسيرات لنجاح هذه السياسة. ولتحقيق هذه الاستراتيجية تم إصدار القانون الخاص بشأن استثمار رأس المال العربى والأجنبى وإنشاء المناطق الحرة وما يتضمنه من توفير الضمانات اللازمة لرأس المال وحمايته من التأميم ومنح معظم الاعفاءات الضريبية والجمركية للمشروعات الجديدة ومستلزمات الانتاج المختلفة(١).

وقد تم إصدار القرارات والتيسيرات اللازمة لتسهيل عمليات الاستيراد للقطاع الخاص وتشجيع إنشاء البنوك التجارية والاستثمارية وتيسير حركة رأس المال، وتم تطبيق خطة قومية للتنمية تهدف إلى ربط

---

(١) د. محمد علوان، مقالة بعنوان: "مستقبل مصر الاقتصادى"، نشرات تابعة لجماعة خريجى المعهد القومى للإدارة العليا، المؤتمر العشرين (١٠ ـ ١٤ أكتوبر ١٩٨٤)، القاهرة، ص ٥ ـ ٦.

سياسة (الانفتاح) بالتخطيط القومى ورفع معدلات الانتاج والعمل على زيادة المدخرات وتحقيق الاستخدام الأمثل للموارد البشرية[1].

ولكن ... هذا (الانفتاح) لم يحسن من أوضاع مصر الاقتصادية وذلك لعدة ثغرات وجدت في هذا النظام، وذلك مثل:

- عدم تحقيق الاستقرار السياسى والاقتصادى الداخلى خلال الفترة الماضية بالدرجة الكافية لجذب رؤوس الأموال العربية والأجنبية بشكل مؤثر.
- زيادة الواردات الأجنبية على حساب الانتاج الوطنى.
- اتجهت المشروعات الجديدة إلى الاستثمار في الخدمات والسلع.
- تعرضت مشروعات القطاع العام إلى الخسائر والعجز فى السيولة النقدية والخلل في هياكلها التمويلية.
- هجرة العمالة المدربة والخبرات الفنية.
- ظهور التناقضات الاجتماعية، وصور من الانحراف والتسيب أخذت تتسع وتأخذ شكل الاتجاه العام[2].

وقد أدى (الانفتاح) وما صحبه من اتساع في الفوارق بين الدخول والفوضى الاقتصادية، وتفشى الأنشطة الطفيلية والفساد، وتقلص مقدرة الدولة على تنفيذ القوانين القائمة إلى خلق قيم ومفاهيم وسلوكيات لم تكن معروفة من قبل[3].

---

(١) المرجع السابق، ص ٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٩ ـ ١٠.
(٣) د. إبراهيم العيسوى، مقالة بعنوان: "التخطيط والمتابعة في الواقع الجديد للاقتصاد المصرى"، معهد التخطيط القومى (مجلة)، ديسمبر ١٩٨٤، ص ٢٦.

وقد أضيفت إلى الآليات المعتادة لتيسير الاقتصاد آلية جديدة هي "آليات الفساد" بأدواتها المعروفة من رشوة ومحسوبية ووساطة واستغلال نفوذ وغش وتواطؤ واختلاس وابتزاز .. وما إلى ذلك. وخطورة هذه الآليات هو أنه لا يمكن في ظلها حساب ردود الفعل لأى قرار اقتصادى تصدره السلطات الرسمية وبالتالى استحالة التنبؤ والتخطيط بقدر معقول من اليقين، إذ يصبح هناك معاملات استجابة "نقية" جنباً إلى جنب مع معاملات استجابة "مشوهة"، وكلاهما غير قابل للتقدير في ظل المناخ السائد.

وزاد الفساد في تلك الفترة ازدياداً ملحوظاً، فكنا نرى ظاهرة استغلال القطاع العام لصالح القطاع الخاص بالحصول مثلاً على سلع مدعمة وإعادة طرحها في السوق السوداء بأسعار مرتفعة، أو بالحصول على كميات أكبر من المسموح به وبالأسعار الرسمية ثم إعادة بيعها للأفراد بأسعار عالية، والاستيلاء على أراضى الدولة واغتصاب أملاكها دون وجه حق، وكافة أنواع التعامل في السوق السوداء، وأساليب التهريب المختلفة واستخدام السلع والأموال المخصصة للقطاع العام للكسب الخاص، كما زادت ظاهرة التهرب من الضرائب والجمارك والتقصير في أداء الواجبات العامة سعيا لمصلحة خاصة.

٢- المرحلة الاقتصادية في الفترة ما بين (١٩٨١ – ١٩٨٨):

رفع حسنى مبارك شعار (صنع في مصر) وبدأ في التركيز على انتاج مصر الصناعى في مختلف السلع والخدمات، وعمل على النهوض بمستوى الانتاج والصناعة في مصر للحد من الاستيراد، وقد نجح في ذلك نجاحاً كبيراً، وتميز عهده بالارتقاء بمستوى الصناعة في مصر بالمقارنة إلى ما كان يحدث في عهد السادات، حيث كنا نستورد معظم احتياجاتنا

تحت شعار ما كان يسميه "الانفتاح الاقتصادى"، وقد تميزت الحياة الاقتصادية في ظل حكم مبارك بالآتى:

- وقف الاستيراد الخارجى والحد منه بقدر المستطاع.
- إنشاء شركات توظيف الأموال المصرية.
- التشدد في تحصيل الضرائب والقوانين الخاصة بذلك.
- الرقابة الشديدة على المال العام وردع أية محاولة فساد فيه.
- التشدد في قوانين الجمارك وقوانين الضرائب.
- تشجيع الصناعة المصرية على اختلاف صورها[١].

اللغة العامية في ضوء هذا التغير الاقتصادى:

هناك علاقة وطيدة بين اللغة والنظام الاقتصادى في أى مجتمع من المجتمعات، وتعتبر هذه العلاقة مادة خصبة يمكن أن يؤدى تحليلها إلى نتائج ذات قيمة، فطريقة العد وما في اللغة العامية من أعداد ولغة المساومة ولغة المزايدة، ودراسة حيل البائعين والتجار والوسطاء ولغة الاعلان ونداءات الباعة الجائلين كل هذا يشكل مادة خصبة في مجال العلاقة بين اللغة والنظام الاقتصادى .. وهذه المادة يستقيها الباحث من أبسط صور النشاط الاقتصادى كالبيع والشراء إلى أشدها تعقيدا أو أوسعها نطاقا كأعمال الشركات والمصارف وأسواق الأدوات المالية والجمارك والعمليات التجارية الخاصة[٢].

(١) مريم أحمد مصطفى "واقع المجتمعات النامية وانعكاسه على التنظير للتنمية"، رسالة دكتوراه، قسم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٣، ص ١٣٤.

(٢) محمود السعران، "اللغة والمجتمع - رأى ومنهج"، دار المعارف، الاسكندرية، ١٩٦٣، ص ٩٩ - ١٠٢.

وسنلاحظ أن هذه المادة تتفاوت بتفاوت طبقات المتعاملين وبالوضع الثقافى وبالتغير الذى يحدث في البناء الاقتصادى للمجتمع، وهذا الفلك الذى يدور فيه نشاط اللغة والذى يحتضن حقول نشاط الانسان بكامله، له دور كبير في أن يجعل معجم اللغة في حالة من التغيير المستمر، فنتيجة للنمو المطرد في الثقافة والفكر والاقتصاد، كلها تفرض على اللغة أن تغنى قاموسها بمفردات جديدة وبتعابير جديدة يقتضيها ذلك النمو.

واللغة التى تعكس مباشرة تلك الحاجات لابد من أن تجدد نفسها بما يتلائم مع تلك التغيرات الجديدة، وما حدث في مجتمعنا المصرى يتوافق تماماً مع تلك المقولة الأخيرة، ولكن التغير الذى حدث وللأسف لم يسم بلغتنا ولم يثرها، بل أنحط بها إلى القاع فبلغت أقصى درجات التدهور والانحطاط.

والعلاقة بين اللغة والنظام الاقتصادى في أى مجتمع تتأثر بجوانب ثلاثة رئيسية تلعب دوراً في بناء اللغة وتكوينها في أى مجتمع، وهى:

١- الجماعات والطبقات المهنية التى يتأثر ألسنة العامة بالألفاظ والمصطلحات الخاصة بها.

٢- جماعات خارجة عن القانون تصبح ألفاظها مصطلحات عامة.

٣- أوضاع اقتصادية جديدة تخلق مرادفات وألفاظ مستحدثة في اللغة الدارجة.

١- الجماعات المهنية التى تتأثر ألسنة العامة بالألفاظ الخاصة بها:

هناك دائماً ما يميز الجماعات المهنية عن غيرها، حيث تنشأ بينهم مجموعة من المصطلحات المهنية والتعبيرات والاشارات التى تؤلف فيما

بينها لغة خاصة لكل جماعة من هذه الجماعات، وتنتشر هذه المصطلحات عادة في المناطق التى يسود فيها نظام الطوائف ونظام تقسيم العمل، حيث تختص كل طبقة بحرفة أو وظيفة خاصة تكون وقفا على أفرادها، وهذه المصطلحات تتسم بالمحافظة والتوارث، إلا أن الناس في بعض مصطلحات تلك المهن يجدون فيها أهمية فيستخدمونها في لغتهم الدارجة، فتصبح شائعة بينهم ومألوفة لهم.

وفى بعض الأحيان نجد اللغة المهنية جزءاً فعالاً من النشاط الفعلى الذى يتم أو يقوم به صاحب المهنة، فحديث الفلاح إلى بهيمته وآلته، وغناؤه عند الحرث والرى والحصد جزء من عمله، وكلام الحداد عند الطرق يسليه في عمله، وغناء البنائين ورد رئيسهم عليه يجعل عملهم أخف وطأة ومشقة كل ذلك وأمثاله جزء من العمل ومعين على إتمامه(1).

مثال لذلك:

لغة بائعى الخضار والفاكهة في الوكالة (منطقة النزهة) في الاسكندرية ـ على سبيل المثال ـ نجد عندهم لغة معينة في المناداة أثناء حركة البيع والشراء، ويقومون باختراع العديد من الألفاظ التى يطلقونها على السلعة بطريقة غنائية أو شبه غنائية تستقطب إذن المشترى على الفور، وهى بذلك تشكل جزءاً من إتمام عملهم، فهم يقولون مثلاً أثناء المناداة في بيع ثمرة (المانجو):

قش قش قش	قعر المانجة زى الوش
شد حيلكم يا شباب	هات يا حاج الأجرة هات
ـ الأجرة بعد المزاد	اللى جاى ولا اللى فات

---

(1) محمد حافظ دياب، نجوم بلا مكياج، دراسة اثنولوجية، في لغة الفلاحين في سنابل، العدد (9)، القاهرة، مطابع دار الهلال، مارس 1973، ص 8 ـ 9.

مثال آخر:

في مهنة الصيد:

يستخدم الصيادون في منطقة (السيالة) بمدينة الإسكندرية مصطلحات خاصة بهم فقط لا يعرفها الناس العاديون، وتتطور بتطور المهنة كدخول نظام (الميكنة) فيها على سبيل المثال، وذلك حتى يمكن لتلك اللغة المستخدمة بينهم أن تفى بمتطلبات تلك المهنة، فتغيرت بعض المصطلحات الخاصة بأدوات الصيد، فلم يعودوا يستخدمون كلمة: (شانشوله) وتعنى المركب الصغير الذى يسرح يوميا وحلت محلها كلمة (بلانس) وذلك للميكنة التى أدخلت على القوارب. ولكنهم على الجانب الآخر نجدهم ما زالوا محتفظين بلغة خاصة بهم وبمهنتهم، وذلك مثل أسماء الأسماك، فهم يستخدمون أسماء غير تلك التى يعرفها بقية الناس، فعلى سبيل المثال: نجدهم يطلقون على سمك (المياس) اسم (كدام)، وسمك (الوقار) اسم (اسماغنين) وسمك (اللوت) اسم (سجلابى) وهى كلها اسماء لا يعرفها الناس، ومن ثم فهى لغة خاصة بهم.

وفى الفترة الأخيرة شاعت مصطلحات بعض لغات المهن المختلفة على ألسنة العامة، خاصة تلك المهن التى ترتبط بالعمليات التجارية.

مثال لذلك:

لغة السماسرة ـ لغة مستخلص الجمارك.

ففى لغة السماسرة مصطلحات وألفاظ عديدة يستخدمها من يعملون في تلك المهنة فيما بينهم، ومنها ما شاع بين الناس وأصبح يدخل في استعمالاتهم اليومية وأحاديثهم العادية المألوفة، وذلك مثل كلمات: -

هرمونات ـ عرق ـ أهرش ـ هبوش [1].

هذه المصطلحات أصبحت شائعة في الآونة الأخيرة على ألسنة العامة خاصة بين الشباب الذى يعمل بالتجارة، وأصبحت جزء لا يتجزأ من العامية الدارجة.

ومهنة مستخلص الجمارك مهنة يتعامل أعضاؤها مع كافة مستويات الناس، وهم يستخدمون فيما بينهم (لغة خاصة) ويطلقون على الأشياء أسماء تصبح فيما بعد هى الاسم الشائع والمألوف لدى عامة الشعب، خاصة فيما يتعلق بالنواحى المالية، فعلى سبيل المثال نجد مصطلحات:

الباكو ـ الاستك ـ الشلن ـ البريزة ـ الزهوب

كلها كلمات من واقع تسمياتهم، كما نجد مصطلحات مثل:

العملية مفقوسة ـ خليك في السليم ـ غلته حاضرة .. وقطفها سريع ـ تتهرش ... كلها كلمات تستخدم بينهم باستمرار أثناء العمل، فأخذها العامة منهم وشاعت في العامية العادية، كما يعتبر مستخلصى الجمارك هم السبب الرئيسى في إطلاق أسماء غريبة على السيارات خاصة ماركة المرسيدس فقد أستطعت الحصول على مسميات تلك السيارة باختلاف أنواعها من مستخلص الجمارك في منطقة ميناء الإسكندرية والتى أصبحت تلك الأسماء الآن هى الطريقة الأساسية بين عامة الناس في تحديدهم لموديل السيارة، وقد أطلق على تلك السيارة أسماء عديدة نسمعها الآن،

---

(١) هرمونات: وتعنى السمسرة عن عملية ما.
عرق: وتعنى إعطاء البقشيش أو السمسرة.
أهرش: وتعنى إخراج المال ودفعه لأداء خدمة ما.
هبوش: وتعنى الزبون الذى يسرق حقهم وعرقهم.

وذلك ابتداء بـ: الخنزيرة ـ التمساحة ـ الزلموكة ـ المحجبة ـ البومة ـ عين القط .. وأخيرا ... المدينة العائمة(١).

كل هذه المسميات يتداولها الناس في حياتهم العادية، وأصبحت بمثابة الأسماء الأساسية للسيارة خاصة بين تجار السيارات.

كل ذلك يعنى أنه بالامكان تأثر الناس ببعض لغات المهن خاصة حين يشعرون أنها تحوى شيئا جديدا يثير الانتباه ويوفى في الوقت نفسه بحاجتهم التعبيرية، والمجتمع يحوى العديد من المهن التى أصبحت مصطلحاتها بمثابة مصطلحات عامة، ولكنى آثرت هنا أن أعرض القليل وذلك لأستطيع دون إطالة أن أعرض لنموذج من المستحدثات الشهيرة والغريبة في العامية الدارجة الآن.

٢ـ جماعات خارجة عن القانون تصبح مصطلحاتها ألفاظا عامة:

تتضمن (اللغة المهنية) أيضا لغة مجموعات الخارجين عن القانون، وقد تصبح بعض مصطلحاتهم دارجة بين معظم الناس بعد ذلك، واللغة الخاصة بهذه المجموعات تشكل بينهم عاملا من عوامل التضامن والتماسك لأنها قد تجعلهم في عزلة عن غيرهم إلى حد ما مما يعطيهم الاحساس بتميزهم كجماعة لها طابع خاص.

ويعد الاستاذ أديك بارتروج Partrouge أستاذ اللغويات الانجليزى أول الباحثين الذين درسوا لغة اللصوص، وقد أخرج في ذلك معجما للغة المجرمين أحتوى على جميع المصطلحات التى يستعملها اللصوص وقطاع الطرق الانجليز، واستعان في إخراج مؤلفه هذا بالبحث في ملفات القضايا

(١) انظر بالتفصيل لمعنى هذه المصطلحات في الملاحق.

الجنائية منذ عام ١٧٢٩ حتى أواخر النصف الأول من القرن الحالى، كما استعان بكثير من ملفات السجون وتردد على أمكنة اجتماعات المجرمين(١).

وفى معظم اللغات نجد دائما لغة خاصة باللصوص، فمثلا في اللغة الفرنسية يطلق على تلك اللغة مصطلح (argon) وهى تطلق على اللغة التى يستخدمها اللصوص والمتشردين وقد نشأت في فرنسا طائفة إجرامية كان لها لغة خاصة بها حددها ميثاق وتبعها طواعية الأعضاء، وسميت هذه اللغة - أولا - بكلمة (Argot) وأصلها كلمة (Jargon) واتخذت مسميات عديدة منها كلمة (Cant) والتى تعنى (النفاق) (٢).

ودارسوا اللغة العامية يهتمون في كثير من الأوقات باللغة الخاصة بالمجرمين والخارجين عن القانون، وإن كان في هذه الأيام لم يعد كبار المجرمين يشكلون فئة خاصة وإنما يتكلم أفرادها لغة واحدة، هى اللغة الدارجة لدى جميع الطبقات الاجتماعية، وما يسمى بعالم الجريمة يشكله الآن أفراد ينتمون إلى كل الطبقات والبيئات، وعندما يتحد المجرمون فهم يتحدون في مجموعات صغيرة مستقلة طبقا لحاجة وقتية، وليس لهم زعيم يملى إرادته عليهم، ولا يمكن تمييزهم حيث أنهم يختلطون بالمجتمع كأفراد عاديين.

ومن "اللغات المهنية" التى تتسم بمصطلحات ومرادفات خاصة تعكس نوع العمل بها، لغة "جماعات النشالين" - فهى لغة تؤدى مجموعة

---

(١) انظر:
Partrouge, E. The Secret Language Between English Thieves, London, George Allen and Unwin, Ltd., 1953.
د. محمود السعران، المرجع السابق ذكره، ص ١٠٧، (لغة المجرمين).

(2) Vendreys, J., Language, A Linguistics Introduction to History, First Ed., 1925, New York, T. by Paul Radin PP. 261 – 262.

من الوظائف الهامة لأعضائها، كما أنها تيسر الاتصال بينهم، وتخلف بينهم نوعا من التضامن والتماسك لأنها تعكس كثيرا من اتجاهاتهم وتقويماتهم وحيلهم وخططهم في العمل وعلاقاتهم كجماعة مع غيرهم.

ويمكن هنا أن نذكر عددا من المصطلحات التى يستخدمها النشالون في مصر، وهى مصطلحات خاصة بالأساليب العامة للنشل وبمراحل عملية النشل وبتقسيم العمل والتدرج الوظيفى وأيضا بتصنيف وتسمية المواد المسروقة إلى غير ذلك على النحو التالى(١):

مجال استخدام المصطلح	المصطلح	معنى المصطلح
١ـ مصطلحات خاصة بأساليب النشل	ـ نشل على الراكب	ـ نشل داخل المواصلات العامة
	ـ نشل على الساجد	ـ نشل بينما الضحية في غفلة
	ـ نشل بالمضر	ـ نشل على السليم
٢ـ مصطلحات خاصة بمراحل عملية النشل	ـ التأمين	ـ تحسس جيوب الضحية
	ـ الخلع	ـ تقسيم النقود المسروقة
	ـ نعمل باى	ـ اعطاء كل فرد نصيبه من المسروقات
٣ـ مصطلحات خاصة بتقسيم العمل	ـ شرشرتى	ـ نشال يقوم بجذب المواد المسروقة.
	ـ سكاك	ـ نشال يسد الطريق على الضحية.
	ـ دكتور	ـ أعلى مراحل المهارة في النشل
٤ـ مصطلحات خاصة بالمواد المسروقة	ـ نفاق	ـ منديل
	ـ حمزة	ـ كيس
	ـ بوستة	ـ نقود

---

(١) انظر بالتفصيل في ذلك:
محمد حافظ دياب، مقدمة في علم اجتماع اللغة، مرجع سبق ذكره، ص ص ٦١٢ ـ ٦١٧.

	- زهوب	جنيه
	- عنترة	-عشرة قروش
	- حلوم	-ريال
	- ترمسه	-ساعة
	-شمالة	خمسة قروش
٥- مصطلحات خاصة بالاشخاص	-العم	-رجل
	-كوديانه	-السيدة العجوز
	-دنيارة	-سيدة متوسطة العمر
٦- مصطلحات خاصة بعمليات التحذير	- بلال	عسكرى
	- أفلح – سبعه اطرى	هناك مخبرا هرب
	-نشته	انتبه
٧- مصطلحات تفاهم أثناء النشل	-أعمل ناحو	-أحذر لأنه منتبه
	-العم هرش	-الضحية لاحظ
	-أبى شغيل عليه	هيا بنا ننشله [١].

وهذه المصطلحات الخاصة بتلك المهنة نلاحظ أنها تتغير باستمرار حتى لا تفقد فعاليتها ووظيفتها كلغة خاصة وحتى لا يفهمها بقية الناس، ويؤكد ذلك أن أكثر الكلمات المتغيرة هى تلك الخاصة بالمخبرين (أعداء النشالين)، كما تتغير كذلك إشارات التحذير، وتتم عملية اكتساب هذه اللغة خلال الاتصال الوثيق وبمراحل التدريب التى يمر بها عضو عصابة النشل.

ونلاحظ أن هناك بعض المصطلحات الخاصة بهؤلاء النشالين نسمعها دارجة على ألسنة العامة، وأصبحت تمثل جزءا من العامية الحديثة في وقتنا هذا، وذلك مثل:

---

(١) لمزيد من التفاصيل في هذه اللغة، انظر: محمد حافظ دياب، مقدمة في علم اجتماع اللغة، مرجع سبق ذكره، ص ٣٠٠ – ٣٠٧.

اخلع ـ زهوب ـ ملقاط ـ سكاك ـ قلبه ـ أهرش [١].

ولعلنا نلاحظ الآن انتشار ظاهرة "ادمان المخدرات" والتجارة فيها، كما انتشرت في الفترة الأخيرة عمليات التهريب بصورة فائقة، وتعددت أنواع المخدرات داخل المجتمع، وما يهمني في هذا المقام هو أن (تجار المخدرات ومدمنيها) نشأت فيما بينهم لغة خاصة مليئة بالمصطلحات الغريبة التى تصف حياتهم وتجاراتهم، وانتشرت تلك الألفاظ انتشارا كبيرا بانتشار ظاهرة الادمان، كما أن وسائل الإعلام خاصة أفلام الفيديو والتليفزيون والتى تعرض وتعالج حياة تلك الفئة تستخدم كثيرا من تلك المصطلحات الخاصة بهم للتعبير الواقعى عنهم، ولخطورة وقوة تأثير أفلام "الفيديو والتليفزيون" على الشعب فقد انتشرت وتنتشر عن طريقة تلك الألفاظ، ويتداولها الناس بصورة سريعة حتى وإن كانت من باب السخرية والمرح.

كما أن اختلاط "تجار المخدرات" ومدمنيها بجميع الطبقات والفئات قد ساعد على سرعة انتشار تلك الألفاظ، فأصبحت جزءا من عاميتنا، ومن الألفاظ والمصطلحات الخاصة بتلك الفئة والتى أصبحت شائعة بين الناس:

آخر معمعة ـ مزهزه ـ مروق ـ اطلع من دماغى ـ نخاش

كما أن هناك كلمات وألفاظ تكون جملا كاملة يتداولها الناس فيما بينهم وخاصة الشباب، وكلها مستوحاه أصلا من فئة تجار المخدرات، فعلى سبيل المثال اعتدنا الآن أن نسمع:

---

(١) انظر لمعانى هذه المصطلحات في الجزء الخاص بهم في الملاحق.

بلاش اللون ده معانا - أمرك نافذ يا كبير - بيدلع البلية - حنشتغل في الأزرق .. الخ.

وهناك الكثير من الألفاظ والكلمات الأخرى المنتشرة، وما يهمنى هنا بذكرى للأمثلة السابقة أن أعطى نموذجا لما حققته تلك الجماعات (جماعات الخارجين عن القانون) من تأثير على لهجة العامة، وخلقهم لمستحدثات جديدة في العامية لم نعهدها من ذى قبل.

٣- أوضاع اقتصادية جديدة لم تكن موجودة قبل ذلك:

حدث في الفترة الأخيرة والتى تلت حرب أكتوبر تغير اقتصادى جذرى نجم عنه تغير في الطبقات والدخول وتوزيع الثروات، ولم نعد نعرف من (الغنى) ومن (الفقير)، فلم يعد هناك مقياس يحدد تلك المقولة.

والوضع الذى نعانى منه الآن إنما أرجعه أساسا إلى "سياسة الانفتاح" في الفترة السابقة، فقد أصبح الكسب السريع وغير المشروع سمة من سمات هذا العصر، وهذا الوضع الفاسد في البناء الاقتصادى أمتد أثره إلى اللغة العامية الدارجة، وأصبح هذا التأثير بمثابة ضرورة من ضرورات هذا الوضع الجديد، فلم يعد الناس يتكلمون إلا بتلك (اللغة الجديدة) التى لم يعد يجهلها أحد.

ومن الأوضاع الجديدة التى ظهرت بفعل الخلل الاقتصادى الذى حدث:

- جماعات الكسب السريع عن طريق مختلف أنواع التجارة.
- السوق السوداء وتجارة العملة.
- المقاولات وأعمال البناء والتشييد.

- تجارة السيارات بكافة أنواعها.

هذه الجماعات والفئات الجديدة خلقت بدورها لغة جديدة أو بمعنى أدق مصطلحات وألفاظ جديدة تفى باحتياجات هذه النوعية الجديدة من الأعمال، هذه الألفاظ شاعت وانتشرت بين الناس أولا: لسهولة تداولها، ثانيا: لكونها جديدة وغريبة فتثير على الفور الانتباه والدهشة، ويعتبر من يستخدمها نفسه أنه مطلع على الجديد ومساير للغة العصر مما لا يجعله مصدر سخرية من المحيطين به، لذلك يحرص على استخدامها في حياته العادية.

وربما أكثر سمات تلك (اللغة الجديدة) تظهر في المسميات الخاصة بالنواحي المالية، فعلى سبيل المثال: أصبحنا نألف قول كلمة "أرنب" والذى يعنى في اللغة الجديدة رقم (المليون)، وقد أطلق عليه هذا المصطلح وذلك كناية على أن المليون الأول يأتى بالثانى والثالث ولذلك ارتبط اسمه بالأرنب الحيوان كثير الانجاب. كما لم يعد الناس يطلقون على (الألف جنيه) مصطلح (ألف) وإنما هناك عدة مستحدثات ترادف تلك الكلمة، فنجد مثلا: استك - باكو - ... إلى غير ذلك.

ثانيا: العوامل الاجتماعية والثقافية وأثرها على العامية

يحتوى البناء الاجتماعى لمصر في السبعينات على نماذج متعددة من الطبقات الاجتماعية وذلك كالآتى:

١ - الطبقة الرأسمالية الكبيرة: وهى الطبقة التى تشكلت من أصول مختلفة، ومن شرائح اجتماعية متباينة تتمثل في:

- بقايا الطبقات القديمة من الاقطاعيين وكبار الرأسماليين الذين حافظوا على بعض ثرواتهم القديمة سواء داخل البلاد أو خارجها.

- شرائح برجوازية يمثلها الاداريون والفنيون، أو من يطلق عليهم الفئات البيروقراطية من قيادات القطاع العام التى استطاعت بفضل نشاطها في مواقع السلطة أن تحصل على دخول عالية ودخول غير رسمية.

- الفئات التجارية والتجارية الصناعية، وهى تلك الفئات التى تشكل القمم العليا من الرأسمالية الكبيرة وهى تضم كل من التجار والممولين والمقاولين والوكلاء في مجالات التصدير والاستيراد وفى تجارة (الجملة) (ونصف الجملة)، وقد استفادت هذه الفئات استفادة هائلة من سياسة الانفتاح خاصة حين سمح لها بالاستيراد والتصدير، ولكنها في نفس الوقت امتلأت بأعمال الوساطة والسمسرة والتهريب والسوق السوداء، لذلك كانت تتصف دائماً بالكسب السريع ومن أقصر الطرق(١).

٢- الطبقة المتوسطة: تضم هذه الطبقة أصحاب رؤوس الأموال الصغيرة والموظفين والحرفيين والتجار، وقد عانت تلك الطبقة من سياسة "الانفتاح" وتطبيقها، فقد أدت هذه الظاهرة إلى تعميق حدة التمايز الطبقى، حيث تحسن الوضع النسبى لبعض شرائح الطبقة الوسطى "كالحرفيين والفنيين" على حين تدهور الوضع النسبى لشرائح أخرى كالعمال والموظفين.

٣- الطبقة الدنيا: وتعد هذه الطبقة هى طبقة الأغلبية في البناء الاجتماعى المصرى، وهى الطبقة التى تعانى من أشد ألوان الفقر وأسوأ أنواع القهر، وتضم هذه الطبقة كلا من العمال وأشباه العمال والبائعين الجائلين فضلا عن أصحاب المعاشات والاعانات الاجتماعية، ولم تساعد

---

(١) سهام أحمد نعيم، المناهج الدراسة كأسلوب للضبط الاجتماعى (رسالة ماجستير)، جامعة عين شمس، كلية الآداب، قسم الاجتماع، ص ٣٧٧ ـ ٣٧٩.

السياسة الماضية هذه الطبقات في شئ بل ازداد تدهور حالها مع زيادة ارتفاع الأسعار وبقاء حال الأجور كما هو، وساءت أحوال تلك الطبقة حتى غاب حقهم في الحياة تماما[1].

٤ـ الطبقة الدخيلة: وتتكون من جماعات الافاقين والمتآمرين، وهم شرائح جديدة وجدت في الطبقة الرأسمالية الكبيرة نتيجة للسياسة الانفتاحية الجديدة، تلك الشرائح تتكون من مجموعة أرباب السوابق والخارجين على القانون الذين استطاعوا بفضل الجريمة أن يشقوا طريقهم إلى دنيا الأعمال، وقد كان لهذه الفئة في المجتمع المصرى أثر بالغ، بل لعل وجودها بالذات لهو من أسوأ الآثار الاجتماعية لسياسة (الانفتاح الاقتصادى)، بل لعلها السبب وراء اشتداد التمايز الاجتماعى للتركيب الطبقى في المجتمع.

وقد ترك "الانفتاح الاقتصادى" الذى عاشت فيه البلاد آثارا اجتماعية سيئة مازلنا نعيشها إلى الآن، ولا يوجد سبيل لاصلاحها، فقد انقلبت الموازين رأسا على عقب، وتباينت الطبقات تباينا واسعا، ولم يعد للمجتمع نمط محدد نستطيع من خلاله أن نقيس نظمه ونحدد صوره المختلفة. فقد ظهرت ما نطلق عليه طبقة "المليونيرية" تلك الطبقة التى أثرت ثراء فاحشا من جراء القيام بأعمال غير منتجة ورغم أن هذه الطبقة من أصول متباينة، فأنها تتسم بطابع واحد في أعمالها وهو الطابع (الطفيلى) بالرغم من تباينها.

ولقد زاد عدد المليونيرات في مصر، وتضخمت ثرواتهم ولم يعد رقم (المليون) رقما نادرا في عالم الثراء في مصر، وكان ذلك على حساب

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٨٣.

جماهير الشعب العريضة وعلى حساب الدولة التى خسرت أموالا طائلة من جراء الاعفاءات الجمركية، ذهب معظمها إلى جيوب الوسطاء والتجار[1].

وقد زادت في تلك الفترة الأعمال المشبوهة، وذلك مثل الاتجار في المخدرات، واعتمدت الغالبية من أصحاب تلك الملايين في بائد الأمر على تلك التجارة، وأصبحت تلك التجارة هى المفتاح الرئيسى لجلب أول "مليون" ثم تتضخم الثروات بعد ذلك، وقد اعتاد أفراد الشعب سماع رقم "المليون" بعد أن أصبح يمتلكه كثير من المواطنين، بل هناك من ينظر إلى صاحب المليون الواحد على أنه ليس من طبقة الأثرياء.

ونتيجة لهذا التباين الشديد في الطبقات، كثرت الجرائم وزاد الانحلال والتفكك، وانهارت القيم والمبادئ، فأصبح الشباب الذى يتطلع إلى المستقبل يعانى من تدهور مادياته، في حين على الجانب الآخر نرى أفرادا يكادون أن يكونوا "أميين" ويمتلكون الملايين. ولم يعد ذلك الشباب يحترم أجهزة دولته، لأنها تقف مكتوفة الأيدى أمام مشاكله، في حين تتيح الفرصة لمن لا يستحقون الفرصة للثراء الفاحش فانهارت قيمة وثقته بنفسه. ولا شك أن كل تلك الآثار والسلبيات التى تعانى منها، تلعب دورا كبيرا في تحديد أساليب وسلوكيات المجتمع الذى نعيش فيه، كما أنها بلا شك تهدد بنيان وكيان ذلك المجتمع.

ونتيجة لهذه الأوضاع الجديدة والتغيرات التى حدثت في البناء الاجتماعى لمصر، ظهرت عدة أبعاد لها تأثير بالغ في العامية وما تحويه من مفردات.

---

(١) مريم أحمد مصطفى، واقع المجتمعات النامية وانعكاسه على التنظير للتنمية، رسالة دكتوراه، قسم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٣، ص ٢٠٢.

يصعب وضع مقاييس دقيقة للتمييز بين الريف والحضر في المجتمع المصرى لأن الحدود بينهما غير مميزة كما هو الحال في كثير من دول العالم، ولم توضع إلى الآن في أى تعداد شروط واضحة لتميز أحدهما عن الآخر سوى التقسيم الإدارى الذى يتمثل في أنماط التوطن، أى توطن السكان في عواصم المحافظات والمراكز والقرى والكفور، حيث يمكن أن تعتبر عواصم المحافظات والمراكز مراكز حضرية بينما تعتبر القرى والكفور والعزب مناطق ريفية[١]. ولا يستقيم الأخذ بالتقسيم العددى لاقرار هذا التمييز مع أوضاع الحياة الاجتماعية في مصر لأنها بلد زراعى ومعظم سكانه ريفيون وأنماطها الاجتماعية منحدرة على حضارة المحراث، وكثيرا ما نجد فيها مناطق يبلغ عدد سكانها ثلاثين الفا، ولا تبدو عليها سمات الحياة المدنية وتعتبر ريفا بالمعنى الدقيق[٢].

ولا شك أن هذه الظاهرة ملحوظة بوضوح في الوجه القبلى لأن كل حوض قديم من حياض الرى أصبح فيما بعد إقليما زراعيا تتقاسمه عدة قرى كبيرة، ولذلك لا يمكننا الاعتماد على التوزيع السكانى وحده في التمييز بين الريف والحضر. وقد تداخلت السمات الريفية الحضرية في كثير من بلدان العالم العربى. مثال لذلك:

(جزيرة فيلكا) و (قرية الجهراء) قبل تحويلهما إلى محافظة جديدة في دولة الكويت تتمتع كل منهما بكثير من الخدمات والمرافق الحضرية في مجال الاسكان والطرق والخدمات الاجتماعية والإدارية وضآلة حجم

(١) د. محمد عبده محجوب، الانثربولوجيا ومشكلات التحضر، دراسة حقلية في منطقة الخليج العربى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، ص ١٥.
(٢) المرجع السابق، ص ١٥.

الاشتغال بالزراعة، كما نجد أيضا الكثير من القرى المصرية المجاورة للمدن التى ازدهر فيها الكثير من الصناعات الآلية الصغيرة والتى أدخلت إليها خدمات الكهرباء والماء لم تعد الزراعة مهنة سكانها(١).

والهجرة الداخلية عبارة عن التحركات السكانية التى تحدث داخل حدود الدولة، وقد ارتبطت الهجرة كعملية من عمليات الحراك السكانى بتاريخ الانسان منذ عصورة الأولى البعيدة، فقد كان وجود الإنسان في القارات الجديدة والمناطق المختلفة من العالم القديم عن طريق الهجرة(٢) ولعل في هجرة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام منذ حوالى أربعة عشر قرنا مثالا للهجرة أو الانتقال لتكوين مجتمع جديد في إقليم جديد تسوده نظم ومعايير مختلفة كل الاختلاف عن النظم والمعايير التى تنظم الحياة في المجتمع الأصلى(٣).

وأمثلة الهجرة في المجتمعات العربية أمثلة متعددة ، منها مثلا هجرة أبناء الواحات الخارجة في مصر إلى وادى النيل، وهجرة الريفيين الذين تضيق بهم المساحات المحدودة من الأرض التى لا تستطيع أن تستوعب الزيادة السكانية الهائلة ـ مما يدفع بهم إلى محاولة الحصول على أعمال مستقرة في المدينة(٤).

وتلعب الهجرة دورا كبيرا في عمليات التغير التى تحدث في المجتمع الذى تمت فيه عمليه الهجرة، حيث أن وفود أنماط بشرية يعنى تضارب وتغيرات في النواحى السكانية والاقتصادية والثقافية والطبقية.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦.
(٢) محمد عبده محجوب، البترول والسكان والتغير الاجتماعى "دراسة انثربولوجية" دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥، ص ٤٥.
(٣) المرجع السابق، ص ٤٨.
(٤) المرجع السابق، ص ٥٠.

ومن الدراسات التى تناولت موضوع "التغير" نتيجة للهجرة تلك الدراسة التى قام بها الدكتور "السيد حامد" بعنوان: "النوبة الجديدة" - دراسة في الانثربولوجيا الاجتماعية، حيث تناولت الدراسة "المجتمع النوبى" بغرض التعرف بالتفصيل على دور التغيير الاقتصادى فيما يعتريه وبنائه الاجتماعى التقليدى من تغيرات، ذلك التغيير الاقتصادى الذى خضع له المجتمع النوبى نتيجة لعمليات التهجير التى أدت إلى تغير ظروفه البيئية والجغرافية وتغير علاقته بالمجتمع المصرى الكبير الذى هو أحد قطاعاته، فقد أتاحت خضوعه لعملية إدماج وتكامل اقتصاديا وسياسيا مع المجتمع المصرى بحيث أصبح في ظروف جديدة ومغايرة تماما لتلك الظروف التى كان عليها في المجتمع الأصلى[1] ومن أبرز سمات التغير التى حدثت "المجتمع النوبى" نتيجة للهجرة تلك التى ظهرت في:

النواحى الاجتماعية حيث تم اتساع مجال العلاقات الاجتماعية بين الأفراد داخل وخارج الحدود الاقليمية للقية ومن ثم ضعفت العلاقات القرابية وعلى وجه الخصوص العلاقات العاصبة، كما تفككت العائلة، وظهرت الأسرة المستقلة تماما اقتصاديا واجتماعيا، واختفى نظام الملكية التقليدى.

- النواحى الاقتصادية والسياسية حيث اختفت التبعية والتحالف بين القبائل كما أصبح أفراد القبائل يشغلون المراكز السياسية الجديدة وغيرها من الوظائف الأخرى، كما اتجه النوبيون منذ بداية الإقامة الجديدة إلى تغيير سلوكهم فيما يتعلق بكل ماله صلة بزيادة الاستهلاك

---

(١) د. السيد أحمد حامد، النوبة الجديدة: دراسة في الانثربولوجيا الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٣٤١.

والحد من تقديم السلع الاستهلاكية دون مقابل، أدى هذا إلى الضعف الشديد لعلاقات الجوار وعلاقات الأقارب .. الخ.(١)

- كما قامت (د. عليه حسين) بدراسة فى التنمية والتغير الاجتماعى فى أحد المجتمعات المستحدثة وهو مجتمع " الواحات الخارجة"، تعرضت فيه الباحثة لأهم التغيرات التى تعرضت لها النظم الاجتماعية التقليدية فى مجتمع البحث نتيجة لمؤثرات التنمية الاقتصادية الاجتماعية، فالتنمية الاقتصادية على حد قول الباحثة: لا تؤدى إلى التغير الاقتصادى إلا إذا كانت النظم الجديدة مرتبطة تمامًا بالنظم التقليدية على أن يحدث ذلك تغييرًا فى العلاقات، ويصاحب ذلك تغيرات أخرى فى النظم القرابية والسياسية، وهو ما حدث تمامًا فى مجتمع "الواحة".(٢)

ولعل من أفضل الدراسات الانثروبولوجية التى قامت بدراسة التغير والهجرة، تلك الدراسة التى قام بها الأستاذ الدكتور محمد عبده محجوب - أستاذ الانثروبولوجيا بجامعة الاسكندرية بعنوان: " البترول والسكان والتغير الاجتماعى" عالم فيها عمليات الهجرة وما أحدثته من تغير فى المجتمع الكويتى الحديث، وكان من أهم النقاط التى أسفرت عنها دراسته هى:

- ظهور النفط فى الكويت وما استتبعه من الحاجة إلى أيدى عاملة على درجات متفاوتة من الخبرة والمهارة فى عمليات إنتاجه وما قام حوله من صناعات أدت إلى تعرض المجتمع الكويت التقليدى لعملية هجرة

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٤٢-٣٤٥.
(٢) د. عليه حسن حسين، الواحات الخارجة (دراسة فى المجتمع المصرى)، الهيئة المصرية العامة للكتاب (فرع الاسكندرية)، ١٩٧٥، ص ٣٩٧.

سكانية داخلية واسعة تركت آثارًا واضحة فى سوق العمل، فتغيرت الأعمال التقليدية والمهن التى كان يقوم بها الكويتيون من قبل، كما حدثت تغيرات فى بعض المناشط الاقتصادية وذلك مثل السفر الذى أصبح يعتمد على الأساليب الفنية المتقدمة، كما اكتسبت الخدمة الحكومية وبخاصة فى الأعمال الكتابية والشرطة والحراسة - تلك الأيدى العاملة الشابه التى تركت العمل بالمناشط التقليدية. وبفضل التغير الذى أحدثه ظهور "النفط" فى هذا المجتمع، ظهرت المشروعات الحديثة والتى أصبحت تشترط لمن يعمل بها الدرجات العلمية والكفاءات العالية.

- تغيرت الوظيفة الاجتماعية لنظام التكافل التقليدى - فيما يعرف (بالكفالة) والذى كان يتمثل فى تحقيق الحماية الجماعية ضد الأزمات الاقتصادية التى يتعرض لها أعضاء المجتمع، فأصبح بعد التغير يهدف إلى حماية مصالح المواطنين الكويتيين فى الدرجة الأولى.
- تغيرت النظرة إلى المصادر الأساسية للثروة فى المجتمع، وأصبح الحاكم هو الذى له حق الحصول على عائدات إنتاج النفط، وقد تنازل الحاكم عن هذا الحق للارتفاع بالمستوى الاقتصادى والاجتماعى للشعب فى صورة مشروعات إنتاجية.
- اسفرت الهجرة الداخلية والخارجية فى المجتمع الكويتى الحديث عن كبر حجم المجتمع وتضارب الثقافات التى تنتمى إليها جماعات المهاجرين، وكان التنافس فى سوق العمل مجالاً للتصادم، ومن ثم تغيرت أجهزة الحكم والإدارة التقليدية لتتلاءم مع الأوضاع الاقتصادية والسكانية الحديثة.

- كما أسفرت الهجرة عن زيادة الاتصال بالعالم الخارجي وساعد ذلك على التباس النظم الحديثة في معظم أوجه الحياة، وتغيرت أيضا العلاقات القرابية وتفككت العلاقات الشخصية، كثرت عمليات التسلل والاضرابات والمنازعات الطائفية.

- كما أدت التغيرات الديموجرافية التى حدثت نتيجة للهجرة إلى إتخاذ نوع من التمايز فى التوزيع السكانى، فكانت هناك المناطق المغلقة التى يسكنها الكويتيون، ومناطق أخرى تضم فئات المهاجرين فى جماعات تربط بينها عناصر التماسك والتعاون. (١)

- وقد قمت بعرض هاتين الدراستين لأوضح من خلالهما كيف أن الهجرة تلعب دورا كبيرا فى بينة المجتمع، وما يهمنى هنا هو ما حدث للمجتمع المصرى فى الفترة الأخيرة من هجرة داخلية تمثلت فى " هجرة الريفيين إلى المدن"، وما قامت به هذه الهجرة من أحداث تغير كان له أثر بالغ فى الآتى:

- تمييع الفروق الريفية الحضرية، فقد أدى هجرة العديد من الريفيين إلى المدن إلى عدم وضوح الفروق الريفية والحضرية حيث اندمجت تلك الوفود المهاجرة من الريف فى الحياة الحضرية وتكيفت مع أوضاعها، كما قام هؤلاء الريفيون بالعمل فى معظم نشاطات ومجالات الحياة الاقتصادية، ودخلوا المدارس والجامعات، وتزوج أبناءهم واستقروا فى المدن، بحيث تلاشت الفروق بينهم واختفت إلا من من يحاول الإبقاء على انتماءه للريف ولو بسمات طفيفة وسلوكيات خاصة.

---

(١) انظر بالتفصيل لهذه الدراسة فى كتاب: " البترول والسكان والتغير الاجتماعي" - دراسة انثروبولوجية، د. محمد عبده محجوب، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥، (السلسلة الأنثروبولوجية - الكتاب الرابع).

- ولعبت هذه الهجرة دورًا كبيرًا فى البناء اللغوى السائد، حيث جاء هؤلاء الريفيين إلى المدن يحملون معهم لغتهم التى تتضمن ألفاظهم ومصطلحاتهم المميزة، فأضافت العديد إلى العامية الدارجة، كما قام هؤلاء المهاجرين بالتكيف مع لغة أهل المدن حتى يستطيعوا الإندماج معهم ومعايشتهم، بل أن هناك من تخلص من لهجته الريفية تمامًا وأصبح يتحدث بلغة أهل المدينة بما تحويه الآن من مستحدثات وألفاظ دخيلة يطلقون عليها " لغة العصر ".. ولم تصبح اللغة علامة مميزة لمن يتحدث بها، حيث اختلطت لهجة أهل الريف بلهجة أهل المدن، وأصبحت العامية المستحدثة هى لغتهم الأساسية.
- أدت هجرة الريفيين إلى المدن وتمركزهم بها إلى اختلال الطبقات والتوزيعات الديموجرافية، فتباينت الطبقات، وتعددت الفئات التى تنتمى إلى موطن واحد، كما قضت الحياة فى المدينة على الكثير من العادات والتقاليد الخاصة بأهل الريف وذلك لاندماجهم تمامًا فى حياة المدن وتلاشت القيم الريفية الأصلية فى زحام ماديات الحياة الحضرية. هذا البعد يلعب دورًا كبيرًا فى الحياة اللغوية، حيث أن التكيف مع المجتمع وطرقه وأنظمته يتطلب التكيف تمامًا مع اللغة السائدة والتعامل بها، وهذا ما حدث تمامًا لمن جاءوا إلى المدن، بحيث نستطيع أن نؤكد على أن العامية المستحدثة أصبحت لغة أهل الريف والمدن معًا، وهذا يعنى أن اللغة الجديدة تنتشر انتشارًا سريعًا بحيث أصبحت قادرة على أن تطغى على معظم اللهجات الريفية المتعددة.

البعد الثانى: تميع الفوارق الطبقية:

تعد اللغة واحدة من الوسائل التى تمثل مجريات الضبط الاجتماعى من منطلق أنها تمثل فى أدائها ووظيفتها أكثر الأنشطة الإنسانية ارتباطًا

بمجموعة القيم والمعايير التي يتواضع عليها المجتمع ويعبر عنها. وفى مسرحية (بيجمالون Pygmalion) قدم لنا الكاتب المسرحى (برنارد شو B.Shaw)، عالم الصوتيات هيجنز Higgins، وقد التقط من إحدى الأحياء الفقيرة فى لندن بائعة الورد " اليزار دولتيل" وهى فتارة فقيرة من أسرة كادحة تتكلم لهجة العاملة ليتعهدها بالتعليم اللغوى والصوتى الشاق ويعودها على أداب السلوك الراقية حتى يصبح حديثها كحديث سيدات الطبقة الارستقراطية اللندنية، ويقول " شو" فى مقدمة مسرحيته: " اننى أقرر- تشجيعًا لأولئك الأشخاص الذين يتحدثون لهجات فقطعهم عن كل مركز رفيع - ان ذلك التحول الذى أحدثه "هيجنز" فى بائعة الورد لا هو بالمستحيل ولا بالأمر غير المألوف، فكثير من ذوى الطموح رجالاً ونساءً قد استطاعوا أن يكتسبوا لهجة جديدة راقيةً غير لهجاتهم الأصلية. (١)

ونتساءل هنا:

هل يمكن أن تشكل اللغة دالة طبقية مميزة ؟

هناك عدة محاولات للإجابة على هذا التساؤل أبرزها تلك التى قامت بها اللغوية الإنجليزية " مارجريت شلاوش M. Schlacuch " وذلك لإظهار أن لغة الشخص يمكن أن تكون دالة طبقية مميزة، وأكدت على ذلك بما يعانيه الشخص من مشقة باللغة إذا حاول أن يطور لغته الدالة على وضع طبقى معين حتى تصبح مثيلة للغة طبقية أدنى أو أعلى، كما أكدت على أن اللغة ظاهرة طبقية تنتمى للشريحة الطبقية التى تتحدث بها.

---

(١) انظر: Shaw, B., Pygmalion, Pengain, London, 1949, P. 149.

من: محمود السعران، علم اللغة، مقدمة للقارئ العربى، مرجع سبق ذكره، ص ٣١٢.

كما ذهب اللغوى الروسى " مار Maar " إلى حد ربط الظاهرة اللغوية بنوعية العلاقة الإنتاجية السائدة فى المجتمع الذى يتحدث بها، ومن ثم فهناك مثلا:

- اللغة المشاعية - اللغة العبودية - اللغة الرأسمالية .. الخ.

والاختلاف والتدرج الاجتماعى Social Stratification ظاهرة لايخلو منها أى مجتمع، وترجع هذه الاختلافات إلى أمور كثيرة بعضها له علاقة بالنسب، وبعضها له علاقة بالثروة، وبعضها مرتبط بالمهنة أو السن أو الدين أو الجنس، ولا شك أن تغير اللغة تبعًا للطبقة التى يتحدث بها لايرجع إلى الصيغة الاقتصادية لمفهوم الطبقة فقط، بل يرجع إلى تكامل صيغها الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والشخصية.(1)

ولا جدال فى أن للتباين الاجتماعى أثرًا كبيرًا على اللغة، فلو بحثنا فى لغة محلية واحدة وعامة، لوجدنا أن الاختلافات الطبقية فى اللغة تخضع لاتجاه واحد محدد، فالصوتيات وأصول الكلمات ملك مشاع لكل الطبقات الاجتماعية، فى حين تظهر الاختلافات الطبقية فى اختيار المفردات اللغوية وطريقة استعمالها، فصوتيات اللغة (مجموعة الأصوات التى تتكون منها الكلمات) واحدة فى أى مجتمع لغوى مهما تعددت طبقاته الاجتماعية، وقد توجد بعض الاختلافات البسيطة ولكنها لا تصل إلى حد يفوق عملية التفاهم بين الطبقات، لأن كل طبقة قد اختلطت بالأخرى وقتا يكفى لإدراك هذه الاختلافات فى النطق، كما أن الاختلافات بين لهجات اللغة الواحدة ليست بالقدر الذى يعوق عملية التفاهم.

---

(1) Dillard, J. L., General Introduction: Perspectives on Black English, First Ed., Mouton, 1975, P. 36.

مثال لذلك:

- أهل الطبقة الراقية فى نيويورك يستخدمون These Girls بدلا من Dese Goils والتى يستخدمها أهل الطبقة الدنيا.[1]

- وفى العامية المصرية يستخدم أهل الطبقة الدنيا مصطلح (اقعدوا بالعافية) بجانب (السلام عليكم) التى يستخدمها معهم أهل الطبقة الراقية (السلام عليكم فقط).

- وهناك فرق بين لغة الكتابة أو الخطابة ولغة الحديث اليومى العادى، فقد قام بعض اللغويين بتجارب هامة أثبتت أن الخاصة يستخدمون فى كلامهم الدارج - فى غفلة - منهم تركيبات لغوية تشبه إلى حد كبير التركيبات اللغوية التى يستخدمها العامة.[2] وتظهر الاختلافات بوضوح عند استعمال المفردات اللغوية من ناحية الكم والكيف بين طبقة وأخرى ومهنة وأخرى، فتستعمل كل مجموعة مفرداتها اللغوية الخاصة بها التى لا يفهمها أفراد المجموعة الأخرى.

- وفى صدد العلاقة بين اللغة والطبقات الاجتماعية ثمة بعض الأساليب التى تفيد دارس علم اللغة الاجتماعى فى هذا الموضوع، فبرنشتين Bernstien الذى يعمل حاليًا أستاذًا لعلم اجتماع التربية فى معهد التربية التابع لجامعة " لندن" قد افترض أنه يوجد شكلان للغة دعاهما: الشفرة المتقنة - الشفرة المقيدة.

---

(1) Pei, M., Language for Everybody, New English Library, Limited. London, 1968, P. 83.

(2) Ibid., P. 85.

- **الأولى**: تميل - فى رأيه - لأن تستعمل فى مواقف المناقشة الأكاديمية أو الرسمية، ولها تأثيز على النطق ويمكن تمييزها لغويا بتضمنها كمية كبيرة من الجمل التابعة والصفات والظروف وأدوات الجر والضمائر.
- **والثانية**: فهى على العكس، تميل لأن تستخدم فى المواقف غير الرسمية بين العائلة والأصدقاء، وتملك تأثير تأكيد عضوية المتحدث فى الجماعة، ويستنتج برنشتين أن ثمة علاقة بين استعمال هاتين الشفرتين وعضوية الطبقة الراقية.[1]
- ويوصى اللغوى الأمريكى لا بوف W.Labov بأنه ليس من الضرورى فى هذا الصدد اللجوء اللجوء إلى أسلوب المسح الشامل. وهو فى كتابه (التدرج الاجتماعى للغة الانجليزية فى مدينة نيويورك).

(The Social Stratification of English in New York City..)

قد لجأ إلى اسلوب المسح بالعينة، حيث قام بمقابلات مسجلة مع أربعة وثلاثين مواطنا، مستعينا كذلك بالمخبرين الذين تمّ اختيارهم بواسطة العينة الممثلة.[2]

والواقع .. فإن الأساليب المنهجية التى طورها لا بوف تمثل علامة هامة على طريق دراسة اللهجات من المنظور الطبقى الاجتماعى، فلقد أثبت أنه من غير الممكن اختيار متحدث واحد لنعمم من خلاله أية ملامح لغوية على نفس طبقته الاجتماعية ذلك لأن حديث الفرد (Idiolect) ربما يختلف عن أقرانه من نفس الطبقة علاوة على أنه ربما يكون غير متناغم أو متسق.

---

(1) Pei, M., Op. Cit., P. 86.

(2) Fishman, J., The Sociology of Language, Op. Cit., 1971, P. 93.

ونتساءل: هل مازالت اللغة فى مجتمعنا المصرى تشكل علامة مميزة يمكن من خلالها تحديد الطبقة ؟

الواقع أن الاجابة على هذا التساؤل تكون بالنفى، وذلك بسبب سمتين أصبحتا من أهم السمات الطبقية فى مجتمعنا وهما:

١- عدم وضوح الفوارق أو الحدود الطبقية لغويا.

٢- فقدان الألقاب والعبارات لمدلولاتها الأصلية وتداولها بمعانى جديدة.

ولا جدال أننا أصبحنا نعانى فى السنوات الأخيرة من تمييع شديد فى الفوارق الطبقية، فقد تلاشت الحدود والفوارق، بحيث لم نعد نستطيع أن نحدد الطبقة الاجتماعية بوضوح كما كان من قبل، وذلك يعود إلى الخلل الواضح فى تركيب الحياة الاقتصادية الذى نعيشه الآن، فقد فقد الهرم الطبقى فى مجتمعنا معالمه، ولم يعد هناك معايير ثابتة وواضحة يمكننا من خلالها تحديد الطبقة الاجتماعية، فلم يعد التعليم أو الثروة مثلا معيارا لتحديد مستوى الطبقة الاجتماعية، وبالطبع انعكس ذلك بوضوح على اللغة السائدة، فأصبحت اللغة العامية المستحدثة يتكلم بها معظم أبناء الشعب من مختلف الطبقات، ومن ثم تلاشت الفروق اللغوية بينهم، ولم نعد قادرين على تحديد الطبقة لغويا.

كما أن فقدان الألقاب والعبارات لمدلولاتها الأصلية وتداولها بمعانى جديدة سمة أصبحت تغلب على العامية الدارجة، وكما نعرف ففى كل لغة نجد هناك تمييزا فى الضمائر أثناء الكلام تمييزا كبيرا وذلك للتعبير عن المستوى الاجتماعى للمتكلم والمخاطب والغائب، وهناك مصطلحات خاصة بدرجة الوضع الطبقى للمتحدث، فمثلا فى العامية المصرية نجدهم يستخدمون:

- الست الكبيرة للإشارة إلى الجدة.
- سعادة البك للإشارة إلى رب البيت أو منصب كبير.

ولكن الآن نرى الأمور اختلطت فى استخدام تلك الألقاب فنرى الناس الآن يكثرون من استخدام كلمات مثل:

يالورد - ياباشا - ياكبير - ياريس ... الخ.

والمهم فى هذا أنهم أصبحوا يطلقونها على كل نوعيات الناس من مختلف الطبقات والمهن ومستويات التعليم، فقد نجدهم يطلقون على (تاجر الخردة) مثلا لقب: الكبير، وعلى (تاجر السيارات) لقب: اللورد، وعلى (الملازم أول فى الشرطة) لقب: الباشا ... وهكذا.

كما فقدت عاميتنا الكثير من مقاييس اللياقة والتهذيب فى الحديث، وهى مقاييس تختلف باختلاف العصور والطبقات الاجتماعية واللهجات المحلية، كما تشترك فى تحديدها عوامل أخرى كثيرة، فما يساغ التلفظ به من كلمات عند الذكور قد لا يساغ عند الإناث، وما يتحدث به الكبار لا يليق بالصغار، وما يسمح بقوله فى جلسة عائلية لا يستساغ فى جلسة أخرى، والملاحظ أن كثيرا من المجتمعات تشترك مثلا فى تحريم كلمات وعبارات متعلقة بموضوعات معينة " كالموت" و" الأمراض الخطيرة" وبعض الوظائف الفسيولوجية للجسم الإنسانى وما يتصل به من أعضاء، ففى كثير من الشعوب نجد هناك استعمالات لفظية بارعة تجنبا لاستعمال الكلمتين البسيطتين: (يموت - ويمرض).

ففى الانجليزية تستعمل بدلا من الكلمة المقابلة لكلمة (يموت) كنايات مثل Passing away-taking on earth.[١]

وفى العربية الفصحى نجد هناك أمثلة كثيرة فى تجنب استخدام مصطلحات خاصة فى اعلانات النعى على وجه الخصوص، وذلك مثل كلمة: توفى إلى رحمة الله - البقاء لله - ذهب إلى جوار ربه - توفاه الله ...وهكذا.[٢]

كذلك نجد أن اللغة العربية تتلمس أحسن الحيل وأقربها إلى الادب فى التعبير عن العورات، فتلجأ إلى المجاز فى اللفظ، وتستبدل الكناية بصريح القول: القبل، الدبر، قضى حاجته .. الخ، وكذلك لنا أسوة فى ألفاظ القرآن الكريم: " نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم"... " واهجروهن فى المضاجع".. وما إلى ذلك.[٣]

وهناك بعض الكلمات العامية فى اللغة العربية والتى قد نخجل من استخدامها وتحكما فى ذلك مقاييس اللياقة فى آداب الحديث ولكنها فى حقيقة الأمر عربية فصحى، **فعلى سبيل المثال:**

كلمة (بظرميت) ومعناها الأحمق فى الأصل.

كلمة (الأروبه) وهى التى بها وصف المرأة الساكتة المترقبة التى تعرف ولا تفصح.

---

(1) Schlauch, M., The Gift of Tongues, Family Relationship Among Languages, The Viking Press, Inc., London, 1962. P: 279.

(٢) محمود السعران، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربى)، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٠.

(٣) المرجع السابق، ص ١٣٢.

- كلمة (المدعوق) وهو لفظ تحقير والأصل دعقت الدواب الطريق دعقا أى داسته دوسا حتى أثر فيه.

- وهناك (لقح نفسه) و (لعلع) و (لكاك) و (لهط الطعام) وغيرها وغيرها من كلمات كثيرة ولكنها عربية فصحى. (١)

وقد اختفت الآن مقاييس اللياقة فى الكلام بصورة واضحة ولم يعد الناس يهتمون بانتقاء الألفاظ ومراعاة التهذيب فى الحديث، فأصبحنا نسمع بمصطلحات وكلمات لم نكن نسمعها من قبل، ولا يخجل الناس من استخدامها، خاصة تلك الخاصة بالصفات، فأصبحنا نعتاد مثلا سماع كلمات مثل: لبط - عوء - شماط - فسو - زومبجى - أرت - دهل - شفنطحى .. الخ(٢)، من كلمات خالية من الذوق واللياقة.

كما تغيرت لغة التحيات والمعاملات اليومية بين الناس، بحيث أصبحت تقال بطريقة غريبة لم نعهدها من قبل، فأصبحنا نسمع تحيات مثل: صباح العسل، صباحك جميل ياهندسة.

كما انتشرت جمل وعبارات سلام مثل:

فى أمان الله ورعاية الطفل - طريقك زراعى - اشارتك خضراء - بدحرج التماسى ويكون الرد: وأنا القفه ... الخ.

كما تدهورت الألفاظ والمصطلحات الخاصة بأساليب المعاملة بين الناس فى الحياة اليومية وفى شئون حياتهم، فنألف الآن سماع كلمات مثل:

---

(١) هناك ألف وأربعمائة كلمة فى محيط اللغة العربية ترددها الألسنة كلغة عامية مألوفة بحيث تبدو للكثيرين أنها من قاع اللغة العامية بينما هى كلمات عربية فصحى.. ولمزيد من التفاصيل فى ذلك: انظر: كتاب الدكتور/ محمد داود التنير، بعنوان " ألفاظ عامية فصحى".

(٢) انظر معانى هذه المصطلحات فى الجزء الخاص بها فى الملاحق.

حنلعب على المكشوف - زق عجلك - بلاش اللون الغامق - أديله صابونه - معاك شلل أطفال - حنشتغله فى الأزرق - اديله فى التمنيات ..الخ.[1]

وهذا كله أن دل على شئ فإنما يدل على التدهور البالغ فى العامية الدارجة وما تحويه من معانى ومسميات وأساليب تعبير مختلفة.

البعد الثالث : اللغة والنكتة فى المجتمع المصرى:

الحاجة إلى الفكاهة والضحك مصدرها امتلاء الحياة بالمشاق والآلام، لذلك كان الضحك هو المتنفس الذى يخفف ضغطها، وينسى همومها، ويلقى الكاهل بعض اثقالها، ويحرر من قيودها ولو للحظة قصيرة يسترد فيها الإنسان أنفاسه في فيحتمل من جديد متاعب الحياة.

ويرى " هوبز" أن الشئ الذى يثير الضحك لابد أن يكون ناقص التركيب أو مشوه التكوين، لذلك فهو يثير فينا شعورا بالكمال يعارض ما بالشئ المضحك من نقص، ويكون هنا بمثابة اتفاق جماعى على الكمال ضد النقص.[2]

- والنكتة تعتبر نوع من الإبداع الشعبى، وهى تقوم على التوريه والكناية، وتعبر فى كثير من الأحيان عن المشاعر الحقيقية لأعضاء المجتمع تجاه بعض الأوضاع ولكن فى صورة غير مباشرة، فالنكتة فى مصر لها دلالات مختلفة منها الدلالة السياسية والاجتماعية، فليست النكتة صادرة من المتفكهين للضحك والإضحاك فحسب، وليست أمام الباحثين

---

(١) انظر معنى العبارات فى الملاحق.
(٢) د. فاطمة حسين الحصرى، الشخصية المصرية (دراسة نفسية تحليلية انثروبولوجية) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤، ص ٦٦.

طرائف للهو وجلب السرور وإنما هى فى كثير من حالاتها تصوير للحالة السياسية بما فيها من تحكم وسخرية أو نقد أو دعاية أو غيرها من صنوف الفكاهة، وذلك بأن الناس لا يستطيعون أحيانا أن ينالوا من حكامهم بالأسلوب الجدى مخافة البطش أو التنكيل أو العقاب - فيلجأون إلى الأسلوب الفكاهى لأنه مضمون العاقبة.(١)

والكلمة فى النكتة يصبح لها أكثر من مدلول، فنراها مختلفة ومتعددة المعانى، وقد تبدو الألفاظ فيها بسيطة ولكن فى مضمونها تحمل معنى عميق وصريح.

والشعب المصرى لديه " ملكة "! اختراع النكتة، فنراه يترجم أى موقف جديد أو أوضاع متناقضة فى مجتمعه إلى كلمات وجمل يشكل منها فى نهاية الأمر " فكاهة" تثير الضحك.. وقدرة المصرى على اصطناعه للنكتة ماهى إلا تعبيرا عن فهمه الدقيق الواضح العميق لما يجب أن يكون عليه قول أو فعل ما.. فإذا جاء مخالفا أو معارضا لما يجب أن يكون تظهر النكتة أو السخرية والفكاهة، كما أنها رد فعل لفرط ذكائه ووضوح فكره وعلمه وثقافته .. وانتشار النكتة بين الناس يكون لديهم حصيلة لغوية جديدة وأن كانت تتضمن تلك الحصيلة مدلول مختلف عما ألفناه، وهى بذلك تساعد على انتشار المصطلحات والألفاظ الجديدة بين عامة الشعب، فما من أحد يسمع نكتة طريفة ولا يقوم بترديدها بعد ذلك، بل نراه يقوم بسردها على المحيطين به وبأسرع وقت قبل أن ينساها، ومن ثم فانتشار "النكتة" وما تحويه من ألفاظ يأتى سريعا بين الناس، وهى بذلك تشكل أيسر الطرق فى نشر المفردات والألفاظ الجديدة.

(١) المرجع السابق ، ص ٦٨.

ولعل أسرع مثال لنشر الألفاظ والكلمات الجديدة بين الناس عن طريق النكتة هو ما يلعبه " الكاريكاتير اليومى" فى خلق مرادفات ومصطلحات جديدة يقرأها معظم الناس، حيث يظهر هذا "الكاريكاتير" فى الصحف اليومية، فنجد الرسامين المتخصصين فى ذلك الجانب يكثرون من استخدام الألفاظ والكلمات المستحدثة والتى تعلق فور قراءتها بأذهان وعقلية الناس، ويقومون بترديدها بعد ذلك من باب السخرية، وقد يقصد بها الصحفى أو الرسام توصيل فكرة ما للناس بطريقة بسيطة ومرحة، ولكنه فى النهاية وعن طريق خلق تلك الكلمات والمرادفات فإنما يساعد على نشرها وترسيخها فى ذهن وعقول الناس ومن ثم نجدها شائعة بعد ذلك على ألسنتهم فى كل مكان.

البعد الرابع: لغة الأغانى وانعكاسها على اللغة العامية:

الأغنية جزء من التراث الشعبى، وهى لون من ألوان الفنون له أثر بالغ فى حياة أى مجتمع، كما أنه أكثر أنواع الفنون انتشارا بين الناس على اختلاف أهدافها الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

والأغنية نوع من الفنون يسمعه كافة الناس من خلال عدة وسائل كالإذاعة والتليفزيون وشرائط الكاسيت .. وهذا الأخير أصبح الآن له التأثير الأكثر فى انتشار الأغنية ورواجها. وفيسلوف الصين "كونفشيوس" كان أول من تنبه منذ مئات السنين إلى أهمية الاعتناء بالكلمة المكتوبة فى الأغنية حيث قال: " أنا لا أهتم بمن يضعون للناس قوانينهم، قدر اهتمامى بمن يكتبون لهم أغانيهم". وقد قال هذا فى وقت لم تكن هناك إذاعة أو تليفزيون أو شرائط كاسيت .. تلك الوسائل التى تتيح للأغنية انتشارها الكبير فى عالمنا اليوم.

والأغنية تعتبر دائما تلبية لحاجات نفسية واجتماعية وسياسية تمثل عصرها، فنسأل هنا:

هل ما نسمعه اليوم يمثلنا أو يمثل عصرنا ؟

ان المجتمع المصرى يعيش فى مرحلة تنوع وتفاعل وتغير يختلف تماما عن الماضى نتيجة لتطورات عديدة برزت فى بيان ذلك المجتمع فأدت إلى تغير الأنماط التقليدية التى كانت سائدة قبل ذلك، فأصبحت الآن مختلفة بشكل كبير جدا، وانعكس هذا على " الأغنية" بشكل مباشر نتيجة للثقافات الكثيرة التى انتشرت بين الناس ونتيجة لتذبذب الأوضاع الاجتماعية والطبقية بين الناس وظهور عناصر طفيلية لم نعهدها من قبل، فلقد أصبح المجتمع فى حالة تعدد وتنوع يصل إلى درجة التنافر، وهناك تنوع فوضوى يعبر عن التشرذم، والتنوع معروف فى العالم كله، ولكن على أن يبقى النسيج الاجتماعى متقاربا إلى حد كبير.

وفى المجتمع المصرى الآن أصبح الناس يعيشون فى فوارق اجتماعية كبيرة، وخلفيات ثقافية كثيرة، والجزء المشترك بينهم شاحب وغير واضح ومتقارب، خلق عندهم نوعا من النظرة العبثية للحياة نتيجة لتلك التغيرات والفوارق والتى خلقت ظروفا شديدة التباين وعديمة المنطق إلى أبعد الحدود، هذا كله انعكس على كلمات ومفهوم (الأغنية المصرية).. كما أن الحوار العرقى أصبح يمثل ركنا هاما فى تكوين الأغنية، حيث أصبحت الكلمات واللهجات العرقية المختلفة تنعكس بشكل واضح وأساسى على أغانينا، بعد ما كانت الأغنية المصرية تتسم باللغة العربية الصحيحة (سواء كانت فصحى أم عامية).

ونتساءل كيف انعكس كل ذلك على الأغنية، وماذا يغنى المصريون الآن؟

أن هناك سيل من الأغانى الهابطة ينهمر على ساحة الأغنية المصرية التى كانت على مدى سنين طويلة فى ذروة الجمال كلاما ولحنا وأداء، وأصبح الآن بعض دعاة الطرب هم رواد الأغنية المصرية، فقد غير هؤلاء من مسار الأغنية فى منتصف السبعينيات عندما خرجوا بأغنيات غير مألوفة ورفضت هذه الأغنيات من قبل مؤسسات الأعلام الرسمى لأنها اعتبرت رديئة وسطحية، إلا أن شركات إنتاج الكاسيت رحبت بهان لأن فى اعتقادها أن هذا النوع من الغناء يروق لطبقة العمال والحرفيين التى اتسع نطاق عملها وكثرت أرباحها، مما جعل منها قوة تفرض رأيها ومزاجها على الأعمال الفنية بمختلف أنواعها.

البعد الخامس: الأعلام:

تلعب وسائل الاعلام دورا كبيرا فى حياة أى مجتمع من المجتمعات، ووسائل الأعلام تحوى العديد من المنافذ، وذلك مثل:

- التلفزيون.
- السينما وأفلام الفيديو.
- الإذاعة المسموعة.

فاتجاهات الأفراد بل وسلوكهم ولغتهم قد تتغير بعد رؤيتهم لفيلم معين أو بعد سماع برامج معينة، لذلك فالأفلام وبرامج التليفزيون وكذلك القصص وبرامج الإذاعة لها تأثير كبير على سلوك وعقلية الأفراد.

فعلى سبيل المثال :

هناك احتمال تقليد المجرمين لما يرونه على شاشة السينما أو يسمعونه، وقد يستخدم المجرمون المعلومات التى يحصلون عليها من مثل هذه المصادر.[1]

ولا زالت وسائل الأعلام خاصة " جهاز التليفزيون" عاجزة عن تحديد المادة الصالحة للمستمع أو المشاهد، فأصبحت تقدم لنا أعمالا تكاد تكون خالية من أية نواح ثقافية أو تربوية تساعد على النهوض بعقلية المشاهدين والأجيال الجديدة التى تشاهد هذه الأعمال.

وإذا نظرنا إلى " المادة اللغوية" التى تحتوى عليها معظم أعمال التليفزيون وأفلام الفيديو لوجدنا أنها من أهم الأسباب المباشرة فى ظاهرة التدهور اللغوى الذى نعانى منه الآن.. حيث تقدم لنا هاتان الوسيلتان مادة لغوية تحوى الكثير من الألفاظ المستحدثة والدخيلة على اللغة العربية. كما أصبحت معظم الأعمال التى تقدم مرتبطة بظاهرة " إدمان المخدرات"، كما انتشرت أفلام التجارة والمقاولات وتجارة العملة وغيرها من الأعمال والمهن الناتجة عن سياسة " الانفتاح".

وقد يعتقد من يقدمون تلك المادة أنهم بذلك يقدمون صورة واقعية مستوحاه من الواقع المصرى وما يعيشه من صراعات وتناقضات، وقد يكون الأمر كذلك، ولكنهم فى نفس الوقت يساعدون المشاهد على ترسيخ القيم المادية فى غفلة أكثر من القيم الروحية، كما أنهم فى نفس الوقت يعملون على انتشار التدهور الذى نعانى منه فى لغتنا.

---

(١) د. عبد الرحمن العيسوى، علم النفس (علم وفن)، دار المعارف بمصر، ١٩٧٥، ص١٧٠.

فمعظم هذه الأعمال تحتوى على ألفاظ وكلمات مستحدثة غريبة النطق والمعنى، يرددها عامة الناس سريعا بعد رؤيتهم للعمل الذى تقدم من خلاله.. ولعل الخطورة هنا تكمن فى أن " التليفزيون" جهاز خطير يدخل كل بيت، ويشاهده كل أفراد الأسرة من الصغار والكبار، وهذا الجهاز لم يعد يخضع لأى رقابة خاصة بالمادة الثقافية واللغوية التى يقدمها فأصبحت معظم أعماله تحتوى على ألفاظ وكلمات لا يصح أن تصدر من هذا الجهاز الأعلامى الخطير.

كما تشكل هذه الوسيلة الأعلامية خطورة بالغة على الجيل الجديد من الصغار، حيث أننا لا نستطيع أن نمنع أطفالنا وأبناءنا من مشاهدة هذا الجهاز، ومن ثم فإنهم يلتقطون ما يقدم من خلاله من ألفاظ ومصطلحات ويرددونها بعد ذلك فيما بينهم حتى تصبح جزءا من بنائهم اللغوى، ومن هنا فالمادة اللغوية التى تقدم من خلاله إن لم تكن سليمة فإنما ستعمل على هدم قواعد لغتنا العامية الدارجة على المدى الطويل من خلال هذه الأجيال الجديدة التى ستنشأ حتما على تلك اللغة المستحدثة المتدهورة، وبذلك نكون قد فشلنا فى نقل لغتنا العامية والراقية إلى الأجيال القادمة.

الخلاصة

لغتنا هامة فى حياتنا ومجتمعنا سواء كانت (العربية الفصحى) أم (العربية العامية) ولا شك أننا مطالبون بالحفاظ عليها (فصحى وعامية) وذلك حتى يمكن لنا النهوض من خلالها بحضارتنا وثقافتنا، كما أن اهتمام العالم الغربى بلغتنا يؤكد على كذب الدعوة القائلة بأن اللغة العربية لغة أدبية لا تصلح لأن تكون لغة علمية، فهذه الدعوة باطلة تزعمها كثير من الكتاب الغربيين فى وقت ما، وكان هدفهم من ذلك هو محاربة اللغة العربية والقضاء عليها، وهذه الدعوة بلا شك دعوة باطلة بدليل ما يشهد به ماضى هذه اللغة الزاخر بالفتوحات العلمية والثقافية، فلقد استوعبت هذه اللغة جميع أنماط المعرفة الإنسانية من علوم ورياضة وفلسفة، وحتى وإن صدقت دعوى أن العربية لغة أدبية، فهذا يحسب لها لا عليها، فاللغة إذا كانت ناجحة أدبيًا لا بد أن تنجح علميا، لأن المادة العضوية للغة هى الأدب الذى ينميها ويمدها بالحياة.

وأصبح الخطأ فى اللغة شيئًا عاديًا ومألوفًا ابتداء بالخطب والأحاديث التى يلقيها الوزراء والمسئولين، وانتهاء بنشرة الأخبار فى الإذاعة والتليفزيون، وبعد أن كنا نتعلم النطق السليم من أئمة مساجدنا وأساتذة مدارسنا ومقالات كتابنا، أصبحت الصورة مختلفة تمامًا.

وظاهرة الثنائية اللغوية أمر مألوف ونجده فى معظم اللغات الإنسانية، ولا محال من وجودهما معًا فى أى مجتمع إنسانى، فوجودهما هام لبقاء تلك المجتمعات، فالفصحى فى مجتمعنا هى لغة بلادنا التى تعبر عن قوميتنا العربية، بجانب أنها لغة ديننا أى لغة (القرآن الكريم) الذى نسترشد به ونسير على تعاليمه، كما أنها السبيل الأساسى للنهوض ببلادنا

وثقافتها، والعامية هى لغة الحياة اليومية بين الناس، فهى لغة جميع الطبقات والفئات، فهى موجودة لكى تخدم أهلها فى شئونهم العامة خاصة فى مجتمع تسود فيه نسبة الأمية، وهذا يعنى أننا لو فقدنا احداهما (الفصحى أو العامية) فقدنا بذلك جزءا من بنياننا وبنيان لغتنا الحية.

ولقد أصبحت أزمة العامية فى مجتمعنا كالطوفان يكتسح كل شئ أمامه وبمنتهى القوة والسرعة، والأزمة لها شقان:

- الاقتباس
- المستحدثات.

واللغة بما أنها هى الوعاء الذى يعبر عن فكر من يتكلمها وترجمة للمدارك والعقول، فهى بلا شك تعبر من خلال تلك الأزمة التى تعيشها من أوضاع وعوامل هى من وجهة نظرى أكثر الوسائل تأثيرا فيها، وعامل رئيسى من عوامل التدهور الذى تعانيه.. وأهم هذه العوامل:

- العامل الاقتصادى.
- العامل الاجتماعى والثقافى.
- العامل السياسى.

وتشمل هذه العوامل الثلاثة عدة أوضاع وجوانب جديدة وجدت بفعل التغير الذى شملها، ومن ثم كان انعكاسه الواضح على العامية، وأهمها:

فترة الانفتاح الاقتصادى وما تتضمنه من نظم اقتصادية لم تعرف من قبل، خلقت من خلالها طبقات وفئات طفيلية بين جموع الشعب لها أثر بالغ فى التغير اللغوى الذى يحدث.

- انتشار تجارة المخدرات وزيادة أعمال التجارة بمختلف أنواعها وأعمال المقاولات والسمسرة وتجارة العملة، ولهذه الفئات والأعمال قدرة غريبة على خلق وإضافة المستحدثات بحيث تصبح جزءا لا يتجزأ من العامية الدارجة.

- شيوع المستحدثات في العامية على ألسنة القادة والمسئولين جعلها شيئا عاديا ومألوفا، فتحدث بها معظم أفراد الشعب.

- وسائل الاعلام وما تحويه من طرق ووسائل عديدة تؤثر في الناس تأثيرا مباشرا، فتقديمها لتلك المادة اللغوية التي تحوى المستحدثات والمرادفات اللغوية في العامية يساعد كثيرا على تغير اللغة على ألسنة الناس في حياتهم اليومية.

- لا شك أن تميع الفوارق الطبقية واختلاط اللهجات نتيجة لهجرة أهالي الريف إلى المدن أصبحت من أهم سمات المجتمع المصرى، ولم تعد اللغة قادرة على أن تكون دالة طبقية مميزة في ظل هذا المناخ المتناقض... وأصبحت العامية المستحدثة اللغة الرئيسية لمعظم الفئات والطبقات في مجتمعنا.

المراجع

أولا: المراجع العربية:

١- ابراهيم أنيس، من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٦.

٢- ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مطبعة لجنة البيان العربية، ١٩٥٠.

٣- أحمد رضا العاملي، مولد اللغة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٦.

٤- أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعي (المفهومات)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.

٥- أحمد أبو زيد، عالم الفكر (مجلة دورية) المجلد الثاني، العدد الأول، ابريل ١٩٧١، الكويت، مقالة بعنوان (حضارة اللغة).

٦- أحمد أبو زيد، عالم الفكر (المجلد الحادى عشر)، العدد الثاني، سبتمبر ١٩٨٠، الكويت، مقالة بعنوان (النصوص والإشارات).

٧- السيد أحمد عبد الغفار، التصور اللغوى عند الأصوليين، دار عكاظ للطباعة والنشر، جدة ١٩٨٠.

٨- أمين الخولي: محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية، معهد الدراسات العربية العالمية، مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٥٨.

٩- أنيس فريحه، محاضرات فى اللجات وأسلوب دراستها، معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٥.

١٠- رالف بيلز، هارى هوجر، مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة، مترجم، الناشر دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٧.

١١ سامية محمد جابر، الاتصال الجماهيرى والمجتمع الحديث، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٣.

١٢- شوقى جلال، الأصوات والإشارات، مترجم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢ (سلسلة العلم للجميع).

١٣- طلعت منصور، عالم الفكر، (مجلة دورية) المجلد الحادى عشر، العدد الثانى سبتمبر ١٩٨٠، الكويت مقالة بعنوان (سيكلووجية الاتصال).

١٤- عبد الحليم النجار، العربية دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب، مطبعة دار الكتاب العربى، مترجم عن كتابب (يوهان فك).

١٥- عبد العزيز مطر، لهجة البدو فى ساحل مريوط، دار الكتاب العربى، ١٩٦٧.

١٦- عبده الراجحى، اللغة وعلوم المجتمع، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، ١٩٧٧.

١٧- على عبد الواحد وافى، علم اللغة، مطبعة الاعتماد بمصر، ١٩٤٤.

١٨- على عبد الواحد وافى، نشأة اللغة عند الإنسان والطفل، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ١٩٦٢.

١٩- على عبد الواحد وافى، اللغة والمجتمع، دار إحياء الكتب العربية، مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية، ١٩٥١.

٢٠- على محمود مزيد، علم اللغة العام فى الفكر العربى، المطبعة العالمية، ١٩٧٨.

٢١- فندريس ج، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلى، محمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٠.

٢٢- كارلتون أس. كون، السلالات البشرية الحالية، ترجمة محمد السيد غلاب، مكتبة الانجلو المصرية.

٢٣- محمود السعران، اللغة والمجتمع رأى ومنهج، المطبعة الأهلية، بنغازى، ١٩٥٨.

٢٤- محمود السعران، علم اللغة مقدمة القارئ العربى، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢.

٢٥- محمود حجازى، مدخل إلى علم اللغة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٨.

٢٦- محمود حجازى، علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠.

٢٧- محمد العربى الخطابى، مزالق الألفاظ (مقالة) مجلة الفيصل، مجلة ثقافية، العدد ٣٤، السنة الثالثة.

٢٨- محمد عاطف غيث، علم الاجتماع (الجزء الأول)، دار الكتاب الجامعى، ١٩٧٣.

٢٩- محمد عارف، تالكوت بارسونز (رائد الوظيفية المعاصرة فى علم الاجتماع) مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٢.

٣٠- نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، مجلة دورية (عالم المعرفة)، ١٩٧٨.

ثانيا: المراجع الأجنبية:

1- Iarnett, H.G., Innovation the Basis of Cultural Change, McGraw-Hil1 book C. Ivc.,1953.

2- Bidney, David, Theoretical Anthropology, Second Augmented E., 1967.

3- Bloomfield, Leonard, Language History From Language, EEd. by Harry Hoijer, Univ. of Cal-fornia, 1933.

4- Casson, Ronald, Culture and Cognition, Anthroplogy Perspective, Mac. Pub. Co. Inc., 1981, New York.

5- Enc. Britinica, Linguistics, Volume 14, Year,1966.

6- F. De Sauasuire, Course de Linguististique Général Fourth Edition, Paris, 1949.

7- Hammond, Peter, An Introduction to Culture and Social AnthropolJgy, Mac. 1971. New York.

8- Hudson R.A., Sociolinguistics, Univ. of London Cambridge, C. Press, 1980.

9- Haviland, William, Cultural Anthropology, Univ. of Termont, Inc., New York, 1970.

10- Haviland, William, Anthropology, Univ. of Termont, Copyright (C). 1974 by Holt Rinchart and Winston, Inc., New York.

11- Jordan, David., Anthropology Perspective on Humanity, Univ. of California, Copyright (C) 1976 by John Wiley, U.S.A.

12- Kluckhohn, Clyde, The Concept of Culture Ed. Ralph Linton, New York, 1945.

13- ------------, Patterning in Navaha Culture (Language, Culture and Personality). ed. Lestie Spier, Pub. 1941.

14- Lander, Herbert, Language and Culture, Oxford, U.P., 1966, New York.

15- Parsons, Talcott. Theories of Society, Foundation of Modern Sociological Theory, Volume II 1961. U.S.A: F.Presa of Gleucoe.

16- Pride J.B, The Social Meaning of Ianguage Oxford Univ. Press, 1971.

17- PEi, Mario, The Story of Language, J.B. Iippincott Company, Philadelphia, 1949.

18- -----------, AU About Language, J.B. Lippincott Comp. Philadelphia New York, 1954.

19- Simeon Potter, Language in the Modern World, Penguin Book, Inc., U.S.A., 1960.

20- Serokin A.P., Social and Culture Dynamies, (Basis Problem, Principles and Methods). Volume 1111, 1941.

21- Tyler, E.B, Primitive Culture, Researched in the Development of Muthology, 1971, 5 ed., First Ed., 1913.

22- White, Leslie, The Symbol, (The Orgin and basis of Human Behavior, Philosophy of Science, 1940).

23- Whitehead., A.N., Modes of Thoughts, The Free Press, New-York 1968.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الفصل الأول: اللغة فى حياتنا	٩
• مقدمة	١١
• أهمية اللغة فى حياة البشرية	١٣
• طبيعة اللغة ومفهومها لدى العلماء	١٧
• هل يمكننا التعامل بدون الحدث	٢٨
• السوميوطيقا .. الاتصال ووسائله	٢٩
• لغة الحيوان كأساس للسلوك الاجتماعى داخل بيئتهم.....	٤٧
• الخلاصة	٥٢
الفصل الثاني: اللغة كعلم وكظاهرة	٥٥
• مقدمة	٥٧
• أصل اللغة الانسانية ونشأتها........................	٥٩
♦ لغة الطفل ونشأة اللغة وتطورها	٦١
♦ النظرية الأولى	٦٤
♦ النظرية الثانية: (نظرية البو- وو Bow-Waw)	٦٩
♦ النظرية الثالثة (نظرية البوه – البوه Pooh-Pooh) ...	٧٠
♦ النظرية الرابعة: (نظرية الإشارات الصوتية)	٧١
• اللغة كعلم "علم اللغة العام"........................	٧٧
• علم اللغة الوصفى..	٨٢

الموضوع	الصفحة
• علم اللغة التاريخ	٨٣
• علم اللغة المقارن	٨٤
• كيف يدرس الباحث اللغوى الانثربولوجى اللغة..........	٩٠
• لمحة عن تاريخ الدراسات اللغوية..................	٩٧
• الاتجاهات اللغوية المعاصرة......................	١٠١
• الخلاصة....................................	١٠٤
الفصل الثالث: تغير اللغة فى المجتمع	١٠٧
• مقدمة......................................	١٠٩
• تغير اللغات..................................	١١١
• علم اللغة الاجتماعى ودراسته للغة كظاهرة اجتماعية....	١٢٢
• اللغة كعنصر اتصالى ووظيفتها في المجتمع............	١٢٩
• الخلاصة....................................	١٣٦
الفصل الرابع: اللهجة فى المجتمعات	١٤٣
• مقدمة......................................	١٤٥
• مفهوم اللهجة.................................	١٤٧
• كيف يدرس الباحث اللغوى الانثربولوجى اللهجة في المجتمع....................................	١٥١
• طريقة اكتساب الطفل للهجة في بيئة خاصة............	١٥٩
• أسباب نشأة اللهجات:...........................	١٦٤
• لهجات محلية..................................	١٦٩
• لهجات اجتماعية................................	١٦٩

الموضوع	الصفحة
• محاولة انشاء لغة عالمية لا يمنع من التعدد والانقسام....	١٨٠
• الخلاصة..	١٨٤
الفصل الخامس: عوامل التغير فى اللغات العامية	١٨٧
• مقدمة	١٨٩
• ماذا حدث للغة العربية العامية فى مجتمعنا	١٨٩
• لمحة تاريخية عن تطور اللغة العربية في مجتمعنا	١٩٠
• خصائص اللغة العربية	١٩٨
• العامية والفصحى .. وأزمة الثنائية	٢٠٦
• أزمة العامية في مصر (ظاهرة الاقتباس والمستحدثات)	٢١٠
• التغير الذى حدث في المجتمع المصرى وأثره على لغتنا العامية الدارجة	٢١٧
• التحول الاقتصادى في السنوات الأخيرة وأثره على العامية	٢١٩
• الجماعات المهنية التى تتأثر ألسنة العامة بالألفاظ الخاصة بها	٢٢٤
• العوامل الاجتماعية والثقافية وأثرها على العامية	٢٣٤
الخلاصة	٢٦٠
المراجع	٢٦٣
فهرس المحتويات	٢٦٩